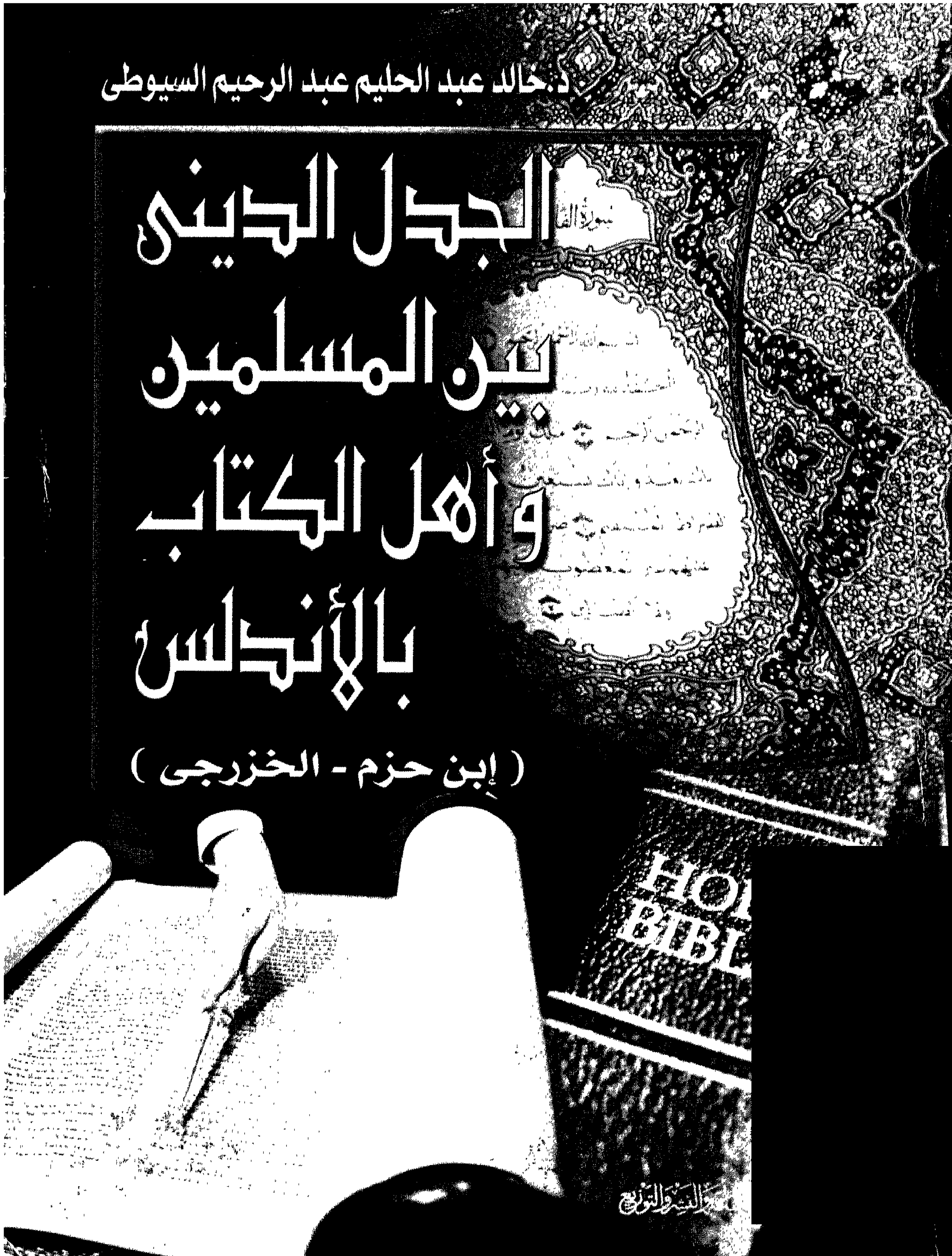
د. خالد عبد الحليم عبد الرحيم السيوطى

الجدل الدينى بين المسلمين وأهل الكتاب بالأندلس

(إبن حزم - الخزرجى)



النشر والتوزيع

الجدل الدينى

بين المسلمين وأهل الكتاب بالأندلس

(ابن حزم - الخزرجي)

الجدل الدينى

بين المسلمين وأهل الكتاب بالأندلس

(ابن حزم - الخزرجى)

تأليف

د. خالد عبد الحليم عبد الرحيم السيوطى

الناشر

دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع(القاهرة)

الكتـــــاب : الجدل الدينى بين المسلمين وأهل الكتاب بالأندلس

المـــؤلــــف : د. خالد عبد الحليم عبد الرحيم السيوطى

رقـم الإيـداع : ٢٥٩٥ / ٢٠٠١ م

التـرقيم الدولى : I S B N

977 - 303 - 326 - 0

تاريخ النشـــر: ٢٠٠١م

النـاشــــر : دار قباء

للطباعة والنشر والتوزيع

الإدارة ٥٨ شارع الحجاز - عمارة برج امون

الدور الأول - شقة ٦

☎ ٦٣٦٢٥٦٢- فاكس / ٦٣٧٤٠٣٨

المكتــــبــــة : ١٠ شارع كامل صدقى الفجالة (القاهرة)

☎ ٥٩١٧٥٣٢ / ✉ ١٢٢ (الفجالة)

المـــطـــابـــع : مدينة العاشر من رمضان - المنطقة الصناعية (C1)

☎ ٠١٥/٣٦٢٧٢٧

WWW. alinkya.com/debaa

e-mail: qabaa @ naseej.com

الله

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بين فتح المسلمين للأندلس بقيادة طارق بن زياد (٩٢هـ/٧١١م) وخروج الأمير أبى عبد الله آخر حكام المسلمين بالأندلس (٨٩٧هـ/١٤٩٢م) شهدت الأمة الإسلامية فى الأندلس تاريخًا مليئًا بالعبر ، فقد شهد التاريخ الأندلسى قيام الحضارة الإسلامية، وازدهارها ثم انهيارها .

وكانت هذه الحضارة ذات ملامح متميزة ؛ حيث التقى على أرض الأندلس الشرق والغرب ، وتهيأت الفرصة لكى يتم الاحتكاك الثقافى بين أتباع الديانات الثلاث من المسلمين واليهود والنصارى ، وكان الجدل الدينى من أهم مظاهر هذا التفاعل الحضارى وقد وقع اختيارى على دراسة الجدل الدينى فى الأندلس متمثلاً فى جدل ابن حزم ، وأحمد بن عبد الصمد الخزرجي ؛ لعدة أسباب من أهمها :

١ - معرفة الأثر الحضارى ، الذى تركه المسلمون بالأندلس فى تأسيس علم مقارنة الأديان .

٢ - الكشف عن جانب مهم من جوانب حضارة المسلمين فى الأندلس ، وتفاعلهم الفكرى ، والعقدى مع أصحاب الرسالات السماوية .

كذلك معرفة الأثر الذى تركه هذا الجدل الدائر فى الأندلس على علماء المشرق، والكشف عن مدى الإفادة العلمية، التى أفادها المشرقيون من علماء الأندلس فى هذا المجال . ويلقى ذلك الضوء على التبادل الثقافى، والفكرى الذى كان قائمًا بين الأندلسيين والمشرقيين .

٣ - التعرف على طبيعة المشكلات التى كانت قائمة بين المسلمين وأهل الكتاب بالأندلس ومقارنتها بمثيلاتها فى الشرق ؛ لمعرفة مدى تشابه أو اختلاف هذه المشكلات بين الأندلس ، والمشرق ، وكيفية معالجة علماء الأندلس ، والمشرق لهذه الاختلافات الجدلية والعقدية .

٤ - الكشف عن الدور المهم الذى قامت به بعض الشخصيات الأندلسية فى الدفاع عن الإسلام وإثبات صحة عقائده ، ونقد عقائد مخالفيه من أهل الكتاب ، وعلى رأس هؤلاء ابن حزم الظاهرى ، وأحمد بن عبد الصمد الخزرجى .

٥ - معرفة مدى التزام المسلمين بآداب الجدل الرفيعة ، التى استمدوها من القرآن الكريم ، وسيرة النبى ﷺ .

ولا ريب أن هذا الجدل سيتعرض لدراسة تاريخ الأديان ، ومقارنتها ، وهى علوم أصبحت فى ظل التطورات السريعة ، والمتلاحقة التى يشهدها عالمنا المعاصر تدرس الأديان على مستويات متعددة ، فتاريخ الأديان يُعنى بمعرفة التطورات التاريخية ، التى صاحبت دينًا ما من حيث ظهوره والعقبات التى واجهت انتشاره ، وتاريخ صاحب الرسالة ، وكذلك دراسة تواتر الكتب المقدسة ... إلخ .

ومقارنة الأديان تهتم بالمقارنة بين الأديان من حيث العقائد كالألوهية بين الإسلام واليهودية ، والنصرانية وكذلك النبوة بين الديانات الثلاث ، أو دراسة النسخ بين هذه الأديان . ومن الممكن أن تتم المقارنة أيضًا على مستوى الشرائع كالزواج ، وغير ذلك من أحكام الأسرة ، وباقى الأحكام التشريعية الأخرى التى يمكن دراستها فى صورة مقارنة .

ومن الممكن أن نقارن الطقوس ، والشعائر ، أو العبادات بين الأديان كالصلاة والزكاة والصوم والحج ... إلخ .

ومن الصعوبات التى واجهتنى فى إعداد البحث عدم التوازن القائم بين شخصيتى الدراسة فأولهما (ابن حزم) معروف لدى الأوساط العلمية، والثقافية . أما الشخصية الثانية (أحمد بن عبد الصمد الخزرجى) ، فغير معروف نسبيًا، والتحقيقات العلمية التى تمت لكتابه الوحيد الذى وصلنا « مقامع هامات الصلبان، ومراتع روضات الإيمان» لم تبين الكثير عن حياة هذه الشخصية ولم تشف الغليل فى الكشف عن مكانته العلمية فى عصره ، وكانت هذه هى المفارقة القائمة بين هذين العلمين الجليلين ، وينبغى التغلب عليها ، ومحاولة الموازنة بينهما قدر الإمكان .

الفصل الأول

سيرة ابن حزم وابن أبى عبيدة الخزرجى ومصنفاتهم

عند دراسة الشخصيات العلمية، والتعرض لجهودها الفكرية، فإنه يجدر بالباحث الإحاطة بسيرتهم الذاتية، وما أثَّر فى نشأتهم من ظروف البيئة الخاصة «الأسرة» والبيئة العامة كالأحوال السياسية، والاجتماعية، والدينية، والفكرية، التى كانت سائدة فى عصرهم، مما يؤثر فى تكوينهم العلمى ومن ثم ينعكس على إنتاجهم الفكرى الجدير بالحصر، والتحقيق والتصنيف.

أولاً - ابن حزم :

سيرة ابن حزم :

يعتبر ابن حزم من الشخصيات اللامعة فى التاريخ الإسلامى العلمى؛ حيث يقف على قدم المساواة مع أعلام؛ مثل الغزالى (ت ٥٠٥هـ)، وابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) وابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) وغيرهم من المفكرين المسلمين وسأبدأ بالتعريف بهذا العالم الأندلسى:

(أ) اسمه :

يدعى على بن أحمد بن سعيد حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معد بن سفيان ابن يزيد مولى يزيد بن أبى سفيان صخر بن حرب الأموى.

(٢) لقبـه :

ليس لابن حزم لقب مميز به، وإنما ذكرت المصادر ألقاباً له اشتهرت بين علماء المسلمين وتذكر عادة قبل أسمائهم، مثل الحافظ، الأديب[١]، الفقيه، المجتهد[٢].

(٣) كنيته :

يكنى بأبى محمد، وكثيراً ما كان ابن حزم يصدر كلامه بقوله: قال أبو محمد

(٤) نسبه :

لابن حزم نسب علمي، فيقال ابن حزم الظاهرى نسبة للظاهرية التى اتخذها منهجًا له ونسب جغرافى، فيقال: ابن حزم القرطبى نسبة إلى قرطبة مسقط رأسه، أو الأندلسى نسبة إلى وطنه الأندلس، وأخيراً لابن حزم نسب عرقى أو جنسى، وهو موضع خلاف بين المؤرخين على النحو التالى:

أغلب المصادر التاريخية تنسب ابن حزم لأصل فارسى، فذكر هذا النسب الحميدى (ت٤٨٨هـ) فى جذوة المقتبس [٣]، وابن خير الإشبيلى (ت٥٧٥هـ) فى فهرست ما رواه عن شيوخه[٤]، وابن بشكوال (ت٥٧٨هـ) فى الصلة[٥]، وعبد

---

(١) البداية والنهاية: ابن كثير أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت٧٧٤هـ) دار الفكر العربى ط١ هـ/١٩٣٢ م - جـ١٢ - أحداث سنة ٤٥٦هـ . ص ٩١

(٢) تذكرة الحفاظ : الذهبى شمس الدين أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/١٣٧٤م) عنى بطبعه السيد مصطفى على - المجلد الثالث - الطبقة الرابعة عشر ص٣٤١

(٣) جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس، وأسماء رواة الحديث، وأهل الفقه والأدب، وذوى النباهة، والشعر: الحميدى أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله (ت٤٨٨هـ) - نشر وتحقيق مكتب الثقافة الإسلامية - شخصية رقم ٧٠٨ ص٢٠٩

(٤) فهرست ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة فى ضروب العلم، وأنواع المعارف : أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة الأموى الإشبيلى (ت٥٧٥هـ) - تحقيق فرنسشكة قدارة زيدين، وتلميذه خليار باره طرغوة - منشورات المكتب التجارى ببيروت - مكتبة المثنى بغداد - مؤسسة الخانجى القاهرة ١٩٨٣م - ص ٤١٠

(٥) الصلة : ابن بشكوال أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت٥٧٨هـ) - الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م - القسم الثانى - ج٧- شخصية رقم ٨٩١٤ - ص ٤١٥

الواحد المراكشى (ت٦٤٧هـ) فى المعجب فى تلخيص أخبار المغرب وذكر أن هذا النسب وجد مكتوبًا بخط ابن حزم على ظهر كتاب من تصانيفه[١]، وابن خلكان (ت٦٨١هـ) فى وفيات الأعيان[٢]، وابن كثير (ت٧٧٤هـ) فى البداية والنهاية[٣]، وابن العماد الحنبلى (ت١٠٨٩هـ) فى شذرات الذهب[٤] وكذلك ورد هذا النسب الفارسى فى «المغرب فى حلى المغرب»[٥].

وينفى مروان بن حيان نسب ابن حزم الفارسى، ويذهب إلى أنه اسبانى الأصل؛ إذ يقول :

"وقد كان من غرائبه انتماؤه فى فارس، واتباع أهل بيته له فى ذلك بعد حقبة من الدهر تولى فيها أبوه الوزير المعقل فى زمانه، الراجح فى ميزانه أحمد بن سعيد بن حزم لبنى أمية أولياء نعمته، لا عن صحة ولاية لهم عليه، فقد عهده الناس خامل الأبوة، مولد الأرومة[٦] من عجم لبلة جده الأدنى حديث عهد بالإسلام [٧]" وقد نقل هذا الأصل الإسبانى المؤرخون، الذين نقلوا كلام ابن حيان كياقوت الحموى[٨]،

---

(١) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب : عبد الواحد المراكشى (ت ٦٤٧هـ) تحقيق الأستاذ محمد سعيد العريان - القاهرة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث - ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م - ص ٩٣

(٢) وفيات الأعيان، وأنباء أبناء الزمان : ابن خلكان شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر (ت٦٨١هـ) - تحقيق د. إحسان عباس - دار الثقافة ببيروت - شخصية رقم ٤٨٨ - ص٣٢٥

(٣) البداية والنهاية : ابن كثير - جـ١٢ - ص٩١

(٤) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب : أبو الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى (ت١٠٨٩هـ) - دار الآفاق ببيروت - تحقيق لجنة إحياء التراث العربى - ج٣ سنة ٦٥٦هـ دو تاريخ.

(٥) المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد - تحقيق د. شوقى ضيف - دار المعارف ج١ - ص٣٥٤

(٦) الأرومة هى الأصل.

(٧) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة : أبو الحسن على بن بسام الشنتريني (ت٥٤٢هـ) - تحقيق د.إحسان عباس - دار الثقافة بيروت -ط٢ - ١٣٩٩هـ.١٩٧٩م - المجلد الأول - القسم الأول ص١٧٠

(٨) معجم الأدباء : ياقوت الحموى - ج١٢ - شخصية رقم ٦٢ - ص ٢٥٠

ويذكر القفطى (ت٦٤٦هـ) أن أصل آباء ابن حزم من غرب الأندلس(١)، ولا يذكر شيئًا عن نسبه الفارسى ولعل ذلك يرجع لاختصار القفطى فى تقصى أخبار ابن حزم.

وتنقى أستاذتنا الدكتورة سهير فضل الله أبو وافية أن يكون ابن حزم، كما يذكر ابن حيان من المولدين وهم ذرية الإسبان الذين أسلموا بعد الفتح الإسلامى نظرًا للخصومة، والعداء، الذى يكنه ابن حيان تجاه ابن حزم؛ حيث كان والداهما يعملان فى وزارة المنصور بن أبى عامر، وكانت بينهما منافسة(٢).

والعجيب أن أحد المستشرقين(٣) ذهب إلى أن ابن حزم ينحدر من أصل يونانى جريًا وراء نسبة كل عبقرية إلى اليونان، وكأن اليونان وحدها هى موطن العباقرة(٤).

والظريف أن صاحب كشف الظنون نسب ابن حزم للأمويين بعد نسبة أحد الكتب إليه(٥).

وأرى بعد الاطلاع على مختلف هذه الآراء أن ابن حزم سواء كان من أصل فارسى، أو من الأندلس، أو غيرها فإنه فى نهاية الأمر لا يخرج عن كونه مفكرًا مسلمًا كتب باللغة العربية، ووالده وأجداده كانت لهم أسماء عربية. كما أن ابن حزم

---

(١) إخبار العلماء بأخبار الحكماء : القفطى جمال الدين أبو الحسن على بن القاضى الأشرف يوسف (ت٦٤٦هـ) – مكتبة المتنبى – دون تاريخ.

(٢) ابن حزم علم من أعلام الفكر الإسلامى بالأندلس : د. سهير فضل الله أبو وافية – مجلة الدراسات الإسلامية فى الأندلس – عدد خاص حول الإسلام فى الأندلس – ربيع وصيف ١٤١٢هـ/١٩٩١م – م٢٦ عدد ١، ص٣٢٨

(٣) مستشرق إيطالى يدعى جبريلى .

(٤) ابن حزم علم من أعلام الفكر الإسلامى بالأندلس: د.سهير فضل الله أبو وافية – ص٣٣٠

(٥) ورد "إظهار تبديل اليهود والنصارى فى التوراة والإنجيل، وبيان تناقض ما بأيديهم مما لا تحتمل التأويل للشيخ أبى محمد علي بن أحمد الأموى المتوفى سنة ست وخمسين وأربعمائه" كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجى خليفة – طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة فى طبعتها البهية سنة ١٩٤١م/١٣٦٠هـ المجلد الأول ص ١١٨

هو إفراز الحضارة الإسلامية، والمجتمع العربى المسلم بالأندلس، الذى تفاعل معه وكان أحد عناصره المؤثرة.

(٥) مولد ابن حزم :

حدد ابن حزم ساعة مولده، ومكان ولادته تحديداً دقيقًا قلمًا نجده فى ترجمة علماء المسلمين قديمًا؛ حيث ذكر أنه ولد بقرطبة فى الجانب الشرقى فى ربض منية المغيرة [١]، قبل طلوع الشمس، وبعد سلام الإمام من صلاة الصبح - آخر ليلة الأربعاء آخر يوم من شهر رمضان المعظم سنة أربع وثمانين، وثلاثمائة من الهجرة[٢].

(٦) نشأة ابن حزم :

نشأ ابن حزم نشأة منعمة، فوالده كان وزيراً فى عهد المنصور بن أبى عامر[٣]، وكان لأسرة ابن حزم قصر عظيم امتلأ بالجوارى الحسان، الذى تعلم ابن حزم فى فترة مبكرة من حياته على أيديهن؛ إذ يقول : "ولقد شاهدت النساء، وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيرى؛ لأنى ربيت فى حجورهن، ونشأت بين أيديهن، ولم أعرف غيرهم، ولا جالست الرجال إلا وأنا فى حد الشباب، وحين تفيل وجهى، وهن علمننى القرآن، وروينني كثيراً من الأشعار، ودربننى فى الخط[٤] ..".

وهذا النص لابن حزم يعكس مدى الرقى الحضارى، الذى بلغته المرأة الأندلسية فى كنف الحضارة الإسلامية بالأندلس، ويتضح من النص السابق أيضًا أن النساء كن على معرفة بالقرآن الكريم، والشعر العربى، والخط العربى، ويعلمن الأطفال فى القصور.

---

(١) المنية : هى مكان الإقامة الذى تحيط به الحدائق الواسعة.

(٢) الصلة البشكوالية - قسم ٢ - جـ ٧ - ص ٤١٧

(٣) المنصور بن أبى عامر كان هو الحاكم الحقيقى للأندلس بعد وفاة المستنصر، حيث أصبح وصيًا للخليفة هشام المؤيد الذى كان صغيراً.

(٤) طوق الحمامة فى الإلفة والألاف لابن حزم الأندلسى تحقيق الطاهر أحمد مكى - دار المعارف طه سنة ١٤١٣هـ/١٩٩٣م ص٧٩

وكان لوالد ابن حزم الوزير الشاعر أحمد بن سعيد بن حزم (ت٤٠٢هـ) أثر عظيم فى نشأته فحرص على تلقينه منذ نعومة أظفاره، وكان ينصحه بأن الإنسان إذا أراد أن يعيش فى غنى فعليه بالقناعة بما قسم الله له، والرضى بأقل مما أعطاه الله تعالى، فذكر ابن حزم أو والده أنشده فى بعض وصاياه قائلاً:

إذا شئت أن تحيا غنيًا فلا تكن على حالة إلا رضيت بدونها(١)

ولكن هذا العيش الرغد، الذى نشأ فيه الفتى الأندلسى لم يكن ليستمر، فما إن شب حتى بدأ الدهر يلقى بتقلباته على ابن حزم، وأسرته.

(٧) النكبات العائلية التى أصابت ابن حزم :

بمجرد إعلان وفاة الخليفة هشام المؤيد سنة ٣٩٩هـ، وتوالت النكبات على أسرة ابن حزم، إذ يقول : "ثم شُغِلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات، وباعتداء أرباب دولته، وامتُحِنا بالاعتقال، والترقيب، والإغرام الفادح والاستتار، وأرزمت الفتنة، وألقت باعها، وعمت الناس، وخصتنا إلى أن توفى أبى الوزير رحمه الله، ونحن فى هذه الأحوال، بعد العصر يوم السبت لليلتين بقيتا من ذى القعدة عام اثنين وأربع ومائة، واتصلت بنا تلك الحال بعده(٢) ..".

وبالفعل استمرت تقلبات الدهر تعصف بابن حزم، وأسرته إذ قام جند البربر(٣) بنهب منازل ابن حزم بالجانب الغربى من قرطبة مما اضطره إلى مغادرتها سنة٤٠٤هـ وأخذ يتسمع أخبارها، فوصفت له بأنها قد طُمِست معالمها، وصارت صحارى جدية بعد العمران وأصبحت مأوى للذئاب، ملاعب للجان ... إلخ.

---

(١) الصلة لابن بشكوال – القسم الأول ص ٢٥

(٢) طوق الحمامة لابن حزم ص١٤٧. وكان لابن حزم أخ (ت ٤٠١هـ) انظر طوق الحمامة ص١٥٤

(٣) كان المنصور ابن أبى عامر (ت٣٩٢هـ) قد قرب البربر، وقوى شوكتهم، وقد أثاروا القلاقل بالأندلس فى هذه الفترات التاريخية.

ولعل خير معبر عن حال ابن حزم هو ابن حزم نفسه؛ إذ يقول لمحدثه: "فأنت تعلم أن ذهنى متقلب، وبالى مهصر بما نحن فيه من نبو الديار، والخلاء عن الأوطان، وتغير الزمان، ونكبات السلطان، وتغير الإخوان، وفساد الأحوال، وتبدل الأيام، وذهاب الوفر، والخروج عن الطارفِ والتالدِ، واقتطاع مكاسب الآباء، والأجداد والغربة فى البلاد، وذهاب المال والجاه، والفكر فى صيانة الأهل والولد، واليأس عن الرجوع إلى موضع الأهل والولد، ومدافعة الدهر، وانتظار الأقدار، لا جعلنا الله من الشاكين إلا إليه"[(١)].

ويجدر بنا أن نتعرف على أساتذة ابن حزم الذين تلقى على أيديهم العلم.

ويمكن معرفة أساتذة ابن حزم من خلال المصادر التى ترجمه له، ومن خلال ما كتبه عن نفسه، ومن أساتذة ابن حزم محمد بن الحسن المذحجى[(٢)] (مات بعد الأربعمائة هجرية) وكان شيخه فى المنطق، ويعرف بابن الكتانى القرطبى، وكان أديبًا، وشاعرًا.

وسمع ابن حزم كذلك من أبى عمر أحمد بن الجسور[(٣)] (ت٤٢٠هـ)، ويحيى ابن مسعود[(٤)] وتعلم الفقه على أبى عبد الله بن دحون[(٥)] (ت٤١٢هـ).

ومن أساتذة ابن حزم "القاضى يونس بن عبد الله (ت٤٢٢هـ) وأبى بكر حمام ابن أحمد القاضى (ت٤١٦هـ)، وأبى محمد بن بنوس القاضى [(٦)] ..." .

(١) طوق الحمامة لابن حزم ص١٩٧

(٢) البداية والنهاية لابن كثير، حـ ١٢ أحداث سنة ٤٥٦هـ ص٩١ وفيات الأعيان لابن خلكان م٣ ص٣٢٦، تذكرة الحفاظ للذهبى م٣ ص ٣٤١ – نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب المقرى المطبعة الأزهرية ط١ سنة ١٣٠٢هـ – جـ١ ص١٣٣.

(٣) جذوة المقتبس ص٢٠٩، شذرات الذهب جـ٣ سنة ٤٥٦هـ – الصلة قسم ٢ جـ٧ ص٤١٥، ٤١٦ تذكرة الحفاظ م٣ ص ٣٤١

(٤) شذرات الذهب جـ٣ سنة ٤٥٦هـ تذكرة الحفاظ م٣ ص٣٤١

(٥) معجم الأدباء جـ ١٢ ص ٢٤١، ٢٤٢

(٦) الصلة قسم ٢ جـ ٧ ص٤١٥ مع ملاحظة أنه ورد بتذكرة الحفاظ عبد الله بن يوسف القاضى وليس يونس.

ومن أساتذة ابن حزم محمد بن سعد (ت٤٥٠هـ)، وعبد الله بن ربيع التميمى (ت٤٤٢هـ) وعبد الله بن خالد (ت ٤٣٣هـ)، وعبد الله بن يوسف بن يامى[١].

وذكر ابن حزم أن من أساتذته الشيخ أبى القاسم عبد الرحمن بن أبى يزيد المصرى، فقال إنه ذهب : "فى لمة من الطلاب، وأصحاب الحديث، ونحن نريد مجلس الشيخ أبى القاسم عبد الرحمن بن أبى يزيد المصرى أستاذى ؟ رضى الله عنه[٢].".

وكذلك ذكر من أساتذته الفقيه أبى الخيار اللغوى [٣] (ت٤٢٦هـ)، الذى درس ابن حزم على يديه الأدب، وتأثر به فى الانتقال للمذهب الظاهرى[٤].

وذكر ابن حزم أيضًا أنه تلقى الحديث عن عبد الله بن محمد الأزدى، وسائر شيوخ المحدثين بقرطبة فى فترة تلقيه العلم بها[٥].

بعد هذه الإلمامة السريعة بسيرة ابن حزم فإنه يجدر بنا أن نتعرف على أهم ملامح البيئة العامة فى عصره والتى تركت أثرها فى فكره، وشكّلت وجدانه، ومزاجه الشخصى وهو ما سنوضحه فيما يلى:

١ - الأحوال السياسية فى عصر ابن حزم :

عاش ابن حزم فى أواخر القرن الرابع الهجرى، حتى أوائل النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى (٣٨٤هـ : ٤٥٦هـ) وهى فترة تاريخية شهدت تطورات سياسة خطيرة ومؤثرة فى تاريخ الأندلس، ويكفى أن نشير إلى أن المؤرخين قد انقسموا فى تحديد، وتسمية بعض الفترات التاريخية، فمنهم من رأى أن الخلافة الأمية قد سقطت فعليًا بوفاة الخليفة الأموى المستنصر بالله (ت٣٦٦هـ)[٦] وتولية

(١) تذكرة الحفاظ الذهبى م٣ ص٣٤١

(٢) طوق الحمامة لابن حزم ص ١٠٢، ١٦٦

(٣) طوق الحمامة لابن حزم ص١٤٠ أبو الخيار هو مسعود بن مفلت الشنتريني، وكان ظاهرى المذهب.

(٤) GAL.I.S 692. U تاريخ آداب العرب لبروكلمان.

(٥) طوق الحمامة لابن حزم ص ١٥٧

(٦) الحكم الثانى بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله تولى الخلافة فى الفترة ٣٥٠هـ : ٣٦٦هـ

ابنه هشام المؤيِّد بالله الخلافة، وهو فى الحادية عشرة من عمره؛ حيث كانت السلطة الفعلية فى يد المنصور بن أبى عامر رغم أنه يحكم باسم الدولة الأموية(١).

وهناك من اعتبر أن سقوط الخلافة الأموية كان بإعلان وفاة هشام المؤيِّد سنة٣٩٩هـ حيث بدأ عصر الطوائف (ملوك الطوائف)، وتقدر إمارات الطوائف بست عشرة، أو عشرين إمارة مستقلة يغلب على ملوكها الأنانية، والظلم، والضعف.

وأخيراً هناك من ذهب إلى أن هذا العصر بدأ بالإعلان الرسمى لسقوط الخلافة الأموية بالأندلس عام ٤٢٢هـ.

كل هذه التطورات السريعة، والمتلاحقة، والتى عاصرها ابن حزم، تركت آثارها فيه، وعبر عنها فى كتاباته، بل اصطلى بنارها؛ حيث اتهم بأنه يدعو للدولة الأموية بعد سقوطها ٤٠٧هـ، واعتقل لمدة شهر، ثم خرج مطروداً من "ألمرية".

دعوى ولاء ابن حزم للأمويين :

ارتبطت أسرة ابن حزم تاريخيًا بالأمويين، فجد ابن حزم الأعلى يزيد كان مولى ليزيد ابن أبى سفيان، ثم عمل والد ابن حزم (أحمد بن سعيد) وزيرًا للخليفة الأموى هشام المؤيِّد ولكى نتعرف على موقف ابن حزم من الدولة الأموية وممن نازعوها الخلافة كالعامريين والحموديين، فإنه لزامًا علينا أن نفهم موقفه الفقهى ممن يستخق الخلافة وطرق تولية الخليفة فحدد ابن حزم شروط الإمامة بقوله : "وإنما يجب أن يكون الإمام قرشيًا بالغًا ذكرًا مميزًا. بريئًا من المعاصى الظاهرة حاكمًا بالقرآن والسنة فقط(٢)" .

---

(١) كيف ضاع الإسلام من الأندلس بعد ثمانية قرون "مأساة الفردوس المفقود (٩٢ : ٨٩٧هـ) (٧١١م/١٤٩٢م) عبد الفتاح مقلد الغنيمى سنة ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

(٢) الفصل : ابن حزم - ج٤ - ص ١٨٠

وهكذا نجد ابن جزم اشترط قرشية الإمام : "وهم ولد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، الذين يرجعون بنساب آبائهم إليه[١]" وهذه القرشية لم تتوفر فى العامريين الذين نازعوا الأمويين الخلافة، فطبيعى أن يتنكر ابن حزم لمحاولات عبد الرحمن شنجول العامرى[٢] الحصول على ولاية العهد من الخليفة هشام المؤيِّد؛ لأن العامريين من أهل اليمن وليسوا قرشيين فيقول ابن حزم: "من تسمى بالأمر والخلافة من غير قريش، فليس خليفة ولا إمامًا ، ولا من أولى الأمر فهو فاسق عاص لله تعالى هو وكل من ساعده ، أو رضى أمره لتعديهم حدود الله على لسان رسول الله (ﷺ)[٣]".

أما بالنسبة لبنى حمود ، وهم قرشيون من سلالة على ابن أبى طالب – كرَّم الله وجهه – وقد استطاعوا الانتصار على الأمويين : "وظهرت دولة الطالبية، وبويع على بن حمود الحسنى المسمى بالناصر بالخلافة[٤] "وكان هذا سنة ٤٠٧هـ، وأشرنا إلى اتهام ابن حزم بالدعوة لبنى أمية؛ إذ يقول : "وفى إثر ذلك نكبنى خيران صاحب ألمرية؛ إذ نقل إليه من لم يتق الله – عز وجل – من الباغين وقد انتقم الله منهم عنى وعن محمد ابن اسحاق صاحبى أنَّا نسعى فى القيام بدعوة الدولة الأموية[٥]..".

ورغم أنه ليس بين أيدينا ما يؤكد أن ابن حزم كان يدعو للأمويين، فإننى أرى أنه قد تنكر للحموديين رغم قرشيتهم – وذلك لأنه يرى جواز تولية الإمامة عن طريق

(١) المحلى : ابن حزم تحقيق لجنة إحياء التراث العربى ج١ – دار الجيل ودار الآفاق بيروت ص٤٤

(٢) عبد الرحمن بن أبى عامر المنصور، وقد لقب بالمنصور وبشنجول وهو تصغير اسم أحد أخواله، وكان قد تولى الوزارة سنة ٣٩٩هـ، واستطاع الحصول على مرسوم من هشام المؤيَّد يعطيه ولاية العهد من بعده.

(٣) المصدر السابق – ج٩ – كتاب الإمامة – ص٣٦٠

(٤) طوق الحمامة : ابن حزم – ص١٥٥، ١٥٦

(٥) المصدر السابق ص ١٥٦

ولاية العهد[1] وهذا ما لم يتوفر للحموديين الذين اغتصبوا السلطة من الأمويين الذى جروا على ولاية العهد فى أعقابهم.

من كل ما سبق فإنى أرى أن ابن حزم طبقًا لآرائه الفقهية مال لحق الأمويين فى الخلافة وإن كان ليس بين أيدينا ما يدل على أن هذا الميل قد وصل إلى درجة الدعوى لهم كما أنه لم يكن يميل للأمويين تعصبًا، وإنما اقتناعًا بمواقف فقهية اتخذها، وقد هاجم ابن حزم خروج سيدنا معاوية على طاعة الإمام على فقال : "وأما أمر على و الحسن ومعاوية، فقد صح عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه أنذر بخارجة تخرج من طائفتين من أمته يقتلهما أولى الطائفتين بالحق، فكان قاتل تلك الطائفة على رضى الله عنه، فهو صاحب الحق بلا شك، وكذلك أنذر عليه السلام بأن عمارًا تقتله الفئة الباغية"[2].

---

(١) ويجيز ابن حزم إذا لم يذكر الخليفة وليًا للعهد أن يبادر بعد موته أحد القريشيين ويدعو لنفسه ويكون هو الأولى بالخلافة لسبقه بالدعوى لإمامته ويجيز كذلك أن يعهد الإمام إلى رجل ثقة أو أكثر من ثقة لاختيار الخليفة.

(٢) الفصل : ابن حزم – ج٤ – ص١٥١ ورد بصحيح مسلم (حدثنى عبيد الله القواريرى حدثنا محمد ابن عبد الله بن الزبير حدثنا سفيان عن حبيب بن أبى ثابت عن الضحاك المشرقى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث ذكر فيه قومًا يخرجون على فرقة مختلفة يقتلهم أقرب الطائفتين من الحق) ص١٨٦ – ورد بصحيح بخارى : (حدثنا مسدد قال حدثنا عبد العزيز ابن مختار قال حدثنا الحذاء عن عكرمة قال لى ابن عباس ولابنه على انطلقا إلى أبى سعيد فاسمعا من حديثه فانطلقنا فإذا هو فى حائط يصلحه، فأخذ رداءه فاختبى ثم أنشأ يحدثنا حتى أتى ذكر بناء المسجد فقال كنا نحمل لبنة لبنة وعمار لبنتين لبنتين فرآه النبى صلى الله عليه وسلم فينفض التراب عنه ويقول : ويح عمار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة، ويدعونه إلى النار. قال يقول عمار أعوذ بالله من الفتن) صحيح البخارى – كتاب الصلاة – باب التعاون فى بناء المسجد – دار الجيل ص١٢١، ١٢٢

ورد بصحيح مسلم : (حدثنا أبى بكر بن أبى شيبة حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن عون عن الحسن عن أم سلمة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تقتل عمارا الفئة الباغية) صحيح مسلم – كتاب الفتن وأشراط الساعة – باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء – المجلد الرابع – ج٨ – ص١٨٦

ويتضح لنا من النص السابق أن ولاء ابن حزم كان لمواقفه الفقهية فهو يؤيد بنى أمية حين يكون موقفه الفقهى يتفق مع خلافتهم، ويهاجمهم حين يجد من النصوص ما يدل على أنهم قد أخطأوا، أو جانبهم الصواب حتى أنه كذَّب من قال بأن الخلافة لا تكون إلا فى بنى أمية بن عبد شمس[1] كما أنه هاجم من حاد عن العدل من خلفاء بنى أمية بالأندلس، فنجده قد حمل على الخليفة المنذر[2] (ت٣٠٠هـ) فوصفه بأنه كان قتَّالاً تهون عليه الدماء[3].

٢ - الحياة الاجتماعية والدينية :

عاش بالأندلس عناصر، وأجناس متباينة فالتقى على أرض الأندلس طوائف من الشرق والغرب، ويمكن أن نحصر أهم الطوائف التى كونت المجتمع الأندلسى كما يلى:

- **المسلمون** : وهم العرب والبربر والمولدون
- **النصارى** : وهم أهل الذمة أو المعاهدون، الذين عاشوا فى ظل الإسلام لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، ومن ضمن هؤلاء الصقالبة الذى جاءوا من الدول الغربية وعاشوا فى خدمة المسلمين.

وقد عاشت هذه الطوائف فى أمان، وحرية كفلها لهم الإسلام، فأقبلوا على الثقافة العربية، والإسلامية بشغف، وعرف هؤلاء بالمستعربين، ووصل اليهود فى عصر ابن حزم إلى منصب الوزارة، فكان إسماعيل بن النغريلة[4] وزيراً "لحبوس" حاكم

(١) الفصل : ابن حزم - ج٤ - ص ١٥٤

(٢) عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية كنيته أبو محمد استمر حكمه للأندلس ٢٥ سنة و ٢٥ يوماً وتوفى سنة ٣٠٠ هـ وهو ابن اثنتين وسبعين سنة.

(٣) تاريخ اسبانيا الإسلامية أو كتاب أعمال الأعلام ص ٢٦

(٤) إسماعيل بن النغريلة وصف بالذكاء، وحسن المداراة والتدبير، وكان "باديس" يستشيره فى زمور الدولة ويأخذ برأيه، وله علم بشريعة اليهود والدفاع عنها، وولد بقرطبة وتخصص فى الدراسات التلمودية ثم درس الأدب العربى والفلسفة.

غرناطة، ثم لابنه "باديس بن حبوس"، ولما مات هذا الوزير خلفه ولده "يوسف ابن النغريلة[١]" الذى استولى على الدلة فى عهد "باديس" ، واستطال على المسلمين.

ودفعت هذه الأمور المتدهورة أصحاب الغيرة من المسلمين إلى الوقوف فى وجه غرور اليهود، وتطاولهم، فكتب أبو إسحاق الإلبيرى[٢] قصيدة وصفت بأنها فجرت ثورة؛ حيث صور فيها الشاعر حال المسلمين ا لذليل فى مقابل ما يتمتع به اليهود من رغد، ونعيم فى العيش، ونقتبس من هذه القصيدة مجموعة من الأبيات بدأ الشاعر فيها بتصوير الخطأ، الذى وقع فبه باديس باختيار وزير يهودى، فقال :

ألا قل لصنهاجةَ أجمعين ... بدور الندِى وأسْدِ العَرين
لقد زلَّ سيِّدكُم زلةً ... تقرُّ بها أعين الشامتين
تخيَّر كاتِبه كافراً ... ولو شاء كان من المسلمين

ثم يصور أبو إسحاق أثر هذا الاختيار الخاطئ على اليهود والمسلمين:

فعزَّ اليهود وانتَخَوا ... وتاهُوا وكانوا من الأرزلين
ونالوا مناهم وجازوا المدى ... فحان الهلاكُ وما يشعرون
فكم مسلمٍ فاضلٍ قانتٍ ... لارذل قردٍ من المشركين
وما كان ذاك من سعيهم ... ولكن منَّا يقوم المعين

(١) يوسف بن إسماعيل بن النغريلة كان حاد الذهن جميل الوجه، ولم يعرف ذل اليهودية عمل والده على تثقيفه منذ صغره فجمع إليه المعلمون، ونبغ فى كثير من العلوم.

(٢) أبو إسحاق الإلبيرى : إبراهيم بن مسعود بن سعيد التجيبى، ولقبه الإلبيرى، وكنيته أبو إسحاق توفى قريبًا من سنة ٤٥٩هـ – ونبغ فى دراسة الفقه، وألف مدونته، عرف بتصانيفه فى الوعظ وأخبار الصالحين، وكان يقول شعراً يغلب عليه التدين.

ويعتب الشاعر على "باديس" عتابًا رقيقًا واصفًا إيَّاه بالذكاء، والفطنة إلا فى هذا الاختيار، ثم يبين "أبو اسحاق" موقف اليهود وخاصة وزيرهم من المسلمين:

فهم يذبحون بأسواقِها وأنتم لأطرافها آكلون
ورخّم قردُهم داره وأجرى إليها نميرَ العيون
فصارت حوائِجُنا عنده ونحن على بابه قائمون
ويضحكُ منا ومن ديننا فإنّا إلى ربنا منقلبون

ثم يدعو "أبو إسحاق" "باديس" الحاكم إلى الانقلاب على اليهود حريصًا على أن يبين الحكم الفقهى من هذا الانقلاب، فاليهود خانوا العهد، ومن ثمَّ لا عهد لهم فأثارت القصيدة الحمية فى قلوب المسلمين؛ فانقلبوا على اليهود يقتلونهم، وهم يتغنون بالقصيدة، واختبأ "يوسف ابن النغريلة" فى بيت مليء بالفحم وسودَّ وجهه بهذا الفحم، ولكن المسلمين عرفوه فقتلوه، ثم صلبوه على باب المدينة.

وهكذا عايش "ابن حزم" تطاول أهل الكتاب على المسلمين بالأندلس، وخيانتهم للعهد مما ترك على أسلوبه الجدلى، الذى اتسم بالغلظة كما سنوضح وجاء فى مصنفين لابن حزم ها (الأخلاق والسير فى مداواة النفوس) و (طوق الحمامة) الكثير من مظاهر الحياة اليومية فى الأندلس؛ حيث قدّم لنا صورة حية لنفسية مسلمى الأندلس فى القرن الخامس الهجرى، وقواعد الأخلاق التى كانت مرعية فى مجتمعهم[(١)].

(١) تاريخ الفكر الأندلسى : آنخل جنثالث بالنثيا – ترجمة د.حسين مؤنس – مكتبة الثقافة الدينية ص٢١٨.

٣ - الحياة الفكرية والعلمية :

يقول الشيخ أبو زهرة عن عصر ابن حزم إنه (كان عصر العلم حقًا فى الأندلس)[١] فرغم الانهيار السياسى، والصراع العسكرى، الذى شهده عصر ابن حزم فإن الحياة العلمية، والأدبية كانت مزدهرة، فأنشأ المنصور بن أبى عامر (ديوان الندماء) وكانت مهمته ترتيب الشعراء طبقات، وبذل العطاء لهم حسب أقدارهم الشعرية[٢]. وقلما نجد من ملوك الطوائف من لم يكن أديبًا، وتنافست قصورهم فى اجتذاب أعلام الكتاب، والأدباء، وتنافس أمراء الطوائف فى رعايتهم، والإغداق عليهم[٣]، وإن كان المنصور حمل على الفلسفة، وأحرق كتبَ الدهرية، والفلاسفة[٤].

وانتشر التعليم بين أبناء المجتمع الأندلسى، وعملت دور العلم فى الأندلس على تنمية هذا الشعب حضريًا:

دور العلم فى الأندلس :

تنوعت دور العلم فى الأندلس، ويمكن أن نحدد ثلاثة أماكن تعليمية رئيسية فى الأندلس على النحو التالى:

---

(١) ابن حزم حياته وعصره - أراؤه وفقهه : محمد أبو زهرة - دار الفكر العربى - ص ٩٨

(١) ابن حزم حياته وعصره - أراؤه وفقهه : محمد أبو زهرة - دار الفكر العربى - ص٩٨

(٢) تاريخ الفكر الأندلسى آنخل جنثالث بالنثيا - ص٦٥

(٣) دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى : د.محمد عبد الله - عنان ط٢ مكتبة الخانجى سنة١٣٨٩هـ ١٩٦٩م - ص٤٣٦

(٤) البيان المغرب فى أخبار الأندلس، والمغرب: ابن عذارى المراكشى - دار الثقافة بيروت - تحقيق ومراجعة ج.س. كولان، ١ - ليفى بروفنسال - ط ٣ - سنة ١٩٨٣م - ج٢ - ص٢٩٢، ٢٩٣

المساجد :

منذ عهد النبى ﷺ ويلعب المسجد فى الإسلام دوراً تعليمياً، وانتشرت بالأندلس المساجد الجامعة، وعلى رأسها مسجد قرطبة، وكان العلماء يمارسون دورهم التعليمى فى هذه المساجد، وقد تعددت المجالس التعليمية فى المسجد الواحد، فكان فى الوقت الواحد يوجد أكثر من عالم أندلسى يلقى دروسه بالمسجد(١)، وهذا يذكرنا بطريقة التدريس فى الأزهر الشريف؛ حيث كان يمارس بين جنباته العلوم المختلفة فكان كل شيخ يختص بأحد أعمدة الأزهر؛ ليلقى دروسه بجواره.

الكتاتيب :

انتشرت الكتاتيب بالأندلس، وكان الكتاب يعرف بالمكتب(٢) ومما يدل على كثرة المكاتب الأندلسية أن الحكم المستنصر (ت ٣٦٦هـ) قد أقام سبعًا وعشرون مكتبًا بقرطبة وحدها .

المكتبات :

انتشرت المكتبات العامة ، والخاصة بالأندلس ، وتسابق الأمراء فى اقتناء الكتب النفيسة ، والنادرة ، التى تدفقت على الأندلس من سائر أنحاء العالم الإسلامى(٣) ، ولعل من أشهر المكتبات الأندلسية مكتبة الحكم المستنصر (ت ٣٦٦هـ) بقرطبة ، فقد كان هذا الرجل محبًا للعلم ، فجمع من الكتب ما لا يُحَد ، ولا يوصف كثرة ، ونفاسة

---

(١) تاريخ التعليم فى الأندلس :د. محمد عبد الحميد عيسى – دار الفكر العربى ط ١ – سنة ١٩٨٢م – ص٢٧٠

(٢) المكتب عبارة عن مكان يتسع لمجموعة من الأطفال ، وقد يكون غرفة فى منزل ، أو فناء ، ولم يكن له مكان معين يقام فيه ، وإن كان عادة يقام بالقرب من المسجد أو بداخله .

(٣) دول الطوائف : د. عنان – ص ٤٣٦

حتى قيل إن مكتبته جمعت (أربعمائة ألف مجلد ، لما نقلوها أقاموا ستة أشهر فيفى نقلها)[1] وفى رواية أخرى أنها بلغت ستمائة ألف مجلد[2] :

وقد كان ابن حزم على معرفة ، ودراية بهذه المكتبة العظيمة فذكر (أن عدة الفهارس، التى فيها تسمية الكتب أربع ، وأربعون فهرسة ، فى كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر الدواوين فقط) [3] وكانت نتيجة هذه الحركة العلمية النشطة بالأندلس أن أصبحت قرطبة مركز العلوم ، والدراسات الممتازة ، وكانت سرقسطة ، وطليطلة ، وقبلهما قرطبة من أعظم مراكز الدراسات الفلسفية ، والرياضية فى القرن الخامس الهجرى[4] .

والذى يطالع رسالة ابن حزم فى فضائل علماء الأندلس يجده يؤكد على اهتمام الأندلسيين بالترحال فى طلب العلم من منابعه ، وتمكن أهلها من العلوم المختلفة ؛ إذ يقول عن قرطبة مثلاً : « ... فكان أهلها من التمكن فى علوم القراءات ، والروايات ، وحفظ كثير من الفقه ، والبصر بالنحو ، والشعر ، والخبر ، والطب ، والحساب ، والنجوم ، بمكان رحب الفناء ، واسع العطن متنائى الأقطار فسيح المجال » [5] .

وقد كان لهذا الثراء الثقافى والفكرى أثره الواضح على علماء الأندلس ، وقد ذكر ابن حزم فى رسالته السابقة عشرات المؤلفين ، والمؤلفات التى تجعل علماء الأندلس يقفون على قدم المساواة مع أعظم علماء المشرق ومما لا ريب فيه أن العامل الاقتصادى يكون مؤثرًا فى حياة الشعوب والأفراد ويجدر تناوله فيما يلى :

(١) نفح الطيب : المقرى - ج١ - ص ١٨٤
(٢) مكتبة الحكم المستنصر الأموى بقرطبة : د. بنت الشاطئ - مقال بالأهرام ١٩٩٥/١/٥
(٣) نفح الطيب : المقرى - ج١ - ص ١٨٤
(٤) دول الطوائف : د. عنان - ص ٤٣٥ ، ٤٣٦
(٥) نفح الطيب : المقرى - ج٢ - ص ١٢٩

٤ – الحياة الاقتصادية :

شهدت الأندلس فى عصر ابن حزم مجموعة من التقلبات الاقتصادية بحسب مدى استقرار الأحوال السياسية الداخلية للبلاد ، ففى فترة تولية « المنصور بن أبى عامر » كوصى على الصبى « هشام المؤيَّد » شهدت الأندلس رخاءً اقتصاديًا نسبيًا نظرًا لإسقاط المنصور بعض الضرائب عن الناس[١] ، وعودته بالغنائم من الحروب التى خاضها ضد النصارى[٢] .

ولعل أفضل من صور حال الأندلس فى عهد المنصور ما قاله « ابن خاقان » من أن المنصور : « ساس الأمور أحسن سياسة ، وداس الخطوب بأحسن دياسة ، فانتظمت له الممالك ، واتضعت به المسالك ، وانتشر الأمن فى كل طريق ، واستشعر اليمن كل فريق ، وملك الأندلس بضعًا [٣] وعشرين حِجَّة لم تدحض لسعادتها حُجَّة، ولم تذكر لمكروه بها لجَّة لبست فيها البهاء والإشراق ، وتنفست عن مثل أنفاس العراق ، وكانت أيامه أحمد أيام ، وسهام بأسه أسد سهام » [٤] .

ولكن ما إن قامت الفتنة البربرية (٣٩٩ : ٤٢٢هـ) حتى أنقلبت الأحوال فوقعت الدولة ومؤسساتها موقع النهب ، والسلب ، وانتهبت العامة مدينة الزاهرة ، وما بها من الأموال والأسلحة ، والخزائن والأمتعة ، حتى اقتلعت الأبواب ، والخشب الضخم، ونفائس القصور وصارت تباع فى كل مكان [٥] .

ويجدر بنا أن نتعرف على بعض الأنشطة الاقتصادية فى الأندلس :

(١) البيان المغرب : ابن عذارى المراكشى – ج٢ – ص ٢٥٩
(٢) المصدر السابق – ج٢ – ص ٢٦٦
(٣) البضع هو العدد من ٣ : ٩
(٤) البيان المغرب : ابن عذارى المراكشى ج٢ ص٢٦٧
(٥) المصدر السابق ج٣ ص ٦١

الزراعــة :

كان المجتمع الأندلسى مجتمعًا زراعيًا يعتمد على الأراضى الزراعية الواسعة ، والخصبة مما أثمر ظهور مختلف الزراعات من خضار ، وحبوب ، وأشجار مثمرة ساعد على ذلك المناخ الملائم ، ووفرة مياه الأنهار ، ونظام الرى المتطور ، وكانت بعض المدن الأندلسية كإشبيلية تسعى للاكتفاء الذاتى من المصادر الأساسية للغذاء، كالقمح ، وأنتج أهلها اللوز والرمان ، والبرقوق(١) وفى طليطلة حقق القطاع الزراعى ازدهارًا مدهشًا أمد المدينة بفائض كبير من المحاصيل الزراعية ووفر لخزينة الدولة والشعب ثروات كبيرة(٢) .

النشاط التجارى :

غلب على النشاط التجارى بالأندلس نوعين من العلاقات التجارية أحدهما خارجى ؛ حيث كان الأندلسيون يذهبون ببضائعهم إلى المغرب والمشرق ؛ لتسويقها، والعودة بمنتجات هذه البلاد ، والثانى العلاقة التجارية بين الممالك الأندلسية .

وقد أصاب هذا النشاط شيئًا من الركود فى الربع الأول من القرن الخامس الهجرى، نتيجة للتقلبات السياسية ، التى شهدتها البلاد فيما يعرف بالفتنة البربرية (٣٩٩ - ٤٢٢هـ)(٣) .

ومن أمثلة التعاون التجارى بين المدن الأندلسية أن قرطبة كان يرد إليها الجواهر، وأدوات الزينة والترف(٤) ، وكذلك التوابل والعطور التى استخدمت فى القصور ، والمنازل ، والمساجد(٥) وكان يرد إليها أيضًا المنسوجات الحريرية والكتانية ، والقطنية بالإضافة إلى الصناعات المعدنية ، والزجاجية ، والخشبية .

(١) الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية لدول الطوائف بالأندلس سنة ٣٩٩ : ٤٧٩ هـ / سنة ١٠٠٩: ١٠٨٦ أحمد زكى بن حاج بن أوانج - رسالة دكتوراه - جامعة القاهرة - كلية دار العلوم - قسم تاريخ - ١٤١٤هـ / سنة ١٩٩٤م ص ٨٠٣ ، ٨٠٤

(٢) المرجع السابق - ص ٨٠٥

(٣) قرطبة الإسلامية فى القرن الحادى عشر الميلادى - الخامس الهجرى الحياة الاقتصادية والاجتماعية د. محمد عبد الوهاب خلاف - الدار التونسية للنشر - سنة ١٩٨٤ - ص٩٨

(٤) المرجع السابق ص ١٠٠ ، ١٠٢

(٥) المرجع السابق : ص ١٠٣

النشاط الصناعى :

تنوعت أوجه النشاط الصناعى بالأندلس بحسب تنوع ثروات البلاد ، فيقابلنا نهضة فى صناعة الحلى المصنوعة من الذهب ، والفِضة [1] ، التى كانت تمثل أهمية خاصة عند النساء ، ونتيجة لكثرة الحروب بين المسلمين والنصارى استُغِل الحديد فى صناعة الآلات الحربية[2] ، وانتشرت صناعة عصير الزيتون بالأندلس ؛ لكثرة أشجار الزيتون بها[3] .

واهتم أيضًا الأندلسيون بصناعة الزيوت العطرية المستخرجة من الأزهار المختلفة[4] ، التى استفيد منها فى صناعة عسل النحل[5] ، وانتشر بقرطبة صناعة الأدوية ، فكان العطارون ، والصيادلة يقومون بتجهيز تلك الأدوية بناء على تعليمات الأطباء الذين اتخذوا دكاكين لهم فى الشوارع والأسواق[6] .

ولا شك أن ابن حزم قد تأثر بالتطورات الاقتصادية ، التى شهدتها الأندلس فى عصره، فقد نشأ منعَّمًا فى قصر والده الوزير فى عهد المنصور الذى تميز بالرخاء ، ثم سرعان ما تقلبت الأحوال فى قرطبة بعد الفتنة التى أشرنا إليها ، وذكر أبو محمد بن حزم أنها عمَّت الناس ، وخصت أسرته ، فتبدلت الأيام بابن حزم ، وضاعت مكاسب الآباء والأجداد ، وذهب المال والجاه ، وتغرب فى البلاد ، ويأس من الرجوع إلى موطن الأهل والولد بقرطبة[7] .

---

(١) الأوضاع السياسية والاقتصادية : ابن حاج – ص ٨١٢
(٢) المرجع السابق – ص ٨١٢
(٣) المرجع السابق – ص ٨١٣
(٤) المرجع السابق – ص ٨١٣
(٥) قرطبة الإسلامية : د. محمد عبد الوهاب خلاف ص ١٦٤
(٦) المرجع السابق – ص ١٦٤
(٧) طوق الحمامة : ابن حزم ص ١٩٧

وفاة ابن حزم :

توفى الإمام ابن حزم فى آخر نهار الأحد لليلتين بقيتا من شعبان سنة ست وخمسين وأربعمائة من الهجرة (٤٥٦ هـ) (١) ، فكان عمره إحدى وسبعين عامًا وعشرة أشهر وتسعة وعشرين يومًا (٢) .

وقد تأثر ابن حزم بظروف البيئة التى نشأ فيها ، وأثر فيها بدوره بماله من آراء، وأفكار متعددة ومتنوعة ومصنفات نعطى فكرة عنها فيما يلى :

مصنفات ابن حزم :

كتب ابن حزم مؤلفات كثيرة فى عديد من فروع العلم ، فكان له مصنفات فى الحديث ، والفقه وأصول الفقه ، والتاريخ ، والسيرة ، والأخلاق ، ونظرًا لأن كثيرًا من الدراسات السابقة قد اهتمت بحصر مؤلفات ابن حزم ، فإننى سأقتصر فى هذه الدراسة على مصنفات ابن حزم فى مقارنة الأديان ، مع الإشارة إلى بعض مؤلفات ابن حزم ، التى قد تكون غير مشهورة . وقد أفرد ابن حزم مصنفات قائمة بذاتها فى الملل والنحل ، كما ذكر فى ثنايا كتبه آراءً فى مقارنة الأديان ، ولذلك فإن الباحث فى هذا الصدد يجب ألا يُغفل تلك المصنفات ، وفى تناولى لمصنفات ابن حزم فى الجدل الدينى سأبدأ بالمؤلفات التى تيسر لى الاطلاع عليها ، مع الإشارة إلى ما ذكرته المصادر فى هذا المجال ، ولم أعثر عليه :

١ - الفصل فى الملل ، والأهواء ، والنحل :

يعتبر هذا الكتاب موسوعة علمية فى دراسة الملل ، والنحل ، ويتميز بشموليته ، ودقة معلوماته ، وأهميته بوصفه مصدر تأريخى للأديان ومقارناتها ، ويعتبر هذا السفر من أشهر مؤلفات ابن حزم ، ونال إعجاب الشرق ، والغرب ، ونستعرض لآراء بعض العلماء فيه بعد استعراض محتوياته :

---

(١) وفيات الأعيان : ابن خلكان ص ٣٢٥

(٢) الصلة : ابن بشكوال - قسم ٢ - ج٧ - ص ٤١٧

جاء الكتاب فى خمسة أجزاء على النحو التالى :

الجزء الأول : وقسمه ابن حزم إلى أربعة أقسام هى :

القسم الأول : تحدث فيه عن السوفسطائية .

القسم الثانى : القائلون أن العالم لم يزل ، ولا مدبر له .

وذكر ابن حزم خمسة اعتراضات لأصحاب هذا القول ، وأبطلها ، ثم ذكر خمسة براهين على إثبات حدوث العالم ، وأدلة أخرى تعضد هذه البراهين .

القسم الثالث : الكلام على من قال بأن للعالم خالقًا لم يزل ، وأن له فاعلاً لم يزل وأن النفس والمكان المطلق الذى هو الخلاء ، والزمان المطلق الذى هو المدة لم تزل موجودة ، وأنها غير محدثة ، وتحدث عن من يرى بتعدد فاعل العالم ، ومدبره ، وأنه أكثر من واحد ، وتكلم عن النصارى مستعرضًا فرقهم ، وعقائدهم المختلفة ، ثم نقدها ، ثم ناقش ابن حزم البراهمة ، وأبطل رأيهم فى النبوات ، وغير ذلك من العقائد الضالة كأصحاب تناسخ الأرواح ثم أفرد ابن حزم معظم هذا الجزء فى الحديث عن اليهودية ، والنصرانية ناقدًا عقائدهم ، وتاريخهم ، وقصصهم الدينى مبينًا التطورات التاريخية ، التى أدت إلى تحريف كتبهم التى يقدسونها مما سنبينه فى هذا الكتاب .

وقد اهتم ابن حزم فى الجزء الثانى من الكتاب بالحديث عما تحتويه أناجيل النصارى، وكشف تناقضها ، ثم ذكر فصولاً يعترض بها الملحدون على المسلمين ، وناقش إدعاء اليهود ، والنصارى فى تقدير بداية الخلق ، وتحديد عمر الدنيا ، ورأى ابن حزم أن لخلق الدنيا أمدًا لا يعلمه إلا الله تعالى ؛ إذ قال تعالى : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ (١) وأخيرًا بين ابن حزم فى هذا الجزء

(١) سورة الكهف ، آية ٥١

رأيه فى بعض الصفات الإلهية ، كالعلم ، والسمع ، والبصر ، والقدم والحياة ، والاستواء فرأى أن استواء الله تعالى على العرض : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝ ﴾[1] بمعنى انتهاء خلقه تعالى بخلق العرش ، فليس بعد العرش شيء [2] .

وقد تنوعت موضوعات الجزء الثالث فتكلم عن رؤية الله - عز وجل - وكلامه ، وإعجاز القرآن والقدر ، والاستطاعة ، وناقش المرجئة ، وتحدث عن الكفر ، والذنب ، وهل تعصى الملائكة الله عز وجل ؟ وغير ذلك من المسائل العقائدية .

أما الجزء الرابع فتحدث فيه ابن حزم عن أخلاق الأنبياء ، وقد ذهب إلى أنه لا يجوز أن يقع من نبى معصية ، صغيرة ولا كبيرة [3] ، كذلك تناول ابن حزم فى هذا الجزء الوعد والوعيد ، والأمور السمعية كالشفاعة ، والميزان ، وعذاب القبر ، وغيرها .

وفى الجزء الخامس تناول ابن حزم مواضيع مختلفة معظمها يتعلق بالفرق الإسلامية، وآراء كل فرقة فى المسائل العقائدية كفرقة الشيعة ، والخوارج ، والمعتزلة، والمرجئة ، وتناول نبوة النساء ، وذهب إلى جواز نبوتهن ؛ لورود الآثار التى تدل على أنهن أوحى إليهن ، فمثلاً بشرت أم إسحاق بإسحاق؛ إذ قال تعالى: ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ۝ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۝ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾[4] . وأم موسى أوحى إليها بإلقاء ابنها فى اليم ، ولو لم يكن هذا الوحى ملكًا لما أقدمت على ذلك ، فمثلها مثل إبراهيم - عليه السلام - حين أمر بذبح ابنه .

(١) سورة طه ، آية ٥
(٢) الفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم تحقيق محمد إبراهيم نصر - عبد الرحمن عميرة دار الجيل بيروت جـ٢ ص ٢٩٠
(٣) المصدر السابق جـ٤ ص ٦
(٤) سورة هود ، آية ٧١ : ٧٣

وقد أشاد العلماء الذين قرأوا كتاب الفصل بهذا الكتاب ، فقال عنه دى لابوليه : « إن كتاب الفصل فى الملل والأهواء والنحل يشهد بسعة اطلاع مؤلفه ابن حزم ؛ إذ أفرد فيه حيزًا كبيرًا للمسيحية وفرقها أورد فيه ملخصًا عن نشأة كل فرقة ، ومدى انتشارها ... إن هذه البيانات على إيجازها تعد بالغة الدقة » [(١)] .

ويقول أيضًا : « إن المسائل التى عالجها فيما بعد أحبار المسيحية سبق أن بحثها ابن حزم ، وناقشها فى كتاب الفصل » [(٢)] ويذكر المستشرق مرجليوث [(٣)] أن دراسات ابن حزم للتوراة أدت إلى السبق فى إيراد بعض الاعتراضات ، التى أدلى بها النقاد الحديثون .

٢ - الرد على ابن النغريلَّة اليهودى :

وقد حقق هذا الكتاب الدكتور إحسان عباس ونشرته مكتبة دار العروبة بالقاهرة: سنة ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م . وقد ظن إحسان عباس أن ابن حزم يرد فى هذا الكتاب على يوسف بن إسماعيل ابن النغريلَّة[(٤)] ، وليس على إسماعيل الأب رغم إشارة المصادر إليه كما سنبين ، ويحتج لذلك بالأدلة الآتية :

أ) يستبعد الدكتور إحسان أن يكون إسماعيل الأب هو مؤلف كتاب فى تناقض القرآن ؛ لأن المصادر كلها تجمع على أنه كان بعيد النظر حسن المداراة لا

(١) مقدمة الفصل ، ص ٢١

(٢) مقدمة الفصل ، ص ٢١

(٣) مرجليوث - ١٨٥٨/ ١٩٤٠م ، ولد وتوفى فى لندن وقد تخرج باللغات الشرقية من جامعة أكسفورد وأتقن العربية وأقام أستاذًا لها فى جامعة أكسفورد منذ ١٨٩٩م ، ورأس تحرير مجلة الجمعية الملكية الأسيوية فيها ، وكان لآرائه قدرها لدى الأدباء العرب المعاصرين ومنهم من رد عليه قوله بوضع الشعر الجاهلى . وانتخب عضو فى المجمع العلمى العربى بدمشق . ومن آثاره : مختارات شعرية لأرسطو مترجمة بالعربية . ورسائل المعرى متنًا وترجمة ، محمد ونهضة الإسلام ... إلخ .

(٤) الرد على ابن النغريلة اليهودى لابن حزم تحقيق إحسان عباس مكتبة دار العروبة سنة ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م ، ص ١٧ ، ١٨

يتورط فيها يوغر عليه الصدور ، وهذه صفات عرى منها ابنه يوسف[١] ، ومن ثم يرى الدكتور إحسان أن ما ورد فى المصادر من نصوص تدل على أن إسماعيل هو الذى ألفَّ فى الطعن على ملّة الإسلام يجب أن ينصرف إلى يوسف الابن ، وليس إسماعيل الأب[٢] .

ب) صفات مؤلف الكتاب ، الذى رد عليه ابن حزم ، وكذلك صفات عصره من حيث ضعف الملك تدل على أن الكاتب هو يوسف بن إسماعيل بن النغريلّة[٣] ، ويصل الدكتور إحسان عباس إلى نتيجة مؤداها أن يوسف صنَّف كتابه ، الذى رد عليه ابن حزم بين عامى ٤٥٦هـ : ٤٥٩هـ ؛ ومن ثم فرد ابن حزم كان فى عام ٤٥٩هـ أو قبله[٤] .

والحقيقة أن هذا الرأى غير مؤكد ، ومن دراستى لهذا المصنف أستطيع أن أرجح أن إسماعيل الأب هو مؤلف هذا الكتاب ، الذى رد عليه ابن حزم ، وذلك للأسباب التالية :

أ) ليس هناك إجماع بين المصادر – كما ظن الدكتور إحسان – على أنْ إسماعيل كان حسن المداراة لا يتورط فيما يوغر عليه الصدور فقد ورد بـ (المُغرِب فى حلى المَغرِب) أن إسماعيل بن النغريلّة استهزأ بالمسلمين ، وأقسم أن ينظم القرآن كله فى أشعار ، فثار عليه المسلمون وقتلوه[٥] ، وإن كنت أرى أن إسماعيل بن النغريلة لم يقتل ؛ لأن جل المصادر أشارت إلى أنه مات دون الإشارة إلى مقتله ، وإنما أشارت إلى مقتل يوسف الابن .

---

(١) الرد على ابن النغريلة اليهودى لابن حزم ص ١٨ .
(٢) المصدر السابق نفس الصفحة
(٣) المصدر السابق نفس الصفحة
(٤) المصدر السابق نفس الصفحة
(٥) المغرب فى حلى المغرب : ابن سعيد جـ٢ ص١١٤

ب) اتسم أيضًا يوسف بن إسماعيل بن النغريلَّة بالذكاء ، حتى إن باديس بن حبوس[1] حين رفض توليته الوزارة خلفًا لأبيه ؛ لصغر سنه استطاع يوسف عن طريق التقرب إلى السلطان ، ونصحه أن يحظى بمكانة رفيعة لديه[2] حتى خلف أبيه فى الوزارة .

جـ) صفات العصر كله (عصر ملوك الطوائف) كانت الممالك الإسلامية تتسم فيه بالضعف وهو ما ينطبق على عصر باديس بن حبوس الذى عاصره كلاً من إسماعيل بن النغريلَّة ، ويوسف ابنه ، فلا أدرى على أى أساس جعل الدكتور إحسان عباس كلام ابن حزم عن ضعف الملك يتجه إلى عصر يوسف وليس إسماعيل الأب ، وكلاهما عاصر ملكًا واحدًا ويكاد أن يكونا عاشا فى عصر واحد .

د) النتيجة التى وصل إليها الدكتور إحسان عباس من أن يوسف بن النغريلَّة قد صنف كتابه الذى رد عليه ابن حزم بين عامى ٤٥٦ إلى ٤٥٩هـ ؛ ومن ثم فإن رسالة ابن حزم ألفت قبل عام ٤٥٩هـ أو فى هذا العام غير مقبولة إطلاقًا ؛ لأن ابن حزم توفى آخر نهار الأحد لليلتين بقيتا من شعبان عام ٤٥٦هـ ، ومن ثم لا يمكن أن يكون ابن النغريلَّة يوسف قد كتب كتابه بعد هذا التاريخ ، وإلا كيف يرد عليه ابن حزم بعد هذا التاريخ ، والمفترض أنه يكون قد مات ؟ ! .

وأرى أن كتاب ابن النغريلَّة كتب قبل وفاة ابن حزم بفترة غير وجيزة حتى يشتهر أمر الكتاب ، ويصل خبره إلى أبى محمد بن حزم ، ويستطيع أن يتعرف على محتواه من خلال رد أحد المسلمين على هذا الكتاب ، ثم يشرع ابن حزم فى الرد على ابن النغريلَّة .

(١) اختلف فى تاريخ وفاته فقيل إنه توفى ٤٦٥هـ أو ٤٦٩هـ وتولى إمارة غرناطة خلفًا لأبيه « حبوس » سنة ٤٣٠هـ .

(٢) مذكرات الأمير عبد الله بن بُلُقِّين آخر ملوك بنى زيرى بغرناطة (٤٦٩/٤٨٣هـ) المسماه بكتاب التبيان تحقيق أ/ليفى بروفنسان دار المعارف بمصر ص ٣٠٨

أما أدلتنا التى ترجح أن إسماعيل بن النغريلّة هو الذى رد عليه ابن حزم فيتمثل فيما يلى :

أ) ما ورد فى سيَر النبلاء المنشور بمجلة المجمع العلمى العربى بدمشق (ج١٠ ص٥٣٥) أن ابن حزم قد ألف كتاب (الرد على إسماعيل اليهودى الذى ألف فى تناقض آيات) ونجد نفس هذا الكلام بسيَر أعلام النبلاء للذهبى ج١٨ ص١٩٦ . وهذا دليل قاطع فى المسألة لم يرد ما ينفيه .

ب) أشار ابن حزم فى (الفصل فى الملل ، والأهواء ، والنحل) إلى إسماعيل بن النغريلّة وإلى اختلافهما الجدلى حول بعض نصوص التوراة(١) ، ووصفه بأنه أعلم اليهود ، وأكثرهم قدرة على الجدل ، وحدد تاريخ أحد هذه اللقاءات فى سنة ٤٠٤هـ(٢) ، كما أشار ابن حزم فى (الرد على ابن النغريلّة) إلى معرفته السابقة بهذا اليهودى وهاجمه ؛ إذ قال عنه : « ولعمرى إن اعتراضه ، الذى يعترض به ، ليدل على ضيق باعه فى العلم ، وقلة اتساعه فى الفهم على ما عهدناه عليه قديمًا » (٣) .

ولا يمكن أن يكون هذا الكلام عن يوسف الابن ، وإنما ينصرف لإسماعيل الأب ، كما أننا لا نعرف سابق صلة لابن حزم بيوسف الابن ، وهو ما يؤكده الدكتور إحسان عباس(٤) .

جـ) إذا كان ابن حزم على علاقة بإسماعيل بن النغريلّة ، والمصادر تشير إلى أن يوسف كان صغيرًا ، أو صبيًا حين مات أبوه إسماعيل ، ومن ثم فإنه أثناء اتصال ابن حزم بإسماعيل الأب ، فإن يوسف الابن كان ما زال صغيرًا(٥) ،

---

(١) الفصل لابن حزم جـ ١ ، ص ٢٢٥ ، ٢٤٥

(٢) المصدر السابق جـ ١ ، ص ٢٤٥

(٣) الرد إلى ابن النغريلة ص ٤٧

(٤) المصدر السابق ، ص ١٧

(٥) وربما كان يوسف بن النغريلة رضيعًا ، أو لم يولد أثناء اتصال ابن حزم بإسماعيل بن النغريلة .

بحيث إن وصف ابن حزم للسمات الشخصية التى يتصف بها مؤلف كتاب فى تناقض آيات القرآن لا يمكن أن يوصف بها صبى أو طفل صغير؛ لأنه من الطبيعى أن يكون فى هذا السن ضعيف فى العلم ، محدود فى الفهم .

٣ – إظهار تبديل اليهود ، والنصارى للكتابين التوراة ، والإنجيل[١] :

وتشير دائرة المعارف الإسلامية[٢] إلى أن النسخة المطبوعة من (الفصل فى الملل، والأهواء، والنحل) طبع القاهرة ١٣١٧هـ – ١٣٢١هـ من الجزء الأول ص١١٦ إلى الجزء الثانى ص ٩١ هى عين كتاب (إظهار تبديل اليهود ، والنصارى للتوراة والإنجيل ، وبيان تناقض ما بأيديهم مما لا يحتمل التأويل) .

وعلى هذا يكون هذا المصنف جزءاً من كتاب (الفصل فى الملل والأهواء والنحل) .

وتشير دائرة معارف البستانى[٣] إلى أن نقد ابن حزم لليهودية والنصرانية فى كتاب الفصل قد يكون فى أصله كتاب برأسه عنوانه (كتاب إظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة ، والإنجيل ، وبيان تناقض ما بأيديهم مما لا يحتمل التأويل) .

٤ – الأصول والفروع :

وقد صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب سنة ١٩٧٨م – دار النهضة العربية بالقاهرة، وقد تعرض ابن حزم فى هذا الكتاب لدراسة بعض الملل ونقدها ، وقد جاء

---

(١) سير النبلاء : الذهبى – شمس الدين أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/١٣٧٤م) المنشور بمجلة المجمع العلمى العربى بدمشق سنة ١٩٤١م ، شوال ١٣٠٠هـ جـ١٠ ص ٤٣٩، تذكرة الحفاظ للذهبى – م٣ – ص٣٤١ ، سير أعلام النبلاء للذهبى تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسى – ط١ سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م – مؤسسة الرسالة ص ٢٠١

(٢) دائرة المعارف الإسلامية – ترجمة محمد ثابت الفندى وإبراهيم زكى خورشيد وأحمد الشنتناوى – المجلد الأول ص ١٤٠

(٣) دائرة المعارف قاموس عام لكل فن ومطلب بإدارة فؤاد أفرام البستانى رئيس الجامعة اللبنانية – المجلد الثانى بيروت ١٩٥٨م ص ٤٤٤

الكتاب فى جزأين . وقد قام الدكتور إبراهيم إبراهيم هلال بتحقيق جزء من هذا الكتاب يبدأ من الباب الأول (باب فى صفة الإيمان والإسلام) إلى باب (فصول تعترض بها جهلة الملحدين على ضعف[1] المسلمين) وقام الدكتور محمد عاطف العراقى بتحقيق الأبواب من (باب فصول تعترض بها جهلة الملحدين على ضعف المسلمين) إلى باب (الكلام على من قال بقدم العالم ؛ وأنه لا مدبر له) .

وأخيراً قامت أستاذتنا الدكتورة سهير فضل الله أبو وافية بالتحقيق من أول (باب: الكلام على من قال بقدم العالم وأنه لا مدبر له) حتى آخر الكتاب بالإضافة إلى أنها صاحبة الفضل والمشورة فى إخراج هذا الكتاب ، ووضعت المقدمة التى ترجمة لابن حزم ثم دراسة عن ابن حزم كرائد لعلم مقارنة الأديان COMPARATIVE RELIGION ، والجدير بالذكر أن بعضاً من الموضوعات والمقالات التى كتبها ابن حزم فى (الفصل فى الملل والأهواء والنحل) قد وردت بكتاب (الأصول والفروع) وسيتضح ذلك فى ثنايا هذه الرسالة .

أما مصنفات ابن حزم فى الجدل الدينى التى ذكرتها المصادر، ولم أعثر عليها فتتمثل فى :

٥ - تأليف فى الرد على أناجيل النصارى [٢] :

نسب شمس الدين الذهبى هذا الكتاب إلى ابن حزم ، ولم أعثر عليه مطبوعاً، أو مخطوطاً ، وكذلك لم يوفق أحد من الباحثين ، الذين قرأت لهم وتعرضوا لمصنفات ابن حزم فى العثور عليه .

تلك أهم مصنفات ابن حزم التى تعرض فيها لمقارنة الأديان ، والحديث عن الملل والنحل المختلفة ، ودافع فيها عن الإسلام ضد من هاجمه من أصحاب الديانات الأخرى خاصة اليهودية والنصرانية .

(١) لعلها ضعاف المسلمين

(٢) سير أعلام النبلاء : الذهبى - ج١٨ - ص ١٩٧

وهناك مجموعة من المصنفات قد تكون غير مشتهرة النسبة لابن حزم ومن ثم يجدر الإشارة إليها :

٦ - أسواق العرب :

أشار بروكلمان[١] إلى هذا المصنف ، وأنه موجود فى حميد الله نصوص لدبلومسية إسلامية فى عصر النبى والخلفاء الراشدين سنة ١٩٣٥ .

٧ - منظومة فى قواعد فقه الظاهرية [٢] :

وهى قصيدة لابن حزم جاء فى مطلعها :

تعدّى سبيل الرشد من جار واعتدى وضـــاء له نور الهـــدى فـــتـــبلدا

وخـاب امـرؤٌ وافـاه حكم مُـحـمَّـدٍ فـــقـــال بآراء الرجـــال وقلدًا

بعد استعراضنا لمصنفات ابن حزم الجدلية ، والتى ناقش فيها اليهود والنصارى، فإنه من الجدير بالدراسة التعرف على أهم سمات اسلوبه الجدلى .

سمات أسلوب ابن حزم الجدلى :

إذا كان الأسلوب يعبر عن شخصية صاحبه ، فقد جاء أسلوب ابن حزم فى التأليف والكتابة معبراً عن نفسيته وفكره ، وكلاهما واضح مشرق[٣] ، فكان يحتسب ويحوقل[٤] ويستعيذ بالله إذا لم يعجبه رأى أو دليل ، ويطلب من الله تعالى

---

(1) Gal. T. S. 695. U.

(٢) ذكر الأستاذ محمد إبراهيم الكتانى أنه عثر على هذه المنظومة فى آخر المجلدات الثانى من كتاب (الإحكام فى أصول الأحكام) الموجود ضمن مخطوطات مكتبة ابن يوسف بمدينة مراكش تحت رقم ٥٢ - ص ٤٥٨ : ٤٦٢ . ونشرها بمجلة معهد المخطوطات العربية - المجلد ٢١ - ج١ - سنة ١٣٩٥هـ / سنة ١٩٧٥م .

(٣) ابن حزم حياته وعصره - آراؤ وفقهه : الإمام محمد أبو زهرة - دار الفكر العربى - ص١٩٧

(٤) يقول لا حول ولا قوة إلا بالله

التأييد والتوفيق والعصمة من الذلل فى الرد على مخالفيه ، ومن أهم سمات أسلوب ابن حزم فى الجدل ما يأتى :

١ – الوضوح :

اتسم أسلوب ابن حزم الجدلى بالجلاء ، والوضوح ، وعدم التكلف ، ومحاولة الوصول إلى الصواب بأسهل الطرق وأقرب الأمثلة . ويرجع ذلك إلى ما سنبينه من أن ابن حزم كان يكره الغموض فى الكلام ، والتعمية ، ويرى ذلك من وسائل التمويه، والشغب ؛ لكى يظن الشامع أن هذا الكلام مملوء حكمة ، وهو عار من ذلك تمامًا .

٢ – الإطناب :

كثيرًا ما كان ابن حزم يسترسل فى ردوده على مخالفيه ، ويعاود تناول موضوعًا فى أكثر من مكان ، ويكرر حججه ، ويرجع ذلك إلى محاولة ابن حزم التأكيد على صحة آرائه ، والثبات على موقفه ، وحصره لموضوعات الخلاف ، وقدرته على تجزئتها ، وتحليلها والذى نراه أن هذا الإطناب الجدلى مما يحسب لابن حزم؛ لأنه كان لا يُدخِل فى موضوعات الجدل ما ليس منها ، وكان يكرر أقواله حيثما احتاج الموقف لذلك .

٣ – الحدة والعنف :

كان ابن حزم شديد اللهجة فى جدله مع أهل الكتاب ، وسنوضح أسباب هذه الحدة الحزمية فى الفصل الثالث وإن كنا نشير إلى الجفوة التى كانت بينه وبين علماء عصره ، والتى أدت إلى عنف تعبيراته ، وقسوة ردوده على آراء مخالفيه.

٤ – السخرية :

تظهر هذه السمة جلية فى ردود ابن حزم على أهل الكتاب ، فقد أضاف أبو محمد لنقده اللاذع لليهود النصارى سخرية عميقة تصل إلى درجة الاستهزاء، والسب ، ومن ثم لا أتفق مع ما ذهب إليه الإمام أبو زهرة من أن شكل المناقشة من

حيث التعبير كان واحداً تقريباً عند ابن حزم أثناء جدله مع علماء المسلمين ، وغير المسلمين[1] ، فالذى أراه أن حدة ابن حزم كانت أعنف ، وسخريته أوضح ، وأعمق أثناء جدله مع علماء الملل غير الإسلامية .

ومن الأمثلة الدالة على سخرية أسلوب ابن حزم فى جدله مع أهل الكتاب ما جاء فى رده على اليهودى ، حين أثبت له أن مدة استعباد اليهود أقل من أربعمائة سنة بسنين طويلة ، فاعتذر اليهودى بأن الأربعمائة سنة تحسب من وقت مخاطبة الله تعالى لإبراهيم – عليه السلام – عن هذا الاستعباد ، فاستشنع أبو محمد كلام هذا اليهودى ، وعلَّق قائلاً : (فأراد هذا الساقط الخروج من مزبلة ، فوقع فى كنيف عذره؛ لأنه جاهر بالباطل ، وتعجل الفضيحة ، ونسب الكذب إلى الله تعالى ...) [2] .

وأثبت ابن حزم بما لا يدع مجالاً للشك أنه لو حسبنا هذه المدة – حسب زعم اليهودى فلن تكون مساوية للأربعمائة عام .

ويسخر ابن حزم الأندلسى من طلب اليهود مأكولات معينة فيقول : (وذكروا شوقهم إلى القرع ، والقثاء ، والبصل ، والكرات ، والثوم ، الذى تشبه رائحته فى الروائح عقولهم فى العقول) [3] .

وتزداد حدة السخرية فى قول ابن حزم عن النصارى : (وتالله لولا أننا شاهدنا النصارى ما صدقنا أن من يلعب بعذرة ، وما يخرج من أسفله يصدق بشيءٍ من هذا الحمق) [4] .

بعد هذه الإلمامة المجملة بابن حزم الأندلسى اجتماعيًا، وفكريًا وعلميًا ، فإنه يجدر بنا أن نتعرف على الشخصية الثانية ، التى نتعرض لجهودها الجدلية مع أهل الكتاب، وهى شخصية أحمد بن عبد الصمد الخزرجى أو ابن أبى عبيدة الخزرجى.

---

(١) ابن حزم حياته وعصره آراؤه وفقهه : الشيخ أبو زهرة – ص ١٨٦

(٢) الفصل : ابن حزم ج١ ص ٢١٦

(٣) المصدر السابق – ج١ – ص ٢٧٧ ، ٢٧٨

(٤) المصدر السابق – ج٢ – ص ٨٣

ثانياً : ابن أبى عبيدة الخزرجى

أشارت كتاب التراجم[1] لابن أبى عبيدة الخزرجى إشارات سريعة دون تفصيل، والسمة العامة لهذه المصادر هى ندرة المعلومات الواردة عنه ، وتكرارها ، وقد استطعت اعتماداً على تلك المصادر القديمة أن أصل إلى معلومات لا بأس بها عن سيرة هذا العالم الجليل ، ومصنفاته ، وسأبدأ بالحديث عن سيرته ؛ لتوضيح أثر بيئته الخاصة والعامة على نشأته ، وتكوينه العلمى قدر الإمكان .

● سيرة ابن أبى عبيدة الخزرجى :

(أ) اسمه :

أحمد بن عبد الصمد بن أبى عبيدة محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الحق الخزرجى .

---

(١) ١ – معجم المؤلفين (تراجم مصنفى الكتب العربية لعمر رضا كحالة) المكتبة العربية بدمشق سنة ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م جـ١ ص ٢٧٤

٢ – سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس من العلماء والصلحاء بفاس لمحمد بن جعفر بن إدريس الكتانى جـ٣ ص ٢٤٢

٣ – تعريف الخلف برجال السلف لأبى القاسم محمد الحفناوى ابن الشيخ أبى القاسم العربى بن سيدى إبراهيم الغول سنة ١٣٣٤هـ/ ١٩٠٦م . طبع بمطبعة بيير فونتانة الشرقية بالجزائر ص ٦١

٤ – نيل الإبتهاج بتطريظ الديباج لأبى العباس سيدى أحمد بن أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقنت عرف بابا التنبكتى ط١ سنة ١٣٢٩هـ مطبعة السعادة ص٥٠

٥ – الديباج : (مطبوعة بهامشه نيل الإبتهاج) .

٦ – جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس : لابن القاضى أحمد بن محمد بن أبى العافية الشهير بابن القاضى ص ٧٠

٧ – الوافى بالوفيات للصفدى صلاح الدين بن خليل بن أيبك ط٢ جـ ٧ بإعتناء إحسان عباس يطلب من دار النشر فراتز شتاينز بقيسبان سنة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ص ٦٦

٨ – الإعلام لخير الدين الزركلى دار العلم للملايين ط٧ آيار (مايو) ١٩٨٦م جـ١ ص ١٥٠ بيروت

(٢) كنيته :

يكنى بأبى جعفر[١] .

(٣) نسبه :

لابن أبى عبيدة نسب عرقى ؛ فيقال أحمد بن عبد الصمد بن أبى عبيدة الأنصارى الخزرجى، وينتهى نسبه إلى سعد بن عبادة[٢] صاحب رسول الله- ﷺ - ويقال أحمد بن عبد الصمد بالبجائى[٣] نسبة إلى مدينة بجاية ، التى نزل بها ، ثم سكن غرناطة ، ويقال أيضًا القرطبى[٤] نسبة إلى قرطبة ، التى عاش بها صدر حياته .

(٤) جنسيته :

يعد ابن أبى عبيدة الخزرجى عربى الأصل فهو يرجع بنسبه إلى قبيلة الخزرج بالمدينة المنورة .

(٥) مولده :

اتفقت المصادر ، التى ترجمت لابن أبى عبيدة الخزرجى أنه ولد عام (٥١٩هـ)[٥] .

(٦) نشأته وأسرته :

نشأ أحمد بن عبد الصمد نشأة علمية ، ورغم أن المصادر ، التى اطلعنا عليها لم تحدثنا عن طفولته كثيراً ، فإنه يمكننا أن نستخلص أنه حرص على تحصيل العلم

---

(١) تعريف الخلف للحفناوى ص٦١ - الإعلام للزركلى ص ١٥٠ - معجم المؤلفين لكحالة ص٢٧٤ - الوافى بالوفيات للصفدى ص ٦٦

(٢) سعد بن عبادة بن دُليم بن حارثة بن أبى خذيمة ، وقيل : حارثة بن حزام بن خذيمة يكنى أبى ثابت وكان نقيب بنى ساعدة قيل مات سنة أحد عشرة ، وقيل أربع عشرة .

(٣) تعريف الخلف للحفناوى ص ٦١

(٤) تعريف الابتهاج بهامش الديباج ص ٦٩

(٥) انظر المصادر السابقة

منذ صغره؛ حيث تتلمذ على يد القاضى أبى بكر بن العربى، الذى كان يرى أن ينشأ الطفل على تعلم العربية ، ومطالع الكلام ، ويحفظ أشعار العرب ، وأمثالها[١] ثم ينتقل الطفل إلى تعلم الحساب ؛ لأن للحساب فائدة نظرية تتمثل فى شحذ الذهن ، والتمرين على الفهم ، وأخرى عملية ترجع إلى منفعته الأحكام الفقهية فى قسمة التركات ، والمساحات ، وما إليها فى مسائل الحياة العملية[٢] .

وكانت أسرة أحمد عبد الصمد أسرة عريقة فى الإسلام ، فقد ذكرنا أن نسبه ينتهى إلى سعد بن عبادة الخزرجي ، ونحن نعرف ما كان للأوس والخزرج (الأنصار) من دور فى نصرة الإسلام ، وأنهم هم الذين استقبلوا الرسول ﷺ بعد هجرته من مكة إلى المدينة .

وكان سعد بن عبادة مشهوراً بالجود ، والكرم ، وحمل راية رسول الله فى يوم فتح مكة ودعا رسول الله ﷺ لآل سعد بن عبادة بالصلاة والرحمة[٣] .

وقد استجاب الله تعالى لنبيه الكريم ، فتحدثنا كتب التاريخ ، والتراجم عن المكانة التى تبوأتها أسرة أحمد بن عبد الصمد فى التاريخ الأندلسى ، فذكر ابن القوطية (ت ٣٦٧هـ)[٤] فى تاريخ افتتاح الأندلس أن عبد الرحمن بن معاوية الخليفة الأموى ولَّى رجلاً من ولد سعد بن عبادة بن طليطلة ؛ حيث كان ساكنًا بها[٥] وهذا يدل على

---

(١) تاريخ التعليم فى الأندلس لمحمد عبد الحميد عيسى دار الفكر العربى ط١ سنة ١٩٨٢ ص ٢٣٩

(٢) المرجع السابق ص ٢٣٩

(٣) أسد الغابة فى معرفة الصحابة لعز الدين بن الأثير أبى الحسن على بن محمد الجزرى (٥٥٥ : ٦٣٠هـ) تحقيق وتعليق محمد إبراهيم البنا ، ومحمد أحمد عاشور ، محمود عبد الوهاب فايد – مجلد ٢ دار الشعب ص ٣٥٦ شخصية رقم ٢٠١٢

(٤) ابن القوطية أبو بكر محمد بن عبد العزيز بن إبراهيم بن عيسى بن مزاحم الأندلسى القرطبى المولد والوفاة وعرف بابن القوطية نسبة إلى سارة بنت المند بن غيطشة من ملوك القوط قبل الفتح الإسلامى (ت ٧٠٩، ٧١٠م) وكان ابن القوطية أديبًا عالمًا باللغة والنحو حافظًا للحديث ومن مؤلفاته (تصاريف الأفعال) .

(٥) تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية تحقيق إبراهيم الأبيارى ، الناشرون : دار الكتب الإسلامية، ودار الكتاب المصرى ، ودار الكتاب البنانى بيروت ط١ – سنة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ص٢٥

عراقة أسرة ابن عبد الصمد ، وقدم وجودهم فى الأندلس ودورهم المؤثر فى الحياة السياسية ، حتى أنه حينما أراد عبد الرحمن بن معاوية قصد الشام للثأر من العباسيين كان ممن عصى عليه رجل يدعى الحسين بن يحيى بن سعيد بن سعد بن عبادة بسرقسطة مما أجبر عبد الرحمن بن معاوية بالتراجع عن موقفه(١) ، كما أننا نجد من بين أقارب الخزرجى من أشتغل بالعلم ، وجد فى طلبه، وتعليمه، كأحمد بن عبد الرحمن بن عبد الحق الخزرجى المقرئ (ت ٥١١هـ) (٢) .

وطريقة الإقراء من أشهر طرق تعليم الصبيان فى الأندلس ؛ حيث كان يمسك المعلم كتاباً ويقرأ منه ويقوم الطلبة بكتابة نسخهم ، أو أن يقوم طالب من المجموعة بالقراءة فى حضرة الأستاذ ، ويقوم الطلبة الآخرون بالكتابة ، ويعمل على تصحيح القراءة ، وتقديم النطق السليم ، والمواضع الصحيحة للوقف والابتداء(٣) .

ومن أسرة الخزرجى أيضاً عبد الحق بن محمد بن عبد الحق بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الحق الخزرجى (ت ٦٠٤هـ) من عظماء أهل قرطبة ، وعلمائها الأفذاذ(٤) .

وهكذا نرى أن الخزرجى قد نشأ فى أسرة حريصة على طلب العلم والتفقه فى الدين فكان لذلك أثره الواضح عليه .

(١) نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب تحقيق أحمد كمال زكى مراجعة محمد مصطفى زيادة – الهيئة المصرية العامة للكتاب – سنة ١٩٨٠م ، ج٢٣– ص٣٤٨

(٢) الصلة لابن بشكوال جـ ١ ص ٢٢٥

(٣) تاريخ التعليم فى الأندلس : د. محمد عبد الحميد عيسى ص٣٤٧

(٤) انظر كتاب صلة الصلة وهو ذيل للصلة البشكوالية لأبى جعفر أحمد بن الزبير تصحيح وتعليق أ. ليفى بروفنسال (مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية القسم الأخير جـ٧ ص١١ شخصية رقم ١٥).
ويعتبر هذا الرجل معاصراً لأحمد بن عبد الصمد حيث ولد فى منتصف عام ٥٢٢هـ واشترك معه فى التلمذة على يد أبى الحسن عبد الرحيم بن قاسم الحجارى وما ورد بصلة الصلة عن تلمذة هذا العالم على يد أبيه أبى عبد الله وابن عمه أبى زيد عبد الرحيم بن أحمد بن عبد الحق يدل على مدى اهتمام هذه الأسرة بالعلم .

(٧) أساتذته :

تنوع أساتذة الخزرجى يدل على تنوع معارفه العلمية ، وموسوعيته الفكرية ، ومن أساتذة الخزرجى الذين تلقى على أيديهم العلم :

ابن أبى الخصال :

أبو عبد الله محمد بن مسعود بن خالصة بن فرج بن أبى الخصال الغافقى وهو وإن كان خامل النشأة ، فقد وصف بأنه حامل لواء النباهة ، الباهر بالرواية والبداهة، فتميز بنفسه وعلمه[١] فقد كان متنوع المعارف، فأتقن علم الحديث بغريبه ، ورجاله ، وإتقان ضبطه ، وتمكن من اللغة العربية ، والأدب ، وكتب شعراً[٢] ؛ فكان إماماً فى الكتابة ، والنظم ، عالمًا بالنسب والتاريخ[٣] .

قتل ابن أبى الخصال فى الثالث عشر من ذى الحجة عام أربعين وخمسمائة من الهجرة حين دخل النصارى قرطبة ، فحزن الناس عليه حزنًا عظيماً[٤] ، ولا ريب أن أحمد بن عبد الصمد قد فجعه مقتل أستاذه فى نفس المعركة التى أسر فيها هذا الشاب المسلم .

أبو بكر بن العربى :

الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله بن أحمد ، المعروف بابن العربى المعافرى الأندلسى الإشبيلى ، من أشهر مصنفاته كتاب (العواصم والقواسم) وهاجم ابن حزم هجوماً شديداً، حتى ألف رسالة فى الرد على ابن حزم تعرف برسالة « العزة»،

---

(١) قلائد العقيان ومحاسن الأعيان فى لمع أعيان القضاه ولمح أعلام العلماء السراة للفتح بن خاقان طبع بالمطبعة الخديوية ببولاق ١٢٨٣هـ تصحيح محمد الصباغ ص١٧٥

(٢) المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد تحقيق شوقى ضيف جـ ٢ ص ٦٧

(٣) الإحاطة فى أخبار غرناطة جـ٢ ص ٢٦٤

(٤) المصدر السابق جـ٢ ص ٢٦٤

وله أشعار تشوق فيها إلى بغداد ، والحجاز[1] ، وتوفى بمدينة فاس (٥٤٣هـ) .

ابن الطراوة المالقى [2] :

أبو الحسن سليمان بن محمد بن عبد الله بن الطراوة المالقى النحوى ، كان عالم الأندلس فى النحو فى زمانه ، وله كتاب (المقدمات على سيبويه) وأخذ عنه أئمة العربية بالأندلس وله أشعار متنوعة ، كالمدح والوصف وتوفى هذا العالم الجليل سنة ثمان وعشرين وخمسمائة[3] .

وكان أحمد بن عبد الصمد بعد تلقيه العلم على هؤلاء العلماء الأفاضل معروفًا منذ أن شب بالذكاء ، والنبل مشهورًا بحفظ الأحاديث ، ذاكرًا للتواريخ والقصص ، وكان مجلسه ممتعًا[4] ، وكان لابن عبد الصمد مملوك من أبناء الروم علمه الكتابة ، فكان يكتب عنه كل ما يؤلفه أو يصدر عنه من نظم ، أو نثر [5] .

وتقلبت الأيام بالخزرجى ، حتى قدم مدينة فاس ، واستمر على ذلك صابرًا محتسبًا ، فانتفع الناس بعلمه ، وحضر مجلسه يومًا خطَّاب رئيس أهل المعدن ، فسمع كلام الخزرجى وأعجب به ، وسأل عن مصدر رزقه ، فأخبر أنها من تفقد الإخوان ، وإحسانهم ، فاجتمع هذا الرئيس مع الخزرجى ، وسأله عما يحتاجه من

---

(١) المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد ، دار المعارف بمصر جـ١ ص ٢٥٥

(٢) ذكر هذا العالم صاحب تحقيق مقامع الصلبان عبد المجيد الشرفى، طبع الشركة التونسية لفنون الرسم ١٩٧٥م ص ١٠

(٣) فوات الوفيات والذيل عليها تأليف محمد بن شاكر الكتبى (ت ٦٨٤هـ) المجلد الثانى تحقيق إحسان عباس دار الثقافة ببيروت شخصية رقم ١٨١ ص ٧٩ – المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد جـ٢ ص٢٠٨ ، ٢٠٩ شخصية رقم ٤٩٤

(٤) السفر الأول من كتاب الذيل والتكملة لكتابى الموصول ، والصلة تأليف أبى عبد الله محمد بن عبد الملك الأنصارى الأوسى المراكشى تحقيق محمد بن شريفة القسم الأول دار الثقافة – بيروت شخصية رقم ٣٠٨ ص ٢٣٩

(٥) الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى قسم ١ ص ٢٣٩

نفقة ، فلما علم أنه يكفيه ثلاثمائة دينار فى السنة دفع له ثلاثمائة دينار ، وأخبره أن هذا المبلغ لعامين مقدمًا بالإضافة إلى الكسوة وعطايا المواسم، واستمرت هذه الجراية تسعة أعوام حتى وفاة الخزرجى[1] سنة ٥٨٢هـ وقد ترك لنا الخزرجى مجموعة متميزة من طلاب العلم ، الذين درسوا على يديه .

(٨) تلامذته :

وبعد أن تلقى الخزرجى العلم من أساتذته اتسعت ثقافته ، وغزر علمه ؛ لحرصه على قراءة أمهات الكتب فى شتى فروع العلم ، حتى صار عالمًا جليلاً ، فانتقل من مرحلة تلقى العلم إلى مرحلة تلقينه لتلاميذه ، فصار له مجالس علمية يلتقى فيها بطلاب العلم ، ويقدم لهم من معارفه وعلومه ، ومن أشهر تلامذته أبى الحسن ابن عتيق بن موسى الذى لقيه ببجايه[2] .

■ وابن القفاص :

أبو الحسن على بن إبراهيم بن على بن إبراهيم الجذامى القاضى المتفنن من أهل غرناطة ، كان حسن التقييد ضابطًا لما يرويه ، فقيهًا مشاركًا حافظًا جليلاً ، واختصر كتاب الاستذكار لابن عبد البر وغير ذلك ، وتوفى قريب الظهر من يوم الأربعاء التاسع عشر لذى الحجة ٦٣٢هـ ، وكان مولده ضحى يوم عيد الأضحى من سنة ٥٥٥هـ[3] .

■ أبو سليمان بن حوط الله [4] :

داود بن سليمان بن داود بن عبد الرحمن بن سليمان بن عمر بن حوط الله

---

(١) الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى قسم ١ ص ٢٤٠ ، ٢٤١

(٢) سلوة الأنفاس للكتانى جـ٣ ص ٢٤٢

(٣) مقدمة مقامع الصلبان تحقيق عبد المجيد الشرقى – الشركة التونسية لفنون الرسم سنة ١٩٧٥م، ص١٠

(٤) ذكر فى سلوة الأنفاس للكتانى جـ٣ ص٢٤٢ تعريف الخلف للحفناوى ص٦١ وجذوة الاقتباس لابن القاضى ص٧٠

الأنصارى الحارثى ، كان حافظًا للقراءة ، عارفًا بإقراء القرآن ، وكان محدثًا عالمًا بروايات الحديث ، ضابطًا لما ينقله ، وولى القضاء ببعض المدن الأندلسية كسبتة ، وألمرية ، والجزيرة الخضراء ، وكذلك تولى قضاء بلنسية ، وعرف بعدله فى القضاء ونزاهته ، ولد سنة ست وستين وخمسمائة ، وتوفى سنة إحدى وعشرين وستمائة .

■ **أبو محمد بن حوط الله (١) :**

الحافظ أبو محمد عبد الله بن سليمان بن داود بن عبد الرحمن بن حوط الله الأنصارى المالقى – كان إمامًا فى العلوم ، عالمًا بالأحكام ، متقدمًا فى علم الحديث، وما يتعلق بهذا من التأريخ ، والأنساب ، وأسماء الرجال ، وكان بصيرًا بعلم الأصول ، وأديبًا كبيرًا معتنيًا بالرواية ، وعرف بالزهد والورع ، وكان يقرض الشعر.

وولى هذا العالم الجليل القضاء بمدن أندلسية كثيرة ، كإشبيلية ، وميورقة ، ومرسية ، وقرطبة ، وسبتة وسلا ، ثم عاد قاضيًا لمرسية ، وتوفى بمدينة غرناطة فى شهر ربيع الأول سنة ٦١٢هـ ثم نقل إلى مدينة مالقة فدفن بجبانتها(٢) .

■ **أبو القاسم أحمد بن يزيد بن بقى (٣) :**

أحمد بن يزيد بن عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن أحمد بن مخلد بن عبد الرحمن بن بقى بن مخلد بن يزيد الأموى من أهل قرطبة ، ويكنى أبو القاسم تولى القضاء بمراكش بالإضافة إلى وزارتى المظالم ، والكتابة العليا ، فحمد الناس سيرته ولم تزده الرفعة إلا تواضعًا ، وتولى قضاء بلده قرطبة ، فسمع منه الناس،

(١) ذكره الكتانى فى سلوة الأنفاس جـ ٣ ص ٢٤٢

(٢) تاريخ قضاة الأندلس للشيخ أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهى المالقى الأندلسى وسماه كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا نشره أ- ليفى بروفنسال دار الكاتب المصرى ١٩٤٨ ص ١١٢

(٣) ذكره الكتانى فى سلوة الأنفاس جـ ٣ ص ٢٤٢ وتعريف الخلف للحفناوى ص ٦١

وتنافسوا فى الأخذ عنه ، وكان يحفظ موطأ الإمام مالك فى الفقه ، ويدرسه لتلاميذه، وكان ينشد الشعر وكان أبو القاسم بن بقى إمامًا فى اللغة، وعلم العربية، وألف كتابًا فى الآيات المتشابهات ، أثنى عليه العلماء ، وكان لا يفارق هذا الكتاب فى سفرٍ ، ولا حضرٍ .

وكانت مؤلفاته تتميز بالاختصار ، وعدم الحشو ، وكان يميل إلى الظاهر فى أحكامه ، وكان أبو القاسم يكثر من الثناء على أستاذه الخزرجى ، ويعترف بفضله[1] .

ولد أبو القاسم يوم السبت بعد مضى أربع ساعات الثانى عشر لذى القعدة سنة سبع وثلاثين وخمسمائة من الهجرة ، وتوفى بعد صلاة الجمعة الخامس عشر من رمضان سنة خمس وعشرين وستمائة من الهجرة ، ودفن أبو القاسم بمقبرة ابن عباس بجوار قبر جده بقى بن مخلد .

بعد تعرفنا على بيئة الخزرجى الخاصة من حيث نشأته ، وأسرته ، وشيوخه ، وأساتذته الذين درس على أيديهم ، وتلامذته فإنه يجدر بنا أن نتعرف على البيئة العامة فى عصره من حيث الأحوال السياسية ، والاجتماعية ، والدينية ، حتى يعطينا ذلك فكرة عن المناخ العام ، الذى نشأ فيه ابن أبى عبيدة الخزرجى .

أ) الحياة السياسية :

تميز عصر الخزرجى باشتداد الحروب بين المسلمين والنصارى فى الأندلس ، فكان لا يكاد يمر عام ، أو الآخر إلا ويشتبك الجانبان فى حروب ومناوشات ، وكانت قرطبة التى نشأ بها الخزرجى من بين أهم المدن الأندلسية التى عانت من ويلات الحروب ولعل من أخطر الصراعات التى تركت أثرها على ابن أبى عبيدة حين لجأ

---

(١) الذيل والتكملة لابن عبد الملك الكراكشى قسم واحد ص ٢٤٠

ابن حمدين [١] إلى النصارى يطلب عونهم ، فأمدوه بحاجته من الجند ، والعتاد ، ولم يستطع ابن غانية [٢] دفعًا للنصارى فدخل النصارى وابن حمدين قرطبة فى العاشر من ذى الحجة سنة « ٥٤٠ هـ » وامتنع ابن غانية بالمدينة ، فعاث النصارى بشرقى قرطبة ، واستباحوا المسجد الجامع ، وأخذوا ما كان فيه من النواقيس ، ورءوس الثريات ، ومزقوا المصاحف ، ويحكى أنه كان من ضمن هذه المصاحف مصحف سيدنا عثمان ، وأحرقوا الأسواق ، وقد اعترف المؤرخ الألمانى يوسف أشباخ بهذه الفظائع ، التى لحقت قرطبة من جراء النصارى ؛ إذ قال عن النصارى إنهم « أقاموا بمسجدها الجامع بين سخط المسلمين ، وارتياعهم قداسًا حافلاً برياسة أسقف طليطلة وربطوا خيولهم فى أروقته ، وتناولوا بأيديهم النجسة مصحف عثمان أقدس ذخائر المسلمين ، وأثاروا غضب الشعب بإغراقهم فى سوء معاملته ولم يراعوا شيئًا من الشروط التى سلمت المدينة بمقتضاها[٣] » .

وقد أسِرَ الخزرجى فى هذه الحرب ، ورأى بأم رأسه النصارى وهم يعبثون بمقدسات المسلمين ، ويعيثون فى الأرض فسادًا ، واقتيد الخزرجى إلى طليطلة أسيرًا ، وهناك أكتوى بنار التنصير ، ودافع عن الإسلام[٤] دفاعًا عظيمًا، فورد فى مقدمة مقامع الصلبان :

---

(١) أبو جعفر حمدين محمد بن محمد بن على بن حمدين ، وكان بيتهم من أقدم البيوتات العربية، ولى قضاء قرطبة فى عام ٥٢٩هـ وأعيد مرة أخرى للقضاء ٥٣٦هـ ، وبويع بإمارة قرطبة ٥٣٩هـ واستقر بقصر الخلافة وتسمى بأمير المؤمنين وناصر الدين .

(٢) أبو زكريا يحيى بن على بن غانية كان واليًا على قرطبة ، وفارسًا شجاعًا أبلى بلاء حسنًا فى موقعة أفراغة ، وكان مشرفًا على شئون الأندلس ، وقائدًا عامًا للجيش المرابطى ت ٥٤٣هـ .

(٣) تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين : يوسف أشباخ ترجمة د. محمد عبد الله عنان – المعهد الخليفى للأبحاث المغربية (بيت المغرب) ١٣٦٠هـ / ١٩٤١م – ص ٢٣٠

(٤) دولة الإسلام فى الأندلس لمحمد بن عبد الله عنان – العصر الثالث عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس – القسم الأول – عصر المرابطين وبداية عصر الموحدين مكتبة الخانجى ط٢ سنة ١٤١١هـ سنة ١٩٩٠م ص ٣١٣

« لمّا نفذ القضاء من الله تعالى على قرطبة باندثار ملكها وتفرق أهلها عنها ؛ لتتابع ضنكها ألحق منهم بطليطلة صبيًا من آل عبد الحق الخزرجي يوصف بالذكاء، وكان بها قسيس من القوط[1] يكثر الاعتراض فى الدين على نفر كانوا تابعين له من المسلمين فجعلوا يرفعون أسئلتهم إلى الصبى فيجيبهم الصبى عليها ، فيرجعون بذلك إلى القسيس فأنكر إجابتهم لعلمه أنهم ليسوا من أهل الذكاء ، فاستفهمهم فأعلموه بذلك »[2] .

وحينما علم القسيس بأمر الصبى بعث إليه رسالة تنصيرية يدعوه فيها إلى ترك التوحيد واعتناق التثليث فكتب الخزرجي كتابه « مقامع الصلبان » الذى سنتعرض لدراسته فى الفصول التالية .

ب) الحياة الاجتماعية والدينية :

استمر تمازج عناصر مختلفة من السكان على أرض الأندلس فى عهد الخزرجي، ونجد ازديادًا لبعض الأجناس ، التى كانت موجودة من قبل فى عهد ابن حزم ، كالبربر بحكم توحيد الأندلس تحت حكم المرابطين وكذلك السودان[3] والسقالبة على النحو التالى :

أ) طبقة الحكام :

وهم المرابطون الذين قدموا من المغرب ، وقد حافظوا على خشونتهم البدوية فى بداية حكمهم للأندلس واقتصارهم على الضرورى من العيش كخبز الشعير بالماء أو

---

(١) القوط نسبة إلى قوط بن سام بن نوح عليه السلام ، وهم ذلك الشعب الجرمانى الذى سكن أولاً عند مصب نهر فيستول ، ثم نزل إلى الجنوب من أوربا ، واستوطن الأندلس

(٢) مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان لأحمد بن عبد الصمد الخزرجي ، تحقيق د. محمد شامة مكتبة وهبة ص ٥٣

(٣) لا صلة لهذه التسمية بما يطلق الآن على جنوبى وادى النيل ، وإنما تعنى تلك المناطق التى تمتد جنوب المغرب ، وما وراءه من غربى أفريقيا ووسطها

لبن الإبل ولحومها[١] ولكن هذه الحالة ما لبست أن تطورت ، فأصبح التأنق فى الأطعمة عادة مألوفة لدى الأمراء كما تفننوا فى اللباس ، فقلدوا العباسيين فى إتخاذ لون السواد فى ألبستهم[٢] وهناك من الأمراء من أخذ يعاقر الخمر كمحمد ابن سعد بن مردنيش[٣] الذى مال إلى إتخاذ زى الروم من اللباس الضيق[٤] وأخذ الأمراء فى تشييد القصور الفخمة وتفنن فنانو الأندلس فى زخرفتها[٥] .

وتمتعت الطبقة الحاكمة بمكانة اجتماعية متميزة حتى إن صاحب « رسالة القضاء والحسبة » [٦] طلب ألا يتولى القضاء غير الأندلسيين فهم أنفع للسلطان ؛ لأنه يستحى أن يحاسب مرابطاً[٧] .

ب) الطبقة الخاصة الأرستقراطية :

وتمثلت هذه الطبقة فى أصحاب الأملاك الكبيرة مما أوجد نوعًا من التنافس بين العائلات الكبرى بالأندلس لتوسيع نفوذها الاقتصادى وازدياد النشاط التجارى[٨]، وأفرز هذا المجتمع طبقة من الشباب الأرستقراطى الذين وجدوا بين أيديهم المال والفراغ مما انعكس على سلوكهم فى طلب اللذة واللهو وإحياء الليالى والغناء

(١) الأوضاع السياسية والاقتصادية وأثرها على المجتمع الأندلسى فى عصر المرابطين والموحدين - دراسة تاريخية مقارنة - : د. سلوى عبد الخالق رسالة دكتوراه دار العلوم قسم تاريخ سنة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م ص ٥٦١

(٢) المرجع السابق ص ٥٦١

(٣) أبو عبد الله محمد بن سعد الجذامى بن مردنيش أمير شرقى الأندلس ، كان متعسفًا فى حكمه وفرض ضرائب باهظة على الرعية

(٤) تاريخ إسبانيا أو كتاب أعمال الأعلام ص٢٦١

(٥) الأوضاع السياسية : د. سلوى عبد الخالق ٥٦٥

(٦) ابن عبدون الأندلسى

(٧) ثلاث رسائل فى آداب الحسبة والمحتسب لابن عبدون تحقيق ودراسة أ - ليفى بروفنسال مطبعة المعهد العلمى للآثار الشرقية سنة ١٩٥٥ ص ١٦

(٨) الأوضاع السياسية والاقتصادية د. سلوى عبد الخالق ص ٥٧٠ ، ٥٧١

والرقص[١] والبحث عن العشق وعدم المبالاة بالأخطار السياسية التى تحدق بالأندلس .

جـ) طبقة الصوفية :

فى مقابل هذا الترف وذلك الإسراف ، والبحث عن اللذات اتجهت نفوس بعض الأندلسيين إلى الزهد ، كرد فعل لهذا البذخ ، فانتشرت الصوفية فى أنحاء الأندلس وكذلك الزوايا والرُّبط الخاصة بهم وعُرِفوا بالمريدين والفقراء[٢] .

وبرز دورهم الاجتماعى فى إعانة المحتاجين ، وهذا يدلنا على أن تصوف الأندلسيين كان إيجابيًا ، وليس بمعزل عن المجتمع ، وكان من أشهر مشايخ الصوفية فى عهد الخزرجى أبو القاسم بن قسى ، الذى قيل إنه تصدق بجميع ماله، وطاف بالأندلس ، وادعى أصحابه أنه حج فى ليلة[٣] .

وظهرت بالأندلس فى العهد المرابطى حركة دينية صوفية أسفرت عن قيام طائفة المريدين فى غربى الأندلس ، كان إمامها العلامة الصوفى ابن العريف (ت٥٣٦هـ)[٤] .

د) طبقة الفقهاء ، والقضاة ، والعلماء :

ينظر المجتمع الإسلامى فى كل العصور إلى الفقهاء على أنهم حماة الدين، وكان للفقهاء منزلة رفيعة بالأندلس ؛ إذ يقول صاحب نفح الطيب عن الأندلسيين : «وسمة الفقيه عندهم جليلة حتى إن المسلمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم ، الذين

(١) الأوضاع السياسية والاقتصادية د. سلوى عبد الخالق ص ٥٧٢

(٢) المرجع السابق ص ٥٧٩

(٣) تاريخ إسبانيا أو كتاب أعمال الأعلام ص ٣٤٩

(٤) أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجى المعروف بابن العريف من أهل ألمرية درس علوم القرآن والسيرة ، وغلب عليه الزهد ، والورع ، وألف عدة تصانيف منها كتاب المجالس، ورسالة يحمل فيها على ابن حزم . وكانت بينه وبين القاضى عياض مراسلات ومجادلات فقهية ، واعتقل فى آخر أيامه حتى توفى سنة ٥٣٦هـ ، واحتفل الناس بجنازته

يريدون تنويهه بالفقيه ، وهى الآن بالمغرب بمنزلة القاضى بالمشرق ، وقد يقولون للكاتب ، والنحوى ، واللغوى فقيه ؛ لأنها عندهم أرفع السمات»[(١)] .

وإذا كانت هذه مكانة الفقهاء المتميزة فى تاريخ الأندلس ، فقد زادت هذه المكانة تميزًا ، وخصوصية فى عهد المرابطين[(٢)] ، الذين عاصر الخزرجي نهاية دولتهم فاحترم الأمراء قضاة المسلمين والفقهاء وأشركوهم فى مجالس الشورى ، واتخذوا منهم وزراء[(٣)] ، حتى تقرب الناس إليهم مستشفعين ، وقصدهم الشعراء مادحين مشيدين بفضلهم[(٤)] .

هـ) الطبقة الوسطى :

تمثل الطبقة الوسطى فى المجتمعات قيم هذه المجتمعات ، وتحدد ملامح شخصيتها ، وقد تمثلت هذه الشريحة الاجتماعية بالأندلس فى طبقة التجار ، وبعضهم حقق ثروات كبيرة ، وموظفوا الدولة من أصحاب المهن الحرة كالأطباء ، والمهندسين والفنانين ، واتصل بعضهم بالأمراء لتزيين القصور ، والبساتين ، وجلب المياه إلى الحدائق مما جعل الدولة تولى أهمية كبرى للفنانين ، والمهندسين[(٥)] .

ويمكن أن يضاف إلى هذه الطبقة الحرس ، والعرفاء (الشرطة) ، وكذلك المحتسبون الذين وكل إليهم مراقبة الأسعار .

(١) نفح الطيب من غضن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب أحمد المقرى المطبعة الأزهرية ط١ سنة ١٣٠٢هـ ص ١٠٣

(٢) دولة المرابطين حسن أحمد محمود دار الفكر العربى ص ٤١٤

(٣) المرجع السابق ص ٤١٤

(٤) المرجع السابق ص ٤١٥

(٥) الأوضاع السياسية والاقتصادية سلوى عبد الخالق ص ٥٨٥

(٦) الأوضاع السياسية سلوى عبد الخالق ص ٥٨٥

و) طبقة العامة :

وتضم هذه الطبقة الحرفيين ، وصغار التجار ، والباعة المتجولين ، والمزارعين ، والقائمين بالإضافة إلى العبيد ، وتكون هذه الطبقة أكثر تأثراً من غيرها بالحروب، والأزمات التى تجتاح البلاد .

تلك أهم سمات الحياة الاجتماعية فى عصر أحمد بن عبد الصمد الخزرجى ، والملامح المميزة للطبقات الاجتماعية فى هذا العصر ، ويجدر بنا أن نتعرف على الحياة الفكرية بالأندلس فى عصر الخزرجى :

■ الحياة الفكرية :

سبق أن ذكرنا أن الخزرجى عاصر سقوط دولة المرابطين ، وقيام دولة الموحدين ، ولم يطل عمر المرابطين بالأندلس أكثر من نصف قرن ، وطبيعى أن الدول فى فترات سقوطها ، وقيامها تكون مشغولة بالنواحى العسكرية ، واستتباب الأمن الداخلى فى المقام الأول .

ولم يكن المرابطون بحكم طبيعتهم العسكرية والبدوية ، يميلون للأخذ بأساليب التمدن الرفيع ، كما أن عهدهم القصير لم يساعدهم على الاهتمام برعاية العلوم ، والآداب ، ومن ثمَّ فإن الحركة الفكرية فى عصر الخزرجى مرت بحالة من الركود النسبى وانكماش الثقافة الأندلسية[1] .

وقد عمدت الحكومة المرابطية إلى مصادرة البحوث الكلامية ، والفلسفية ، فأحرقت كتب الغزالى (ت ٥٠٥ هـ) بقرطبة عام (٥٠٣هـ) ، واستمر تحريم قراءتها، وجدد هذا التحريم[2] (٥٣٨ هـ) ، وكان لهذه المواقف أثرها فى صد الحركة الفكرية،

(١) تاريخ الفكر الأندلسى آنخل جنثالث بالنثيا ترجمة د. حسين مؤنس ص ١٢٣

(٢) المرابطون تاريخهم السياسى ٤٣٠ – ٥٣٩ هـ : د. محمد عبد الهادى شعيرة ط١ سنة ١٩٦٩م مكتبة القاهرة الحديثة ص ١٥٠

وتأخرها[(١)] ، حتى أن المؤلفات التاريخية فى هذا العصر كانت قليلة نسبيًا ، وضاع معظمها[(٢)] .

■ وفاة الخزرجي :

انتقل أحمد بن عبد الصمد بن أبى عبيدة إلى بارئه سنة (٥٨٢ هـ) بمدينة فاس بعد أن كف بصره فى آخر عمره [(٣)] ولم ينقص هذا من حفظه ، وذكائه شيئًا[(٤)]

■ مصنفات ابن أبى عبيدة الخزرجي :

للخزرجي مؤلفات عديدة ، ومتنوعة فى فروع العلم المختلفة ، ويمكننا التعرف على مصنفاته من خلال المصادر المختلفة ، التى ترجمة له ، فنجد أنه كتب فى السيرة ، وعلم الكلام ومقارنة الأديان ، وعلوم القرآن ، والتاريخ .

ولم نعثر للخزرجي على مخطوطات لمؤلفاته بمصر سوى مخطوط واحد سنشير إليه، وهذه هى مؤلفات ابن أبى عبيدة مقسمة حسب الموضوعات :

١ – مؤلفات الخزرجى فى السيرة :

لأحمد بن عبد الصمد الخزرجي فى مجال السيرة النبوية ثلاثة كتب هى :

- آفاق الشموس ، وأعلاق النفوس فى أحكام النبى ﷺ[(٥)] وقد ورد اسم هذا الكتاب فى جذوة الاقتباس[(٦)] بعنوان (آفاق الشموس وإعلاء النفوس)

---

(١) دولة الإسلام فى الأندلس – عصر المرابطين والموحدين قسم ١ ص ٤٣٨

(٢) تاريخ الفكر الأندلسى آنخل جنثالث بالنثيا ص ٢٤١

(٣) تعريف الخلف للحفناوى ص ٦١ – معجم المؤلفين لكحالة ج١ ص ٢٧٤ – سلوة الأنفاس للكتانى ج٣ ص ٢٤٢ – ٢٤٣ – جذوة الاقتباس لابن القاضى ص ٧٠ ، الوافى بالوفيات للصفدى ص ٦٦

(٤) الذيل والتكملة لابن عبد الملك قسم ١ ص ٢٤٠

(٥) تعريف الخلف برجال السلف للحفناوى ص ٦١ – سلوة الأنفاس للكتانى ج٣ ص٢٤٢ – الوافى بالوفيات للصفدى شخصية رقم ٣٠٠٢ – معجم المؤلفين ج١ – ص ٢٧٤ – الإعلام للزركلى ج١ – ص١٥٠ ، التكملة لكتاب الصلة لابن الآبار شخصية رقم ٢٢٣ ص ١١٦ ، ١١٧ – الذيل والتكملة لابن عبد الملك قسم ١ ص ٢٤٠

(٦) جذوة الاقتباس لابن القاضى ص ٧٠

- إشراق النفوس [١] ، وهو مختصر لآفاق النفوس
- قصد السبيل فى معرفة آيات الرسول ﷺ [٢]

٢ - علم الكلام :

وله كتابان فى هذا المجال هما :

- مقام المدرك فى إفحام المشرك [٣] .
- مقامع هامات الصلبان ، ومراتع رياض الإيمان [٤]

ولهذا المصنف عدة أسماء فأحيانًا يذكر مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان[٥] ، وقد يذكر (مقامع الصلبان)[٦] ، وورد فى الإعلام للزركلى (مقامع الصلبان ، ورواتع رياض أهل الإيمان)[٧] وورد (مقامع هامات الصلبان ، ورواتع رياض الإيمان)[٨] .

ولهذا الكتاب ثلاث مخطوطات : أحدهما يوجد بمعهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية (فهرس المخطوطات - التوحيد والملل والنحل رقم ٢٥) .

والمخطوطتان الأخرتان : إحداهما مخطوطة مكتبة أحمد الثالث باستنبول تحت رقم ١٨٦٣ ، والثانية بالمكتبة الأحمدية بتونس تحت رقم ٢٠٦٣ ، وهى بخط مغربى صعب القراءة . وقد ذكر هاتين المخطوطتين الأخيرتين الدكتور محمد عبد الغنى شامة فى مقدمة تحقيقه لهذا الكتاب .

---

(١) الذيل والتكملة لابن عبد الملك قسم ١ ص ٢٤٠

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة

(٣) سلوة الأنفاس للكتانى ج٣ ص٢٤٣

(٤) المرجع السابق ج٣ ص ٢٤٣

(٥) التكملة لكتاب الصلة لابن الآبار شخصية رقم ٢٢٣ ص ١١٦ ، ١١٧

(٦) معجم المؤلفين لكحالة ج١ ص ٢٧٤ - جذوة الاقتباس لابن القاضى ص ٧٠

(٧) الإعلام للزركلى ج١ ص ١٥٠

(٨) الذيل والتكملة لكتاب الصلة قسم ١ ص ٢٤٠

٣ - علوم القرآن :

وألف الخزرجي في علوم القرآن كتاب (نفس الصباح في غريب القرآن ؛ وناسخه، ومنسوخه) [(١)] ، وقد طبعت وزارة الأوقاف المغربية هذا الكتاب في العقد الأخير من القرن العشرين .

٤ - التاريخ :

أشارت بعض المصادر كسلوة الأنفاس للكتاني وغيره ، إلى أن لابن أبي عبيدة الخزرجي مؤلفات أخرى لم يذكرها[(٢)] ، فأخذت أبحث عن المصنفات التي ألفت بالأندلس في فترة حياة أحمد بن عبد الصمد الخزرجي (ت ٥٨٢هـ) علّني أجد له مؤلفات لم تذكرها المصادر التي ترجمه له ، فوقعت على كتاب له ذكره المقري بنفح الطيب.

حيث ورد (أن الفقيه أبا جعفر بن عبد الحق الخزرجي القرطبي له كتاب كبير بدأ فيه من بدء الخليقة إلى أن انتهى في أخبار الأندلس إلى دولة عبد المؤمن[(٣)])[(٤)] .

---

(١) سلوة الأنفاس للكتاني ج٣ ص٢٤٣ - معجم المؤلفين لكحالة ج١ ص ٢٧٤ - الذيل والتكملة لابن عبد الملك قسم ١ ص ٢٤٠

(٢) سلوة الأنفاس للكتاني ج٣ ص ٢٤٣

(٣) عبد المؤمن الكومي (٤٨٧ - ٥٥٨هـ) : عبد المؤمن بن علي بن مخلوف بن يعلى بن مروان أبو محمد الكومي مؤسس دولة الموحدين في المغرب وإفريقيا وتونس . نسبة إلى كومية من قبائل البربر ، ولد بمدينة تاجرت بالمغرب (قرب تلمسان) ونشأ فيها طالبًا للعلم ، وحج والتقى بابن تومرت ملك المغرب الأقصى . فجعل لعبد المؤمن قيادة الجيش ، واختصه بثقته ، ولما توفي المهدي اتفق أصحابه على خلافة عبد المؤمن فتم له الأمر ٥٢٤هـ ، وبويع البيعة العامة ، ودعى أمير المؤمنين ٥٢٦هـ ونهض للغزو والفتوح ، ودخل مراكش ٥٤١هـ ، وجاءته بيعة بعض أهل الأندلس ، وكان حازمًا عاقلاً شجاعًا . كثير البذ ، شديد العقاب على الجرم الصغير عظيم الاتمام بشئون الدين - خضع له المغربان الأقصى والأوسط واستولى على أشبيلية وقرطبة وغرناطة ، والجزائر والمهدية ، وطرابلس الغرب وسائر بلاد إفريقيا توفي في رباط سلا في طريقه إلى الأندلس ، ونقل إلى تينملل فدفن إلى جانب قبر ابن تومرت .

(٤) نفح الطيب للمقري ص ١٣٩

ومن مصنفات الخزرجى التى يصعب تصنيفها تحت علم مميز كتاب (حسن المرتفق فى بيان ما عليه المتفق فيما بعد الفجر ، وقبل الشفق)[1] وكان للخزرجى ردود على أسئلة كانت ترد عليه[2] .

وقد تكون هذه الكتب أو على الأقل بعضها قد تعرضت ضمن تراث المسلمين بالأندلس؛ لأبشع جريمة حضارية تعرضت لها الإنسانية عامة ، والحضارة الإسلامية خاصة ؛ حيث جمعت بعد طرد المسلمين من الأندلس (٨٩٧هـ - ١٤٩٢م) عدة آلاف من المخطوطات العربية ، وفى بعض الروايات مليونان من المخطوطات ، وأشعل النيران فيها بميدان باب الرملة بغرناطة[3] .

بعد هذا العرض السريع لحياة ابن حزم والخزرجى نجد أنهما عاشا حياة حافلة بالعطاء ، وأسهما فى مجال الجدل الدينى بالأندلس ، الذى يجدر بنا أن نتعرف على أهمية دراسته ، ونلقى نظرة عامة على تاريخ هذا الحوار العقائدى الذى كان دائراً بين المسلمين وأهل الكتاب بالأندلس .

(١) ورد بسلوة الأنفاس الكتانى ج٣ ص ٢٤٣ كتاب (المرتفق فى بيان ما عليه المتفق فيما بعد الفجر وقبل الشفق) - انظر الذيل والتكملة لابن عبد الملك قسم ١ ص ٢٤٠

(٢) الذيل والتكملة لابن عبد الملك قسم ١ ص ٢٤٠

(٣) التربية الإسلامية فى الأندلس : أصولها الشرقية ، وتأثيراتها العربية ترجمة د. الطاهر أحمد مكى دار المعارف ص ١٧٨ ، ١٧٩

الفصل الثانى

جدل علماء المسلمين لأهل الكتاب بالأندلس
أهمية ودراسة تاريخية

قام علماء المسلمين بجهود عظيمة فى الدفاع عن الإسلام ضد أصحاب العقائد المخالفة خاصة من اليهود والنصارى ، وبذل هؤلاء العلماء أقصى وسعهم فى التعرف على عقائد أهل الكتاب ، وبيان مواطن الاختلاف بينها ، وبين الإسلام ، وتوضيح أفضلية العقائد الإسلامية ، وإتفاقها مع العقل السليم ، والرد على اعتراضات علماء أهل الكتاب ضد الإسلام، وكذلك نقد عقائد اليهودية والنصرانية ، وقد دفعهم ذلك للجدل مع أهل هاتين الملتين ، مما يكسب دراسة هذا الجدل العقائدى أهمية كبرى خاصة فى الأندلس التى كانت أرضًا خصبة لالتقاء أتباع الديانات الثلاث (الإسلام - اليهودية - النصرانية) .

أولاً - جدل علماء المسلمين لأهل الكتاب بالأندلس وأهميته

الإسلام خاتم الرسالات السماوية ، فجاء مصدقًا لما فى هذه الرسالات من بقايا الوحى، التى لم تتغير ، ولم تحرف ، فقال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم ﴾ (١) .

وجاء الإسلام كذلك مصححًا لما حدث من تغيير ، وتبديل فى الكتب المقدسة خاصة ما يتعلق بالعقائد ، والقص النبوى كما سنبين فيما بعد ، فقال عز وجل : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) ﴾(٢) .

وطبيعى أن يحدث هذا الموقف العقائدى جدلاً دينيًا تتضح أهمية دراسته فى النقاط التالية :

١ - توضيح الدور الذى لعبه الجدل فى الدعوة إلى الإسلام ؛ حيث إن المبدأ الإسلامى فى الدعوة هو قوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (٣) ، والإسلام دين عالمى لم يختص بأمة بعينها، وإنما دعوة للناس كافة ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾(٤) .

ومن الطوائف التى دعا الله - عز وجل - رسوله إلى الحوار معهم بالحسنى اليهود والنصارى ؛ إذ قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ﴾(٥) .

(١) سورة النساء ، آية ٤٧
(٢) سورة النمل ، آية ٧٦
(٣) سورة النحل ، آية ١٢٥
(٤) سورة الأنبياء ، آية ١٠٧
(٥) سورة آل عمران ، آية ٦٤

فى ضوء هذه الدعوة الإسلامية الخاصة لأهل الكتاب لعبادة الله الواحد الأحد تبرز أهمية الجدل الدينى معهم ؛ لأن كثيراً منهم مكابرون ، وطبيعى أن يحاوروا ، فيحتاج ذلك من المسلم إلى شيء من المراس الجدلى، وقد جادلهم القرآن فى عقائدهم التى حرفت مع مرور الزمن ، وكذلك فعل الرسول - ﷺ - وصحابته والتابعون ، وتظهر أهمية الجدل فى مجال الدعوة من خلال التعرف على دور الفرق الإسلامية - خاصة المعتزلة فى نشر الإسلام ، والمطلع على مؤلفات المهتدين الجدلية مع أحبار أهل الكتاب ، سيعرف أنهم تأثروا فيها بمؤلفات علمائنا المسلمين ، فأشار المهتدى عبد الله الترجمان(١) إلى مصنفات المسلمين الجدلية ، ومدح ابن حزم الأندلسى (ت ٤٥٦هـ) لرده على اليهود والنصارى بمقتضى المنقول ، والمعقول(٢) .

٢ - وترجع أهمية دراسة الجدل الإسلامى لأهل الكتاب أيضًا إلى أنها تعكس روح التسامح الدينى ، الذى يكفله الإسلام لغير المسلمين عامة ؛ ولأهل الكتاب بصفة خاصة ؛ إذ يعطيهم حق الدفاع عن عقائدهم ، والاحتجاج لها، وأكثر من ذلك يضمن لعقائدهم حرية التعبير عن موقفهم من الإسلام تلك الحرية التى لا تجد لها مثيلاً فى أى نظام عقائدى قديمًا أو حديثًا .

ويجدر بنا أن نشير إلى أنها حرية ملتزمة بآداب الجدل الموضوعى مصداقًا لقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾(٣) .

٣ - وتتضح أهمية دراسة الجدل الإسلامى لأهل الكتاب - كذلك - من خلال أنه يعكس احترام الإسلام للرأى الآخر حتى أنه يتفاعل معه من أجل الوصول للأفضل ، والأصح ، الذى يكون أساسًا للإنطلاق للأمام ، ويأتى هذا الجدل تأكيداً لقبول الحضارة الإسلامية بالتعددية داخلها أيًا كان سمتها ، ويهمنا

(١) عبد الله بن عبد الله الترجمان ، أسلم فى القرن التاسع الميلادى ، وألف كتابه تحفة الأريب ، وكتب عن نفسه فى هذا الكتاب سيرة ذاتية بأسلوب أدبى رفيع .

(٢) تحفة الأريب فى الرد على أهل الصليب لعبد الله الترجمان ، تحقيق د. محمود على حماية دار الثقافة للطباعة والنشر سنة ١٩٨٣ ص ٢١

(٣) سورة العنكبوت ، آية ٤٦

فى هذا المجال الإشارة إلى اعتراف الإسلام بالتعددية العقائدية ؛ إذ قال تعالى ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) ﴾ (1)، وقال أيضًا عز من قائل : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (2) .

واعتبر القرآن الكريم الاختلاف سنة من سنن الله فى الكون : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (22) ﴾ (3) وقال عز وجل: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾(4) .

٤ – معرفة الجدل الإسلامى لليهود والنصارى ، يكشف عن طبيعة العقائد الإسلامية، وغير الإسلامية ، ويدل على أن الكثير من عقائد أهل الكتاب لا يؤيدها البرهان ، وقد اعترف بذلك بعض علماء النصرانية فى مؤلفاتهم الجدلية، فيذكر الصفى بن العسال(5) فى كتاب بعنوان « الصحائح فى جواب النصائح» أن العقائد المسيحية غير برهانية وينقل عن بولس اليهودى قوله : « إنا لم ندعكم بحكمة الكلام، وإلا لأبطلنا صلب المسيح » (6)، ويذكر الصفى أن فم الذهب(7)،

---

(١) سورة هود ، آية ١١٨

(٢) سورة المائدة ، آية ٤٨

(٣) سورة الروم ، آية ٢٢

(٤) سورة المائدة ، آية ٤٨

(٥) هو الصفى أبو الفضائل بن العسال ت.١٢٦٠م ، وأولاد العسال عائلة نصرانية شهيرة عاشت بمصر فى القرن الثالث عشر الميلادى – السابع الهجرى – وهم الأسعد أبو الفرج هبة الله بن العسال ، والصفى ، والمؤتمن أبو إسحاق إبراهيم بن العسال .

(٦) الصحائح فى جواب النصائح طبع ١٤٦٣هـ للشهداء ص٢١

(٧) يوحنا فم الذهب أو ذهبى الفم ، ولقب بهذا اللقب ؛ بسبب قصة أسطورية تذكر أن السيدة مريم ظهرت له ، وخلعت عليه لقب ذهبى الفم ، وولد يوحنا فم الذهب فى أنطاكية ٣٤٤م ، ودرس المنطق والفلسفة ، وكتب وعظية ، ومن آرائه أنه يتهم من يحاول فهم العقائد المسيحية بالجنون ، والشيطنة؛ إذ يقول بعد أن تعرض لهذه العقائد من تجسد ، وصلب ، وتثليث : « الآن وقد عرفت هذه الأمور جميعها ، التى من خلالها يعلن الله لك عن ذاته ، وأعماله التى صنعها ، وسيصنعها معك ، فلا تسمح أن تسأل نفسك : لماذا هذا ؟ وما سبب هذا ؟ فإن هذا فيه جنون الكبرياء المستبد والشيطنة» العناية الإلهية ليوحنا فم الذهب كنيسة مارجرجس باسبورتنج ص٢١

وأمثاله أكدوا كلام بولس فى كتاباتهم[1] ، ثم يدعو النصارى صراحة ألا يتشككوا فى عقائدهم حتى ولو خالفت العقل ؛ فيقول : « وثمرة هذا الفصل أن نعلم أنه يجب أن لا يتزعزع إيماننا لعدم البرهان عليه ، أو لمضادة البرهان له ، فهكذا قال الرسول لم أبشركم بحكمة الكلام ، لئلا يتعطل صلب المسيح » [2] .

أما فى الإسلام فالعقائد الإيمانية قائمة على العقل الصحيح والفطرة السليمة ودائمًا ما يطالب القرآن مخالفيه بالدليل على صدق دعواهم : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (111) ﴾ [3] .

٥ – الإحاطة بالجدل الإسلامى لليهود والنصارى ، يكشف عن البراعة المنطقية لعلماء المسلمين ، فنجد العديد من هؤلاء العلماء اشتهروا بوصفهم فقهاء ، أو أصوليين ، وقد أجادوا الجدل بالحجج المنطقية مع المخالفين بوصفهم علماء فى العقائد ؛ والملل كذلك .

والحق إن الاطلاع على مؤلفاتهم الجدلية تدهش الباحث حين يقف على سعة عقلية علماء الإسلام ، ودقة معرفتهم بعقائد أهل الكتاب ، ومن أمثلة هذه المؤلفات «الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة » للقرافى (ت ٦٨٤هـ) « هداية الحيارى فى أجوبة اليهود والنصارى » لابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) .

كما أن معرفة الجدل الإسلامى لأهل الكتاب تكشف للدارس عن تفوق المجادل المسلم سواء على مستوى المؤلفات والرسائل الجدلية ، أو على مستوى المناظرات ، فالمطلع على كتاب « عيون المناظرات » لأبى على عمر السكونى (ت ٧١٧هـ/١٣١٧م) سيجد العديد من المناظرات الشفهية لليهود ، والنصارى تنتهى كلها بإفحامهم،

---

(١) الصحائح فى جواب النصائح طبع ١٤٦٣هـ للشهداء ص٢١

(٢) المصدر السابق ص٢١

(٣) سورة البقرة ، آية ١١١

وانقطاعهم عن الحجاج الدينى[1] ، وأحياناً باعتناق المجادل غير المسلم للإسلام .

٦ – وتكشف دراسة الجدل الإسلامى لليهود والنصارى عن الدور العظيم ، الذى لعبه علماء المسلمين فى الدفاع عن الإسلام ، ورد مطاعن أعدائه ، وعن أهمية هذا الدور يقول ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) : « فكل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع ، مناظرة تقطع دابرهم ، لم يكن أعطى الإسلام حقه ، ولا وفىّ بموجب العلم ، ولا حصَّل بكلامه شفاء الصدور ، وطمأنينة النفوس ، ولا أفاد كلامه العلم واليقين[2] » .

٧ – وتكشف دراسة هذا الجدل الدينى – كذلك – عن مصادر انحراف العقيدة لدى اليهود والنصارى ، وخطورة التقليد فى العقائد إلى الحد الذى يجعل المقلد مجرد تابع لمن يقلده ، ومحاكٍ له فى أقواله وأفعاله، حتى وإن خالفت أبسط أحكام التفكير العقلى السليم .

٨ – دراسة هذا النوع من الجدل يفسر كثيراً من الصراعات الفكرية، التى حدثت

---

(١) من أمثلة هذه المناظرات الشفهية أن المأمون : (جمع بين العتابى المسلم ، وابن فروة النصرانى، وقال لهما : « تكلما وأوجزا » فقال العتابى لابن فروة : « ما تقول فى عيسى المسيح ؟ قال : أقول إنه من الله . قال : صدقت ، ولكن من تقع على أربع جهات لا خامس لها : من كالبعض من الكل على سبيل التجزى ، أو كالولد من الوالد على سبيل التناسل ، أو كالخل من الخمر على سبيل الاستحالة، أو كالصنعة من الصانع على سبيل الخلق من الخالق، أم عندك شىء تذكره غير ذلك ، قال ابن فروة : «لابد أن يكون هذه الوجوه فما أنت مجيبنى إن تقلدت مقاله منها » ، قال العتابى : « إن قلت على سبيل التجزى كفرت ، وإن قلت على سبيل التناسل كفرت ، وإن قلت على سبيل الاستحالة كفرت ، وإن قلت على سبيل الفعل كالصنعة من الصانع والمخلوق من الخالق أصبت » ، قال ابن فروة : «فما تركت لى قولاً أقوله وانقطع »). عيون المناظرات لأبى على عمر السكونى تحقيق سعيد غراب منشورات الجامعة التونسية سنة ١٩٧٦م – ص٢١٣، ويعلق صاحب عيون المناظرات على هذه المناظرة قائلاً : « وإنما ألزمه العتابى الكوفي الأوجه الثلاثة ما عدا الفعل من الفاعل ؛ لأن كل وجه منها يؤدى إلى الحدوث والافتقار » عيون المناظرات ص ٢١٣ .

(٢) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) تحقيق محمد رشاد سالم – مكتبة ابن تيمية جـ ١ ص٣٥٧

فى التاريخ الإسلامى ، والتى عانت من ويلاتها الأمة الإسلامية فترات زمنية طويلة ، ومن أمثلة ذلك ما نعتقده من أن السبب فى تشدد المعتزلة فى التمسك بعقيدة خلق القرآن إلى حد إجبار الناس على اعتناقها[(١)] ، وما شهدته محنة الإمام أحمد بن حنبل[(٢)] (ت ٢٤١هـ) كدليل عملى على هذا التشدد هو خوف المعتزلة من أن يضاهى القول بقدم القرآن كلمة الله ادعاء النصارى قدم المسيح عليه السلام ؛ لأنه كلمة الله أيضًا ، ومما يبرهن على هذا رسالة بعث بها الخليفة المأمون (ت ٢١٨هـ) إلى إبراهيم بن إسحاق أحد عماله عدد فيها المأمون مثالب القول بقدم القرآن، فكان مما اتهم به الذين يدّعون قدم القرآن ما جاء فى قوله : « ... وضاهوا به قول النصارى فى إدعائهم فى عيسى بن مريم إنه ليس بمخلوق إذ كان كلمة الله »[(٣)] .

ولا شك أن كلام المأمون هذا جاء كإنعكاس لأثر الجدل الإسلامى المعتزلى للنصارى على فكرهم الدينى مع أن القرآن يذكر أن المسيح وغيره من المخلوقات بكلمة الله تعالى « كن » وليس هو الكلمة نفسها .

---

(١) بعث المأمون إلى ولاته بامتحان القضاة ، والفقهاء ، وغيرهم ؛ لتوضيح موقفهم من كلام الله تعالى والذى لا يقول بحدوث القرآن يتعرض لعذاب شديد وحبس وقطع رزقه .

(٢) رفض الإمام أحمد أن يقول بأن القرآن حادث فأمر إسحاق بن إبراهيم بناء على توجيهات المأمون بتقييد هذا الإمام العظيم بالحديد ، وعندما أعلن بعد ذلك جهرة أن القرآن غير مخلوق كان يخر على وجهه من ثقل القيود ، وضرب السياط ، حتى قيل إن هذه السياط لو ضربت فيلاً لهدته. أنظر الكامل فى التاريخ لابن الأثير أبو الحسن على ابن أبو الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى (ت ٦٣٠هـ جـ٥) دار الكتاب العربى بيروت سنة ٢١٨هـ ، ذكر المحنة بالقرآن المجيد مراجعة نخبة من العلماء . وانظر ترجمة الإمام أحمد (١٦٤-٢٤١هـ) من تاريخ الإسلام للحافظ شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أحمد عثمان قايماز الذهبى الدمشقى (٦٧٣-٧٤٨هـ) ، دار الوعى حلب ص ٣٧ ، ٤٣ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٣ ، ٧١

(٣) تاريخ الرسل والملوك لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى (ت ٣١٠ هـ) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار المعارف ص ٦٣٥ انظر ما ورد فى الحديث عن دخول سنة ٢١٨هـ

٩ - الإحاطة بالجدل الإسلامى مع أصحاب الديانات الأخرى ، وأهل الكتاب بصفة خاصة تكشف عن الوجه المشرق للفرق الإسلامية من أشاعرة ، ومعتزلة ، وما تريدية ، وغيرهم حيث خلف لنا علماء هذه الفرق مؤلفات جدلية ما زالت فى حاجة لجهود الباحثين ، للتنقيب والكشف عنها .

١٠- كما أن دراسة الجدل الإسلامى لأهل الكتاب يكشف أيضًا عن دور هذا الجدل فى نشأة علم الكلام ، وتكتسب دراسة الجدل الإسلامى لليهود والنصارى فى الأندلس أهمية خاصة .

١١- دراسة جدل علماء الأندلس لأهل الكتاب تكشف عن الدور الكبير ، الذى لعبه هؤلاء العلماء - خاصة ابن حزم - فى تأسيس علم مقارنة الأديان .

١٢- ودراسة هذا الجدل توضح مدى الحرية ، التى أعطاها المسلمون لليهود والنصارى بالأندلس، حتى أنهم ألفو فى الطعن فى الإسلام ، وجادلوا المسلمين عقديًا ، بل افتروا على الإسلام بصورة غير لائقة، كما سيتضح خلال البحث .

ولم ينكر أحد اليهود المحدثين(١) هذه الحرية ، التى كان يتمتع بها يهود الأندلس، إذ قال : « وإنه لواضح جدًا أن البحث فى مثل هذه المواضيع الحساسة ، وفى مثل هذه الشئون العقائدية، التى لا يمكن أن تتجرد من تأثير العاطفة إن دل على شىء فإن أول ما يدل عليه هو هذا التسامح الدينى، الذى كان بين العرب واليهود فى الأندلس» (٢) .

وإن كنا نستدرك أن التسامح كان من جانب المسلمين الأكثرية ، والحكام تجاه اليهود، وليس العكس .

---

(١) سليم شعشوع محامى يهودى يعيش فى فلسطين المحتلة

(٢) العصر الذهبى - صفحات من التعاون اليهودى العربى فى الأندلس - سليم شعشوع ط١ سنة ١٩٧٩م تل أبيب ص ٤٠

ولكى يتضح مدى التسامح الدينى ، الذى حظى به اليهود فى الأندلس نلقى نظرة عابرة موجزة عن أحوال اليهود قبل الفتح الإسلامى لبلاد الأندلس ، فنجد أنه فى فترة الحكم الرومانى للأندلس استنت مجموعة من القوانين المهينة لليهود بهذه البلاد، فحرم على السكان كل تعامل تجارى معهم ، وحرم على الزراع أن يسمحوا لليهود بمباركة المحصولات أو الفواكه كى لا يدنسوها كما حرم عليهم أكل طعام اليهود[١].

فإذا ما انتقل الكم من الرومان إلى القوط نجد استمرارية للاضطهاد الدينى لليهود فصدرت قوانين عام (٥٨٩م) التى حرمت على اليهود تقلد المناصب العامة كما صدرت قوانين خاصة بتنصير أبناء اليهود ، وتعميدهم قصراً[٢] .

وفى الوقت الذى وصل فيه اليهود بالأندلس إلى منصب الوزارة فى ظل الحكم الإسلامى ، وهذه ثقة من حكام المسلمين فى غير محلها ، وكان لها عواقب وخيمة على الإسلام والمسلمين كانت تنصب المحارق فى أيام الأحاد ؛ لتصيد اليهودى التائه فيحرق فى الميادين العامة فى أوربا الوسيطة ؛ لتأكيد لعنة المسيح عليه السلام[٣] .

ولكن : هل اعترف يهود الأندلس بالجميل ؟

الإجابة بالسلب ، فنجد أنه ما كاد حكم المسلمين يضعف بالأندلس ، حتى انقلب اليهود عليهم ، وأصبحوا عملاء للنصارى ، وبلغ من عداوتهم للإسلام أن نصبوا أنفسهم جباة للإتاوات ، التى فرضها ألفونسو السادس على بعض أمراء المسلمين ، وأكثر من ذلك ، فقد وصلوا إلى درجة الخيانة العظمى حين كشفوا للأسبان عن أسرار المسلمين ، ومواطن الضعف فيهم[٤] .

(١) الأدب العبرى القديم والحديث – ألفت محمد جلال مطبعة عين شمس سنة ١٩٧٨م ص١٣٠

(٢) الأدب العبرى : ألفت جلال ص ١٣٠

(٣) فى حوار الحاضر بالماضى عبر الأندلس : د. رشدى فكار ط١ مكتبة وهبة سنة ١٤١١هـ/ ١٩٩١م ص٨

(٤) كيف نفهم اليهود : د. حسين مؤنس (سلسلة كتابك ٥٠) دار المعارف ص٥٣

ولقد لقى اليهود جزاءهم ، فبعد خروج المسلمين من الأندلس عادت أبشع صور الاضطهاد لليهود مرة أخرى كأن القدر أراد أن يربط تاريخ التسامح مع بنى إسرائيل فى بلاد الأندلس بالإسلام ، ويشهد بهذا أحد اليهود ؛ إذ يقول : « ... فى ساعة نحس ، وشؤم اكتسح الصليب الهلال ، واحتل مكانة على قمة الحمراء ، فهدم هذا الملاذ الوحيد ، وخفت مصباح التسامح الدينى فى إسبانيا ؛ إذ تقرر إخراج اليهود منها »(١) .

وبات اليهود فى ظل النصرانية بإسبانيا يعانون أشد أنواع العذاب، فكانوا يحرقون أحياء بالمئات ، وآخر يهودى أحرق فى أسبانيا كان سنة ١٨٢٥م(٢) .

أما عن تعامل المسلمين مع النصارى فقد بلغ قمة التسامح ، حتى إن المسلمين سمحوا لأساقفة النصارى أن يعقدوا مؤتمراتهم الدينية ، كمؤتمر قرطبة الذى عقد سنة ٨٥٢م(٣) ، ومؤتمر إشبيلية ٨٧٢م . وتعد كنائس النصارى الكثيرة ، التى بنوها أيام الحكم الإسلامى خير دليل على احترام المسلمين لمعتقدات الأمم ، التى خضعت لسلطانهم(٤) .

ولقد نال بقايا المسلمين بالأندلس أقسى أنواع العذاب ، وبدأت محاكم التفتيش تمارس نشاطها الإرهابى على أوسع نطاق ، وتم تنصير المورسكيين (المسلمين المُنصرَّين) جبريًا ، وتغيير أسماءهم الإسلامية قصرًا ، ولم يسمح لهم بالدفاع عن عقيدتهم ، وسنلقى الضوء على الحالة الجدلية بالأندلس بعد خروج المسلمين عندما

---

(١) فى الفكر اليهودى : عنى بجمعة الدكتور ج – هـ – هرتس نقله إلى العربية ألفريد يلوز مقال لـ د و هـ ليكى سنة ١٨٦٥م ص ٢١٥ ، ٢١٦

(٢) كيف نفهم اليهود : د. حسين مؤنس ص٣٩

(٣) حضارة العرب : جوستاف لوبون تعريب د. عادل زعيتر الفصل السادس ص ٢٧٦، أندلسيات د. عبد الرحمن على الحجى دار الإرشاد ط١ سنة ١٣٨٨ـ سنة ١٩٦٩ م ص ١٥٩ : ١٦٠

(٤) حضارة العرب : جوستاف لوبون ص ٢٧٧

نتحدث عن تاريخ الجدل الدينى فى الأندلس ، وقد اعترف جوستاف لوبون بفظائع محاكم التفتيش : إذ يقول : « إنها أخذت تأمر بإحراق كثير من المحمديين على أنهم من النصارى ، ولم تتم عملية التطهير بالنار إلا تدريجيًا ؛ لتعذر إحراق الملايين من العرب دفعة واحدة ، ونصح كاردينال طليطلة التقى ، الذى كان رئيسًا لمحاكم التفتيش ، بقطع رءوس جميع من لم يتنصر من العرب رجالاً ونساءً ، وشيوخًا، وولدانًا ، ولم ير الراهب الدومينيكى (بليدا) الكفاية فى ذلك فأشار بضرب رقاب من تنصر من العرب ، فمن المستحب إذن قتل جميع العرب بحد السيف ؛ لكى يحكم الرب بينهم فى الحياة الأخرى ، ويدخل النار من لم يك صادق النصرانية منهم ولم تر الحكومة الإسبانية أن تعمل بما أشار به هذا الدومينيكى ، الذى أيده الإكليروس فى رأيه ، لما قد يبديه الضحايا من مقاومة ، وإنما أمرت فى سنة ١٦١٠م بإجلاء العرب من إسبانيا فقتل أكثر مهاجرى العرب فى الطريق، وأبدى ذلك الراهب البارع (بليدا) ارتياحه لقتل ثلاثة أرباع هؤلاء المهاجرين فى أثناء رحلتهم[١] ... » .

وأولى القساوسة اهتمامًا خاصًا بحمل من أسلم من النصارى؛ ليرتد عن دينه، حتى من ولد مسلمًا ، فإنهم كانوا يقولون له : « إن جدك كان نصرانيًا فأسلم»[٢] ، ويجبرونه على التنصير ، أما من تظاهر من المسلمين بالنصرانية وعبد الله فى الخفاء، فإن النصارى شددوا فى البحث عنهم ، وأحرقوا منهم كثيرًا(٣) .

١٣- الإحاطة بالجدل الدينى فى الأندلس يكشف عن بعض مظاهر الاحتكاك الثقافى، والتفاعل الحضارى ، الذى كان يربط الأندلس بالدول الغربية عن طريق الوفود المتبادلة، وكذلك الرسائل المتبادلة، كما حدث فى الرسالة التى

(١) حضارة العرب : جوستاف لوبون ص ٢٧٠

(٢) نفح الطيب للمقرى ج٢ ص٦١٦

(٣) المصدر السابق نفس الصفحة

بعث بها راهب فرنسى إلى المقتدر بالله[1] (ت ٤٧٤هـ) حاكم سرقسطة[2] يدعوه للنصرانية، وجواب القاضى أبى الوليد الباجى[3] (ت ٤٧٤هـ) عليها.

١٤- وتساعد دراسة هذا الجدل فى التعرف على طبيعة المشكلات العقدية، التى كانت مثارة بالأندلس بين المسلمين وأهل الكتاب، ومقارنتها بما كان مثاراً فى المشرق ، ومن ثم التعرف على كيفية معالجة علماء المسلمين فى كافة أنحاء العالم الإسلامى لمثل هذه المشكلات ، وتلك القضايا .

١٥- كما أن دراسة الجدل الإسلامى لليهود والنصارى فى الأندلس يكشف عن الأثر الحضارى ، الذى تركه الأندلسيون فى المشرق ، ومدى إفادة علماء المشرق من جهود الأندلسيين فى هذا المجال ، وهو ما سنوضحه فى الفصل الأخير من هذا البحث .

١٦- والاطلاع على المناقشات الجدلية فى مجال العقائد يعطى فكرة عن حركة التنصير بالأندلس ، فعلى سبيل المثال بعد سقوط طليطلة فى أيدى النصارى (٤٧٨هـ) مارس القساوسة التنصير على نطاق واسع ، وأثاروا الشبهات حول العقائد الإسلامية ، حتى إنه فى القرن السادس الهجرى، وعندما وقع أحمد بن عبد الصمد الخزرجى أسيراً (٥٤٠هـ) فى أيدى النصارى، واقتيد إلى طليطلة نجده قد اكتوى بنار التنصير، الذى مارسه أحبار النصارى ضد المسلمين .

---

(١) أبو جعفر أحمد بن سليمان بن محمد بن هود الجزامى الملقب بالمقتدر بالله (ت ٤٧٤هـ) حكم لمدة ٣٥ سنة ثم قسم مملكته بين ولديه المؤتمن والمنذر فوقعت حروب بينهما استعانا فيها بالنصارى

(٢) مملكة سرقسطة من أعظم ممالك النصارى التسعة ؛ وعرفت بولاية الثغر الأعلى وعاصمتها مدينة سرقسطة

(٣) أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعيد بن أيوب بن وارث التجيبى المالكى الأندلسى الباجى من أبرز علماء الأندلس رحل إلى المشرق طالباً للعلم ، وأقام بمكة وبغداد، ومصر ثم عاد للأندلس وقامت بينه وبين ابن حزم مناظرات شهيرة ، وألف كتباً عديدة مثل السراج فى علم الحجاج ، والتسديد إلى معرفة التوحيد

١٧- كما أن دراسة مؤلفات المسلمين الجدلية لأهل الكتاب تكشف عن الخدع والحيل، التى لجأ إليها النصارى لتأييد عقائدهم عندما فقدوا الحجة العقلية السليمة، فعمدوا إلى الزيف ، والأكاذيب، والحيل لتأييد هذه العقائد .

ومن ذلك تتضح لنا أهمية دراسة الجدل الدينى، الذى حدث بين علماء المسلمين وأهل الكتاب عامة وفى الأندلس بشكل خاص ومن الأهمية بمكان تتبع هذا الجدل تاريخيًا لمعرفة مظاهره وعوامل قيامه .

ثانيا : رؤية تاريخية لحركة الجدل الإسلامى لأهل الكتاب بالأندلس :

مع بداية الفتح الإسلامى لبلاد الأندلس كانت الدولة مهتمة بتوطيد أركان الحكم، واستتباب الأمن الداخلى، وطبيعى فى مثل هذه الفترات التاريخية يخفت صوت الجدل الدينى، ويمكن أن يضاف لذلك عامل اللغة؛ حيث لم تكن اللغة العربية قد انتشرت بالقدر الكافى بين سكان البلاد الأصليين .

وحتى عندما بدأت اللغة العربية تنتشر بالأندلس فإننا نجد أن الثقافة الإسلامية قد بهرت المستعربين - سكان البلاد الذين تعلموا العربية - وجمال اللغة قد أخذ بألبابهم ، فعكفوا على الأدب العربى قراءة، ودراسة، ومقابل ذلك فقدت اللغة اللاتينية مكانتها، حتى صار من الضرورى أن تترجم قوانين الكنيسة الإسبانية القديمة، والإنجيل إلى العربية(١) .

وأخذ الإسبان ينهلون من كتب المسلمين عقيدة وشريعة بلا حرج ، ولعل شكوى

---

(١) أثر العامل الدينى فى توجيه الحركة الصليبية : محمد صالح منصور - رسالة دكتوراه كلية الآداب - جامعة القاهرة - قسم التاريخ سنة ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م - ص ٦١

وقد نقل التوراة من اللاتينية إلى العربية رئيس أساقفة إشبيلية (٧٢٤م) ونقل الأب فيسنتى ثمانية أجزاء من قوانين الكنيسة ، وأهداها إلى الأسقف عبد الملك فى أبيات شعرية ، ونقل إسحاق فلانسكيز إنجيل لوقا ٩٤٦ - المستشرقون : نجيب العقيقى - دار المعارف ١٩٦٤ م ج١ ص ٩٩

ألفارو ALVARO[1] أسقف قرطبة خير معبر عن مدى إقبال الإسبان على الثقافة الإسلامية؛ إذ يقول : « إن إخوانى المسيحين يدرسون كتب فقهاء المسلمين ، وفلاسفتهم ، لا لتفنيدها بل لتعلم أسلوب عربى بليغ . وأسفاه إننى لا أجد اليوم علمانيًا يقبل على قراءة الكتب الدينية ، أو الإنجيل ، بل إن الشباب المسيحى الذى يمتازون بمواهبهم الفائقة أصبحوا لا يعرفون علمًا ، ولا أدبًا ، ولا لغة إلا العربية. ذلك أنهم يقبلون على كتب العرب فى نهم ، وشغف ، ويجمعون منها مكتبات ضخمة تكلفهم الأموال الطائلة ، فى الوقت الذى يحتقرون فيه الكتب المسيحية ، وينبذونها[2] » . وتباكى هذا الأسقف على الشباب النصرانى الذى إذا سئل عن الكتب النصرانية أجاب باحتقار أنها غير جديرة أن يصرفوا إليها انتباههم[3] .

وتحسر قائلاً : « ياللألم لقد أنسى النصارى حتى لغتهم ، فلا تكاد تجد بين الألف منهم واحداً يستطيع أن يكتب إلى صاحب له كتابًا سليمًا من الخطأ ، فأما عن الكتابة فى لغة العرب فإنك واجد فيهم عدداً عظيمًا يجيدونها فى أسلوب منمق، بل هم ينظمون من الشعر العربى ما يفوق شعر العرب أنفسهم فنًا وجمالاً »[4] .

ويمكننا التعرف على تاريخ الجدل الدينى بالأندلس من خلال تعرفنا على ماظهر هذا الجدل : .

---

(١) كاتب نصرانى متعصب عاش فى القرن التاسع الميلادى ، وغضب لإدانة القساوسة لحركة سب النصارى الإسلام

(٢) أثر العامل الدينى فى توجيه الحركة الصليبية : محمد صالح منصور ص ٦٢

(٣) التحول اللغوى فى الأندلس عوامل الإنتشار والانحسار : محمد أحمد عمايرة مقال بمجلة الدراسات الإسلامية – مجمع البحوث الإسلامية – الجامعة الإسلامية العالمية – إسلام أباد باكستان– المجلد السادس والعشرون – العددان الأول والثانى سنة ١٤١٢هـ / ١٩٩١م ص٢١٣ ، ٢١٤

(٤) التحول اللغوى فى الأندلس : د. محمد أحمد عمايرة – مجلة الدراسات الإسلامية ص٢١٤

١ - جدل اليهود ، والنصارى ضد الإسلام :

تمتد الجذور التاريخية للخلافات الجدلية بين التوحيد والتثليث فى شبه الجزيرة الإيبيرية لما قبل دخول الإسلام ؛ حيث رفض الأريوسيون[١] قرارات مجمع نيقيا (٣٢٥م) القائلة بألوهية المسيح ولم يروا فى المسيح أكثر من أنه بشر ورسول[٢] ، حتى أنه بعد دخول الإسلام الجزيرة كان من الممكن أن يحدث خلط بين الإسلام والأريوسية لدى سكان الجزيرة ، ولعل هذا يفسر سكوت المجادلين النصارى عن الإسلام إلى قرابة منتصف القرن التاسع الميلادى (الثالث الهجرى)[٣] فبعض وثائق هذه الحقبة التاريخية تهدف إلى نشر الأريوسية ، أما أغلبها فهى أرثوذكسية تهدف إلى نقض المعتقد الأريوسى ، ومع ذلك فإننا لا نجد فى أىٍّ من هذه الوثائق إشارة إلى الإسلام[٤] . وفيما بعد عام ٨٥٠م أخذ نصارى الأندلس يطلقون على مواطنيهم من الأريوسيين فى أوساطهم الخاصة وباحتقار لفظة (مسلمون)[٥] .

وعندما تعرف أهل الكتاب على العقيدة الإسلامية ، ووجدوها تتفق مع العقل ، والمنطق فإن كثيراً منهم - خاصة النصارى - دخلوا فى دين الله أفواجًا ، وقد اهتم المسلمون منذ بداية الفتح الإسلامى للأندلس بنشر الإسلام ، والتعريف به ، فكان

---

(١) الأريوسية نسبة إلى آريوس الذى رأى أن المسيح ليس إلا بشرًا رسولاً ورفض قرارات مجمع نيقيا .

(٢) الإسلام فى الغرب (قرطبة عاصمة الروح والفكر) : روجيه - رجاء الله - جاروى - ترجمة د. محمد مهدى الصدر - دار الهادى بيروت ط١ - ١٤١١هـ/ ١٩٩١م - ص١٧ ، ١٨ ، ٢٧

(٣) يقول روجيه جارودى فى كتابه الإسلام فى الغرب ص ٢٩: « وفى القرن التاسع ماحك اسبيرانديو، وجادل طويلاً ولا سيما ضد الآريوسية ، ولكنه لم يورد أية إشارة إلى الإسلام خلال نقده لأولئك الذين كان فى معرض الرد عليهم يدافع عن سلامة المعتقد المسيحى، وفى ٨٣٩م وقع جان مطران إشبيلية مراسيم مجمع قرطبة ضد أعداء الكنيسة ، ولم يتضمن هذا المجمع أية إشارة إلى الإسلام، بينما كان الأكثر شهرة من بين هؤلاء الروحانيين وهو سان أولوج الذى كان مطران توليدو يجهل وجود الإسلام حتى رحلته إلى نافار (٨٤٨: ٨٥٠م) » .

(٤) العرب لم يغزوا الأندلس (رؤية تاريخية مختلفة) : إسماعيل الأمين - رياض الريس للكتب والنشر- ط١ فبراير ١٩٩١م . وهذا الكتاب ليس إلا ترجمة وتلخيص لكتاب إسبانى صدر فى برشلونة ١٩٧٤م بعنوان (الثورة الإسلامية فى الغرب) تأليف أغناسيو أولاغى ص ٢١٤

(٥) المرجع السابق ص ٢١٤

فى جيش موسى بن نصير الذى فتح الأندلس دعاة ووعاظ عملوا على نشر الإسلام[1] .

وقد أتت هذه الجهود ثمارها حتى إنه عندما هم الخليفة العادل - عمر بن عبد العزيز حين ولى الخلافة (١٠١هـ) بإجلاء المسلمين عن الأندلس ظنًا منه بقلة عددهم جاءه الرد بأن المسلمين أصبحوا أكثرية وانتشروا فى البلاد[2] .

وتتابعت جهود المسلمين فى مجال الدعوة إلى الإسلام ، فكان عقبة بن الحجاج السلولى ، الذى ولى الأندلس (١٢٣هـ) إذا أسر الأسير فإنه يعرض عليه الإسلام ، ويبين فضله وفى المقابل يبصره بعيوب دينه الذى هو عليه ، فيُذْكَر أنه أسلم على يديه ألفا رجل[3] .

وقد أثارت موجة الاهتداء إلى الإسلام الحمية لدى الأسر النصرانية المتعصبة فما رسوا نوعًا من الإرهاب ضد المسلمين الجدد ، حتى الصبية ، الذين اهتدوا بنور الفطرة إلى الإسلام لم يسلموا من ملاحقة ذويهم ، ويبدو أن المسلمين لم يحتضنوا مثل هؤلاء الصبية مثل هؤلاء الصبية بالقدر الكافى ، فوقعوا فريسة لضغوط آبائهم ، حتى سجل لنا التاريخ حالات ارتداد لمثل هؤلاء الصبية ، فنجد صبيًا لم يبلغ الحلم أعلن إسلامه ، واحتضنه رجل مسلم إلا أن أبوى الصبى أخذا يترددان عليه ، ويغويانه ليرتد عن الإسلام . ورغم إباء الصبى إلا أنه أمام إلحاح الوالدين، استسلم الابن لهما ، فاغتنم والده الفرصة وذهب إلى القاضى ؛ ليعلمه أن ولده الذى أسلم

(١) رواد الثقافة الدينية الأولى بالأندلس - د. محمود على مكى - مقال بمجلة البينة - العدد السادس - السنة الأولى جمادى الأولى - ١٣٨٢هـ / أكتوبر ١٩٦٢م ص٥٣

(٢) رواد الثقافة الدينية : د. محمود على مكى ص ٤٨

(٣) قضاة قرطبة - وعلماء إفريقية : الخشنى أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد الخشنى القيروانى الأندلسى (ت ٣٦١هـ) نشر وتصحيح السيد عزت العطار مكتبة المثنى ببغداد - مكتبة الخانجى بالقاهرة - ذو الحجة ١٣٧٢ ص ٢١

يرغب فى الارتداد عن الإسلام ، فكتب القاضى يستفتى ابن لبابة[1] (توفى ٣٣٠هـ أو ٣٣١هـ) فى أمر الصبى : « أتانى رحمكم الله صبى لم يبلغ فأسلم ، وصار عند رجل ضمه – ابتغاء ثواب الله عز وجل فيه – فتردد عليه أبواه يريدان رده إلى دينهما، والغلام يأبى فلما كان البارحة أتانى والده فأعلمنى أن ولده يريد الرجوع إلى والديه، ودينهما ، فاكتبوا إلى بما يجب فى ذلك» [2] .

وأفتى ابن لبابة أن الغلام إذا كان قد عقل كأن يكون ابن عشر سنين أو يزيد فإنه يُشْتد عليه، ويتوعد، فإن صمم على الرجوع إلى النصرانية يرد إلى أبويه[3].

وكذلك أسلم غلام نصرانى على يد القاضى، ثم لم يلبث أن حضر إلى القاضى نفسه معلنًا أنه قد بدا له ما يدعوه إلى الردة عن الإسلام، والعودة إلى النصرانية، فامتحن القاضى الغلام، وحين وجده مصراً على رأيه، كتب فى أمره إلى عبيد الله ابن يحى[4]:

"حفظك الله وأبقاك : أتانى رضى الله عنك غلام من النصارى يريد الإسلام، فأسلم على يدى، وكتب إسلامه، وأشهدت عليه، فلما كان بعد أيام، أتانى فذكر أنه

(١) أبو عبد الله محمد بن يحيى بن عمر بن لبابة فقيه مالكى أندلسى رحل فسمع بالقيروان ، وولى قضاء البيرة ، والشورى بقرطبة ، ومن تصانيفه : المنتخب ، وكتاب فى الوثائق – قال ابن حزم عن المنتخب: «ما رأيت لمالكى كتابًا أنبل منه فى جمع روايات المذهب ، وتأليفها ، وشرح مستغلقها ، وتفريغ وجوهها » . جذوة المقتبس فى تاريخ علماء الأندلس – شخصية رقم ١٦٣ ص ١٥٩ .
وقد ذكر الحميدى ونقل عنه الضبى فى بغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس أنه مات بالإسكندرية ٣٣٠هـ أو قبل ٣٣١هـ

(٢) وثائق فى قضاء أحكام أهل الذمة فى الأندلس مستخرجة من مخطوط الأحكام الكبرى للقاضى أبى الأصبغ عيسى بن سهل الأندلسى دراسة وتحقيق د. محمد عبد الوهاب خلاف المركز العربى للدول والإعلام ص ٤٦ دون تاريخ .

(٣) وثائق فى قضاء أحكام أهل الذمة :د. محمد عبد الوهاب خلاف ص٤٦، ٤٧ .

(٤) عبيد الله بن يحى بن يحى بن كثير الليثى يكنى أبا مروان رئيس فقهاء المالكية فى الأندلس، وشيخ المفتين فى قرطبة، ووالده الفقيه يحى بن يحى تلميذ الإمام مالك كان رجلا عاقلاً عظيم المال والجاه، وكان آخر من حدث عن والده، وتوفى عبيد الله ٢٩٧هـ .

بدا له عن الإسلام، فامتحنته، فوجدته مصراً على ما قال فانظر إليه، وإلى كتاب إسلامه، وتكتب إلى برأيك فيه إن شاء الله عز وجل[1]".

وتاريخياً نجد أن موجات الاهتداء إلى الإسلام تولد لدى أحبار اليهود وقساوسة النصارى الرغبة فى الدفاع عن عقائدهم، فيبدأوا الجدل العقلى، أو الحرب العقلية[2] إن صح هذا التعبير.

ويبدو أنه أمام تسامح المسلمين، والتزامهم الجدل بالحسنى تجاوز أهل الكتاب الحد فتطاولوا على الإسلام، وظهر جدل يهدف إلى سب الإسلام عقيدة وشريعة لدرجة أنه أقبلت امرأة نصرانية على مجلس القاضى أحمد بن محمد[3] قاضى قرطبة، وزعمت أن عيسى – عليه السلام – هو الله تعالى، وأنكرت ألوهية الله عز وجل وقالت أيضاً "كذب محمد فيما ادعى من نبوته[4]" وتم الحكم على هذه المرأة بالقتل لا لأنها أنكرت نبوة الرسول عليه الصلاة والسلام ولكن لتفوهها بلفظ الكذب عليه ﷺ.

وقد كان التعرض للإسلام، والنبى ﷺ بالتجريح والافتراء هدفاً نصرانياً لدى المتعصبين منهم فى الأندلس، فذهب راهب يدعى إسحاق إلى قاضى المسلمين مدعياً أنه يريد التعرف على أصول الإسلام، فلما شرح له القاضى مبادئ الإسلام بادره الراهب بعنف، وشدة قائلاً عن النبى عليه الصلاة والسلام: "لقد كذب عليكم – لعنه الله – ذلك الشرير الذى ملأ الخبث قلبه، وقاد كثيراً من الناس إلى التهلكة، وقضى عليهم بالتردى فى نار جهنم يوم الدين، وقدَّم إليكم كأساً من النبيذ البارد؛ ليدخل المرض إلى نفوسكم بهذه الشعوذة الشيطانية، التى احترفها فملكت عليه مشاعره، وسوف يكفر عن خطيئته بما يحل به من اللعنة الأبدية، ولم لا تخلصون نفوسكم من

(١) وثائق فى أحكام قضاء أهل الذمة : د. محمد عبد الوهاب خلاف ص٤٣

(٢) الفكر اليهودى وتأثره بالفلسفة الإسلامية تأليف على سامى النشار وعباس أحمد الشربينى منشأة منشأة المعارف بالإسكندرية صنة ١٩٧٢ ص١٥

(٣) أحمد بن محمد بن زياد ولى قضاء الجماعة مرتين فيما بين سنتى ٢٩١ ، ٣٠٠ هـ

(٤) وثائق وأحكام قضاء أهل الذمة :د. محمد خلاف ص٧٠، ٧١

أمثال هذه المخاطر بفضل ما من الله من مزيه الفهم، والإدراك؟ ولماذا لا تتلمسون النجاة الأبدية برفض هذه الوصمة التى تشوب عقائدكم بالرجوع إلى انجيل المسيح[١]؟".

وفى مناسبة أخرى اقتحم نصرانيان أحد المساجد، وأخذ يغضان من شأن الإسلام، وأعلنا على ملأ من الحاضرين أن هذا الدين - الإسلام - سيعود على أنصاره عما قليل بالتهلكة، ونار الجحيم[٢].

وأمام حركة الاستخفاف هذه من قبل الموتورين من نصارى الأندلس وقف حكام المسلمين إزاءهم بحزم، وطبقت شريعة الإسلام ضدهم بصرامة، وأدرك المعتدلون من النصارى سماحة الإسلام، حتى أن أغلبية القساوسة فى الأندلس أدانوا هذا التطاول، وحكموا على أصحاب هذه الحركة الخطيئة و"... أيدت طائفة الكنيسة، التى عرفت بالاعتدال الحكومة فيما بذلت من جهود فى هذا السبيل، ولعن الأساقفة هؤلاء المتعصبين، وحرموهم حقوق الكنيسة، وعقد فى سنة ٨٥٣م مجمع دينى، لبحث وسائل القمع، التى اتفق عليها الفريقان وانتهت بالقضاء على هذه الحركة[٣]".

ومع استمرار الوجود الإسلامى بالأندلس بدأت تظهر مؤلفات جدلية لنقد الإسلام من قبل اليهود والنصارى، فقرب نهاية النصف الأول من القرن التاسع كتب مؤلف مجهول سيرة مختلقة للنبى ﷺ ادعى فيها أن النبى أخبر أصحابه أنه سيقوم حيًا بعد موته بثلاثة أيام[٤]، وانتشرت الرواية لدى مثقفى عصره[٥]، والعجيب أن مثل هذه الأكاذيب قد لاقت استمرارية خلال تاريخ الإسلام بالأندلس رغم ظهور تناقضها، وأصبحت مصدرًا للمجادلين النصارى فيما بعد، وسنشير في الفصل الخامس إلى زعم أحد القساوسة بأن النبى ﷺ ادعى أنه لن يموت .

(١) الدعوة إلى الإسلام : توماس أرنولد ترجمة د. حسن إبراهيم حسن - د. عبد المجيد النحراوى -د. إسماعيل النحراى مكتبة النهضة المصرية ط٢ ص١٢٢ دون تاريخ.

(٢) المرجع السابق ص١٢٢

(٣) المرجع السابق ص١٢٦

(٤) واضح أن القصة متأثرة بعقيدة النصارى فى المسيح والتى تعرف بالقيامة

(٥) العرب لم يغزوا الأندلس ص٢٦٩، ٢٧٠

وكتب إيلوج (٨٥١م) مؤلفه (ذكرى الشهداء) لمقاومة الدعوة إلى معتقد يجهل مبادئه[١]. وكتب ألفارو ALVARO سنة (٨٥٤م) كتاباً لدحض (المحمدية) ظهر منه غموض أفكاره حول الإسلام وعدم فهمه لدعاء الصلاة عند المسلمين فوصف نداء المؤذنين (الله أكبر) بأنهم يزعقون ويعوون مثل المجانين[٢].

ومن الجانب اليهودى يقابلنا إسماعيل بن النغريلة فى القرن الخامس الهجرى يؤلف فى نقد القرآن الكريم، وكتب يهودا اللاوى[٣] كتاب الخزرى أو "الحجة والدليل فى نصرة الدين الذليل" بالعربية اليهودية "الكلمات عربية والحروف عبرية[٤]" وناقش فى هذا الكتاب:

* آراء الفلاسفة.
* آراء أهل الأديان فى الطعن على اليهودية.
* آراء الخوارج أو القرائين [٥].

---

(١) العرب لم يغزوا الأندلس ص٣٠٤

(٢) المرجع السابق ص٢٥٤

(٣) ولد يهودا اللاوى أو أبو الحسن اللاوى، كما عرفه العرب بطليطلة، وتربى تربية عربية عبرية على عادة أبناء العائلات اليهودية الموسرة، وتوجه فى شبابه إلى غرناطة ثم قرطبة، حيث تفتقت قريحته الشعرية، وجاب اللاوى فى المدن النصرانية بإسبانيا ثم عاد إلى الأندلس، ثم توجه إلى الشرق؛ حيث حل بالإسكندرية ١١٤٠م، ثم رحل إلى فلسطين حلم حياته فمات بها.

(٤) تتعدد التفسيرات حول استخدام يهود الأنلس لهذه الطريقة فى الكتابة؟ مثل أن اليهود أرادوا أن يخفوا كتاباتهم عن العرب، وفى الوقت نفسه أرادوا أن يعرفوا ذويهم ممن لا يجيدون العبرية بمحتوى كتبهم فلجأوا إلى كتابة مؤلفاتهم بكلمات عربية، ولكن بحروف عربية.

(٥) الفكر اليهودى الأندلسى بين الخصوصية الدينية وشمولية المعرفة: أحمد شحلان كلية آداب الرباط مقالة "ب" حضارة الأندلس فى الزمان والمكان - أعمال الندوة الدولية ١٦ - ١٨ إبريل ١٩٩٢ م ص ٨٤ جامعة الحسن الثانى كلية الآداب والعلوم الإنسانية المحمدية - المغرب

ونظرًا لأن حياة اللاوى غلب عليها الترحال، فلا ندرى فى أى مكان ألف هذا الكتاب، الذى تتلخص فكرته فى قصة خيالية نجد فيها أن ملك الخزر أراد التعرف على الإسلام، والنصرانية؛ بينما أهمل اليهودية؛ لذلة أتباعها، واعترض الملك على صحة الإسلام؛ لأن معجزته القرآن الكريم كتبت بالعربية، ولا يستطيع غير العارف بالعربية أن يفرق بين القرآن، وغيره من كلام العرب؛ لإثبات معجزته[١]، كما أن اقتتال المسلمين والنصارى دليل على فساد أعمالها[٢] ويهدف الكتاب فى النهاية إلى الانتصار لليهودية.

وحين أخذت المدن الإسلامية تتساقط بالأندلس الواحدة تلو الأخرى نشطت حركة التنصير وبدأت الدراسات العربية تنشط بين الإسبان لأغراض عقائدية محضة[٣]، حتى إن "بعض المتأخرين، الذين برروا أخذ نصارى الغرب عن مسلمى الأندلس باستعادة ما أخذه المسلمون من الثقافة اليونانية، والهلينستية عن طريق نصارى الشرق؛ ولتخريج أهل جدل يقارعون فقهاء المسلمين واليهود، ويردون عليهم ببراهين كتبهم أنفسهم فى البلاد التى أجلاهم الإسلام عنها[٤]".

ومن مشاهير فرنسا الذين قصدوا الأندلس فى القرن السادس الهجرى بطرس المكرم[٥]، فاستزاد من علوم المسلمين، وحين رجع إلى ديره فى كلونى CLUNY

(١) الفكر اليهودى الأندلسى بين الخصوصية الدينية وشمولية المعرفة ص٨٦

(٢) المرجع السابق ص٨٥

(٣) الصورة الغربية والدراسات الغربية للإسلام: مكسيم رودنسون – ترجمة محمد زهير السمهورى – سلسلة عالم المعرفة – تراث الإسلام – شعبان/رمضان سنة ١٣٩٨هـ سنة ١٩٧٨م ص٦١

(٤) المستشرقون : نجيب العيقيقى دار المعارف سنة ١٩٦٤ ج١ ص١١٤

(٥) بطرس المكرم (١٠٩٤ – ١١٥٦م) فرنسى من الرهبانية البندكتية عين لسعة اطلاعة رئيسًا على ديرها فى كلونى ١١٢٣م، الذى شيد بفرنسا ٩١٠م، وانطلقت منه حركة إصلاح عمت النصرانية الأوربية، وجعل منه الرهبان الأندلسيين، الذين آووا إليه مركزًا خطيرًا؛ لنشر الثقافة الإسلامية فى القرن الثانى عشر الميلادى.

أخذ يصنف الكتب فى الرد على علماء الجدل المسلمين، وشجب اليهود[١]، وكتب توماس الأكوينى THOMAS AWUIN[٢] دراسة ضخمة بعنوان "خلاصة ضد الأعاجم" بناء على طلب سان ريمون دى بينافور، وهو من المتحمسين؛ لنشر النصرانية بين المسلمين؛ وليكون هذا الكتاب عونًا للبعثات التنصيرية بالأندلس[٣]؛ حيث تعتبر مؤلفات الأكوينى فى الرد على الأمم الخارجين على النصرانية من الكتابات المهمة، التى درسها الرهبان المرسلين للأندلس[٤].

وطاف رايموندلول R.LULL[٥] كثيرًا من البلاد الإسلامية بما فيها الأندلس؛ ليزحزح المسلمين عن عقيدتهم، ويدخلهم النصرانية، ولتسهيل مهمته بين المسلمين أجاد العربية وألف كتب جدل للرد على المسلمين واليهود، ومن مؤلفاته التنصيرية كتاب الزنديق صاغه على هيئة روائية تجمع بين يهودى ونصرانى ومسلم[٦].

---

(١) المستشرقون : نجيب العقيقى ج١ ص ١٢٢، ١٢٣

(٢) ولد توماس الأكوينى ١٢٢٥م، والتحق خادمًا بالكنيسة سنة ١٢٣٠م فى ديرمونت كاسينو، ثم التحق بجامعة لابولى، التى أسسها فردريك الثانى فى كلية الفنون، ودرس فى كلية اللاهوت بباريس ١٢٤٥م، ثم درس بمدرسة اللاهوت بكولونيا ١٢٤٨ - ١٢٥٢م ثم عاد إلى باريس لإعداد الأستاذية فى اللاهوت التى حصل عليها ١٢٥٦م ثم أخذ يتنقل بين روما وباريس ونابولى مات ١٢٧٤م.

(٣) سلسلة علم المعرفة تراث الإسلام ص٤١

(٤) تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط: يوسف كرم - دار الكتاب المصرى ط١ سنة ١٩٤٦م ص١٧٠.

(٥) رايموند لول R.LULL إسبانى الأصل ولد فى جزيرة ميورقة عاش فى القرن الثالث عشر(١٢٣٥م:١٣٤١م) وطاف المغرب والمشرق منصرًا وألف العديد من الكتب وكان هدفه الذى ناضل من أجله توحيد شعوب العالم تحت النصرانية، وكان على معرفة بصوفية المسلمين خاصة ابن عربى وأنشأ معاهد لتعليم اللغة العربية بمساعدة جيمس الثانى ملك ميورقة فشيدت كلية الفرنسيسكان لإعداد الملتحقين بالعمل التنصيرى، وكان ذلك سنة ١٢٧٦م/٦٧٥هـ وبعد ذلك أنشئت مدارس لنفس الغرض، وقتل "لول" بشمال إفريقيا سنة ١٣١٤م.

(٦) رايموند لول R.LULL الفلسفة الإسلامية جمال محمد (المؤتمر الثالث للحضارة الأندلسية ١١:١٤ يناير ١٩٩٢ ص٣٠٦) مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة عدد ٥٣ مارس ١٩٩٢م.

ومما يفترى به لول على الإسلام فى هذا الكتاب أن المسلم قبل أن يعرض تعاليم دينه قام وتوضأ علامة على تطهير القلب من الخطيئة الموروثة، ويذكر أيضًا أن المسلم بعد أن صلى قبل الأرض، ويعلق الدكتور زقزوق[(١)] على ذلك بقوله: "... الإسلام يرفض ما يسمى بالخطيئة الموروثة، فالمسئولية فردية، والخطيئة لا تورث، كما أن الإسلام لا يعرف تقبيل الأرض، فكل ذلك ليس له وجود فى الإسلام اللهم إلا فى خيال الكاتب[(٢)]".

وصنف لول بالعربية مناظرات ريموندو المسيحى، وعمر العربى، وكان لول يلتقى بجماهير المسلمين فى البلاد التى يحل بها، ويعقد مناظرات دينية معهم مستغلاً سماحة المسلمين[(٣)]، ولكن جهوده التنصيرية التى استمرت أكثر من نصف قرن باءت بالفشل الزريع[(٤)]؛ لصدق العقيدة الإسلامية، وصحتها واتفاقها مع العقل، والمنطق، وعدم تناقض الشرائع الإسلامية وفى القرن الخامس عشر اعتبر نيكولا دى كو (١٤٠١/١٤٦٤م) فى كتابه نقد القرآن أن الإسلام هو هرطقه نصرانية[(٥)].

وأمام حركة نقد الإسلام من قبل يهود ونصارى الأندلس فإن المسلمين دافعوا عن دينهم، ولم تقف جهودهم عند مجرد الدفاع، بل توجهت للنقد أيضًا.

٢ - جدل المسلمين لليهودية، والنصرانية :

قام مسلمو الأندلس بجهود كبيرة فى التعرف على عقائد اليهود النصارى ودرسوا الديانتين اليهودية والنصرانية دراسة معمقة، ومن ثم فإننا نجدهم قد

(١) الدكتور محمود حمدى زقزوق أستاذ معاصر بجامعة الأزهر عمل عميداً لكلية أصول الدين بالقاهرة ثم نائبًا لرئيس جامعة الأزهر ثم وزيراً للأوقاف بمصر وهو رئيس الجمعية الفلسفية المصرية.

(٢) الإسلام فى تصور علماء الغرب :د. محمود حمدى زقزوق بحث مشتق من مجلة - كلية أصول الدين - جامعة الأزهر العدد الرابع سنة ١٩٧٧م ص١٥

(٣) أثر العامل الدينى فى توجيه الحركة الصليبية : محمد صالح منصور ص١٥١

(٤) المرجع السابق ص١٥٢

(٥) الإسلام فى الغرب : روجيه جارودى ص٢٩

وضعوا مؤلفات جدلية تعرضت لدراسة ونقد هاتين الديانتين، ونجد فى ثنايا مؤلفاتهم المختلفة نقد دينى، وحتى النثر الأدبى لدى الأندلسيين لم يخل من هذا البعد النقدى، وهو ما نبينه فيما يلى:

أ) نقد للنصرانية أثناء الرد على حركة الشعوبية بالأندلس :

يقابلنا نقد للعقيدة المسيحية أثناء رد العرب على حركة الشعوبية بالأندلس رغم أن هذه الحركة حرصت فى الأندلس على أن تنسجم مع العقيدة الإسلامية، وهى بذلك تختلف عن شعوبية المشرق؛ إذ نرى من ممثلى الشعوبية فى المشرق ملاحدة، وزنادقة[١] وليس أدل على ذلك من أن أشهر المناظرات الشعوبية لابن غرسية[٢]، كان يفتخر فيها بالإسلام والرسول عليه الصلاة والسلام - الذى خلصه من التثليث، وعبادة الصلبان[٣] ..".

ورغم أن ابن غرسية قد حرص على الافتخار بإسلامه، والإكثار من الصلاة على النبى، وصحابته[٤] فإننا نجد نقداً للنصرانية من بعض من تصدى للرد عليه كابن الدودين البلنسى[٥]، إذ يذكر أن النصارى لم ينقلوا دينهم "... عن حوارى، ولم

(١) موجز بحث جولد تسيهر "الشعوبية عند مسلمى إسبانيا" : تحقيق عبد السلام هارون - نوادر المخطوطات - المجموعة الثالثة - ط١ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة سنة ١٣٧٣هـ/١٩٥٣م ص٢٤٢

(٢) أبو عامر أحمد بن غرسية من أبناء نصارى البشكنس سبى صغيراً.

(٣) النثر الأندلسى فى عصر ملوك الطوائف ٣٩٩ : ٥٠٥هـ - ثريا عبد المنعم أحمد جودة رسالة دكتوراه كلية الدراسات الإسلامية والعربية جامعة الأزهر ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ص١٦٢

(٤) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام أبو الحسن على بن بسام الشنتريني (ت٥٤٢هـ) تحقيق د. إحسان عباس دار الثقافة بيروت المجلد الثانى القسم الثالث ط٢ ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ص٧١٣.

(٥) أبو جعفر أحمد بن الدودين البلنسى قال عنه ابن بسام فى الذخيرة قسم٣ ص٧٠٣ "هو أحد من لقيته وشافهته، أملى على نظمه ونثره بالأشبونه سنة سبع وسبعين" وحدد اللقاء بين ابن بسام وابن الدودين فى المغرب فى حلى المغرب ص٣٢٢ فى سنة ٤٧٧هـ" .

يزالوا يتعاورون أصلهم الإنجيل بالزيادة، والنقصان، إلى أن أصاروه فى حيز الهزيان، وحسبك بهم جهلاً أنهم يعتقدون إلهًا نبيهم، فسموه بالرب المعبود، وصيروه بعد مصلوب اليهود، فأعجب لجهل يجمع بين هذين الطرفين، وأعجب من ذلك أنهم مجمعون أن عيسى ينزل إلى الأرض لحساب الخلائق يوم العرض، فما ظنك يفعل اليهودية على ما قدموه على زعمهم من صلبه إذا ناقشهم الحساب؟

فهل يصح بهذه الآراء الضعيفة، والعقول السخيفة دين، أو يثبت لهم مع يقين؟ ولولا أنى أجلُّ قلمى، وأنزه كلمى عن سخافاتهم فى دياناتهم وبرسامهم[1] فى أحكامهم، لأدرت من ذلك ما لا يستجيز إلا مثال قومك العجم عقول البوم و الرّخم[2]"[3].

وممن تناول النصرانية - كذلك - بالنقد أبى الطيب عبد المنعم القروى (ت٤٩٣هـ) أثناء رده على ابن غرسية؛ إذ يقول : "أما أنتم معشر النصارى الخسارى فقد اتخذتم المسيح وأمه إلهين من دون الله، وقلتم بالمحال فى قضايا العقول والاستدلال".

قلتم : إله واحد، وابا ابناً وروح قدس، فهو إذن ابن نفسه، وأبو نفسه وروح روحه.

قلتم : امتزج اللاهوت بالناسوت فى بطن أمه امتزاج الخمر بالماء.

قلتم : تحولت الكلمة فى الرحم لحمًا ودمًا.

قلتم : كما يظهر الوجه فى الجسم الثقيل، والطابع فى الشيء البليل، وقال آخرون:

---

(١) برسامهم : جاءت من الفعل الرباعى برسم، وأصله الثلاثى برس، ويعنى اشتد على غريمه وبرسم أى أحدث فن البرسام، والبرسام التهاب فى الحاجب الذى بين الكبد والقلب. انظر المنجد فى اللغة ط٢٧ - بيروت دار المشرق ١٩٨٤م ص٣٤، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ط١ ص٤٨، لسان العرب لابن منظور، الدار المصرية للتأليف والترجمة ج٧ ص ٢٢٣

(٢) الرخم جمع رخمة وهو طائر يأكل العزرة ومن الخبائث. المصباح المنير لأحمد بن محمد بن على المقرى الفيومى (ت ٧٧٠هـ) ط٣ - ١٩١٢ - ج١ ص٢٤٣

(٣) الذخيرة لابن بسام م٢ قسم ٣ ص٧١٩ : ٧٢٠

بل كما يمتزج العقل بالنفس من غير مماسة، فكيف يتمازج ما لا يتماس؟ وكلكم مطبقون على أن المسيح ابن الله تعالى عما تقولون، وضللتم، وخسرتم[(١)]".

وبعد أن سخر أبو الطيب القروى من عقيدة التثليث النصرانية؛ إذ قال :

"ثم أقررتم طائعين، وأذعنتم خاضعين أن اليهود قتلته قتلاً، وصلبته صلبًا، فأين ما ادعيتم مما نعيتم، وأين ما استربتم مما اقترفتم، لا ترعوون، ولا تستحيون، ولا تبالون، ما خرجت بكل الحال إليه، ولا ما وقفكم الشفاء عليه، أربٌ معبود يقتل، ويصلب، ويقهر؟ فكيف لم يدافع عن نفسه – لقد ذلّ من بالت عليه الثعالب، وكيف لم يخسف بهم الأرض جميعًا، أو يرسل السماء عليهم كسفًا؟ بالأمس إله ترقبون جنته وناره، واليوم وصليبٌ لا تدركوا ثأره!!

وزعمت طائفة منكم أن اللاهوت فارق الناسوت عند ذلك، وخلّى بينه وبين اليهود، فهلا حماه منهم، أو نصره عليهم؟! هذه إشارة إلى تناقضكم، ولمحة دالة على تعارضكم، ولو أحصيناه، وتقصيناه لاتسع مجاله، وامتنع مقاله[(٢)]".

وإن كان هناك تعليق على هذه الردود فهى رغم وجاهتها فإنى لا أعرف الداعى الذى دفع المسلمين أن ينقدوا النصرانية فى ردهم على رجل يفتخر بإسلامه، وهدايته؟!

ب) مؤلفات جدلية إسلامية :

لا يفوتنا ونحن بصدد الحديث عن تاريخ الجدل الدينى فى الأندلس أن نشير إلى أهم المصنفات الجدلية فى هذا المجال، فيقابلنا ابتداء من القرن الخامس الهجرى مؤلفات جدلية ذات منهج متكامل فى النقد الدينى لعقائد اليهود، والنصارى دافع بها أصحابها عن الإسلام ونستعرض أهم علماء الأندلس الذين كتبوا فى هذا المجال:

---

(١) عبد المنعم بن من الله القروى كنيته أبو الطيب دخل الأندلس وحدث فى شرقيها عن ابن عبد البر الثقلى وكان أديبًا وشاعرًا (ت٤٩٢هـ).

(٢) الذخيرة لابن بسام م٢ – قسم ٣ – ص٤٧٢

ابن حزم الأندلسى (ت٤٥٦هـ) :

سبق أن ذكرنا مؤلفات ابن حزم فى هذا المجال ، ونظرًا لأن موضوع البحث يمثل ابن حزم أحد شخصيتيه، فسيتضح لنا جهوده الجدلية فى هذه الكتب فى الفصول التالية.

أبو الوليد الباجى (ت ٤٧٤هـ) :

بعث راهب فرنسى إلى المقتدر بالله[١] (ت٤٧٤هـ) حاكم سرقسطة[٢] مجموعة من الرسائل الجدلية يريد بها غوايته عن الإسلام؛ ليرتد إلى النصرانية؛ إذ كتب يقول: "لما انتهى إلينا - أيها الأمير العزيز - أمرك الرفيع فى الدنيا، وبصيرتك فى تبين أحوالها المتغيرة رأينا أن نراسلك؛ لتؤثر الملك الدائم على الملك الزائل الفانى[٣].

ولم يكتف الراهب بتلك الرسائل، وإنما بعث رسلاً من عنده؛ ليشرحوا عقائد النصرانية للمقتدر بالله (ت٤٧٤هـ) وأمام هذه المحاولات التنصيرية للمقتدر بالله (ت٤٧٤هـ) كتب أبو الوليد الباجى (ت٤٧٤هـ) ردًا على رسالة الراهب الفرنسى معنفًا إياه؛ لأن رسائله تحوى محالات العقول، التى لا تقنع عوام المسلمين[٤]".

ويبدو أن الباجى كان يؤثر ألا يرد على الراهب لما تحويه رسائله من كلام لا يقبله العقل، ولكن أمام إلحاح الراهب اضطر الباجى للرد عليه، فيقول : "ولما تكررت علينا

---

(١) أبو جعفر أحمد بن سليمان بن محمد بن هود الجزامى الملقب بالمقتدر بالله (ت٤٧٤هـ/١٠٨١م) ظل حاكمًا لسرقسطة خمسًا وثلاثين سنة، وقسم مملكته بين ولديه المؤتمن والمنذر فجرت بينهم وقائع وحروب.

(٢) سرقسطة من أعظم ممالك الطوائف مساحة وعرفت بولاية الثغر الأعلى وعاصمتها مدينة سرقسطة وتقع آخر حدود الأندلس من جهة الشمال، سقطت فى يد الروم ٥١٢هـ.

(٣) رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين وجواب القاضى أبى الوليد الباجى عليها د.محمد عبد الله الشرقاوى دار الصحوة للنشر ط١ ١٤٠٦هـ/١٩٨٦ م ص٤٩

(٤) المصدر السابق ص٦٤

رسائلك، ووسائلك تعينت علينا مفاوضتك فيما رضيناه من مسألتك، ومعرضتك فيما اخترناه من منهجك فى النصح الذى يجرى إليه الفضل، وأمرنا الله به على ألسنة الرسل، وكففنا عن معارضتك ما استقبحناه من خطابك، وسخطناه من كتابك، وسب الرسل الكرام والأنبياء المعظمين عليها السلام(١).

ورغم أن منهج الباجى فى رده كان يقوم على الاختصار فإن ردوده حملت دراسة لنفسية المجادلين النصارى من خلال محاولته الكشف عن أسباب تمسك راهب فرنسا بالنصرانية رغم مجافاتها للعقل؛ حيث أرجع ذلك لأمرين:

أولهما : لم يعرف الراهب غير النصرانية، فظن أن باقى الشرائع؛ مثل النصرانية تحتوى على المحالات، والفساد، فركن إلى دينه الذى نشأ عليه؛ لظنه أنه لا يوجد ما هو أفضل منه(٢).

والثانى : المكانة التى يتمتع بها الراهب بين النصارى دعته إلى ألا ينتقل إلى الدين الصحيح لعلمه أنه لن يصل إلى درجة أقل المسلمين منزلة فى العلم ، فكيف بدرجة أعلامهم ، وأئمتهم .

أحمد بن عبد الصمد الخزرجى (ت ٥٨٢ هـ) :

يمثل الخزرجى الشخصية الثانية من شخصيات هذا البحث ، وسنتعرف على جهوده فى مجال الجدل الدينى لأهل الكتاب فى الفصول التالية .

القرطبى :

ألف القرطبى كتاب « الإعلام بما فى دين النصارى من الفساد والأوهام ، وإظهار محاسن دين الإسلام ، وإثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام » .

(١) رسالة راهب فرنسا، ورد أبو الوليد الباجى ص٦٥

(٢) المصدر السابق ص٨٢

ويعتبر هذا الكتاب ذا أهمية كبرى فى مجال الجدل الدينى بالأندلس؛ لموسوعيته، وكبر حجمه نسبيًا ، وتناوله لكثير من موضوعات الخلاف العقدى بين الإسلام ، والنصرانية ، كما أن له أهمية تأريخية ؛ إذ يذكر المؤلف بعض الكتابات من الجانب النصرانى ، التى اطلع عليها ، ويعقب بالرد على بعض ما تحويه ، وإن كان لم يشأ أن يخبرنا القرطبى بأسماء أصحاب تلك المؤلفات إلا فى حالات استثنائية .

ومن أهم المؤلفات التى رد عليها القرطبى : كتاب المسائل - كتاب الحروف ، ورد أيضًا على القس القوطى الذى سبق أن رد عليه الخزرجى ، وتأثر به ، كما سنوضح فى الفصل الأخير من هذه الرسالة ورد على نصرانى يدعى حفص بن البر(١) .

ومن أهم القضايا التى عالجها القرطبى في كتاب الإعلام :

- إبطال مذاهب النصارى فى الأقاليم .
- إبطال مذاهب النصارى فى الاتحاد والحلول .
- إثبات تحريف التوراة والإنجيل .
- إثبات نبوة سيدنا محمد ﷺ .
- نقد الشعائر النصرانية كالاعتراف ، والصيام ، وترك الختان ... إلخ .
- إثبات محاسن دين الإسلام .

ويجدر أن نتساءل : من هو القرطبى مؤلف الإعلام ؟

يشير بروكلمان(٢) أن مؤلف كتاب « الإعلام بما فى دين النصارى من الفساد ،

---

(١) ورد ذكر حفص بن البر فى (تاريخ إفتتاح الأندلس لابن القوطية) وكان قاضيًا للعجم وينتسب إلى وقلة بن غيطشة آخر ملوك القوط بأندلس وذكر د. عباد كحيلة أن حفص بن البر قد صنف كتبًا فى العقائد استعان بها بعض النصارى فى محاجتهم المسلمين ونظم مزامير داود على بحر الرجز المشطور (مستفعلن - مستفعلن - مستفعلن) وكان حيًا ٣٢٩هـ/ ٣٤٠هـ أندلسيات د. عبادة كحيلة سنة ١٤١٠هـ ١٩٨٩م مكتبة مدبولى ط١ ص ٦٢ - ٦٣

(2) GAL. S P 732

والأوهام ، وإظهار محاسن دين الإسلام ، وإثبات نبوة نبينا محمد » هو القرطبى[1] (ت ٦٧١هـ) مفسر القرآن المشهور ، وأن هذا الكتاب مكتوب ضد رسالة من رسائل طليطلة .

ويمكن تحديد تاريخ تأليف هذا الكتاب من بعض العبارات التالى ذكرها المؤلف مثل قوله : « وهذا دين محمد رسولنا - ﷺ - قائم منذ ستمائة سنة ، ونيف»[2] .

وأيضًا قوله : « وهذا دين الإسلام ، الذى جاء به محمد عليه السلام له ستة مائة سنة ، ونيف من الأعوام » [3] .

وإذا اعتبرنا أن المؤلف يقصد كما يدل ظاهر كلامه بالتاريخ الذى ذكره «ست مائة ونيف من الأعوام» ظهور الإسلام ،وليس التاريخ الهجرى ، الذى بدأ بعد ظهور الإسلام بثلاث عشرة سنة ، فإن المؤلف يكون قد كتب الإعلام فى أخريات القرن السادس الهجرى .

وليس بين أيدينا تاريخ مولد القرطبى مفسر القرآن المشهور ، وإن كنا نعرف تاريخ وفاته (٦٧١هـ) ومن ثم يمكننا أن نصل إلى نتيجة مؤداها أن كتاب الإعلام بما فى دين النصارى من الفساد قد ألف قبل وفاة القرطبى بأكثر من ثلاثة أرباع قرن .

---

(١) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر فرح (بإسكان الراء والحاء المهملة) الأنصارى الخزرجى الأندلسى المفسر من مؤلفاته (الجامع لأحكام القرآن - المبين لما تضمن من السنة وآى الفرقان - الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى - التذكرة بأمور الآخرة) ... إلخ - توفى يوم الاثنين تسعة من شنوال سنة ٦٧١هـ/ ١٢٧٣م .

(٢) الإعلام بما فى دين النصارى من الفساد والأوهام ، وإظهار محاسن دين الإسلام وإثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلام والسلام : القرطبى تحقيق د. أحمد حجازى السقا - دار التراث العربى سنة ١٩٨٠م ج٢ ص ٢١٩

(٣) المصدر السابق ج٢ ص ٢٧٧

ومما سبق يصعب تأكيد صحة نسبة أو عدم نسبة هذا الكتاب للقرطبى مفسر القرآن المشهور خاصة أن اسم القرطبى من أكثر الأسماء انتشارًا بالأندلس فى هذا العصر .

وكان المسلمون يتعرضون أحيانًا ؛ لنقض عقائد اليهود ، والنصارى خلال كتاباتهم، التى لم تكن موضوعة خصيصًا للجدل الدينى ، ومع ذلك نجد بها دفاعًا عن الإسلام ضد هجمات أهل الكتاب .

حين كتب الأمير عبد الله بن بُلقين(١) مذكراته – التى لها بعد سياسى ، واجتماعى فى المقام الأول – نجده قد صدَّر هذه المذكرات بالرد على ما يدعيه اليهود، والنصارى من عدم جواز نسخ شرائع السماوية وإنكار نبوة محمد ﷺ ، ومجيئه بشريعة إلهية متكاملة ، فرد عليم ابن بُلقين على طريقة إلزام الخصم ، أنه يلزم هؤلاء اليهود والنصارى أن يكفروا بالأنبياء السابقين لنبيهم ؛ لأنهم أتوا قبل موسى – عليه السلام – بشرائع ، وكتب منزلة « فلو كان على مذهبكم لا ينسخ دين دينًا ، لم يجب لكم أنتم شىء » (٢) .

وبين الأمير عبد الله أن اليهود والنصارى اختلفوا فى الشرائع ، ورد بعضهم على بعض ، فكانت الحكمة أن يبعث الله تعالى نبيه عليه السلام : « ليبين لهم ما فرض عليهم ، ويظهره على الدين كله » (٣) .

ونجد أن ابن رشد (ت ٥٩٥ هـ) تعرض فى ثنايا مؤلفاته ، وشروحه ؛ لنقد عقيدة التثليث النصرانية ، فرأى أن النصارى قالوا بكثرة الآلهة ؛ لأنهم اعتقدوا بثلاثة

---

(١) كان الأمير عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس بن زيرى الملك الثالث والأخير لملكة غرناطة من بنى زيرى بعد سقوط الخلافة الأموية ، ولد سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٦م وعين عند وفاة أبيه بلقين وليًا للعهد فى عام ٤٥٦هـ/١٠٤٦م وأعتلى عرش غرناطة بعد وفاة جده الأمير باديس بن حبوس .

(٢) مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بنى زيرى بغرناطة ٤٨٣/٤٦٩هـ المسماه بكتاب التبيان تحقيق أ- ليفى – بروفنسال – دار المعارف بمصر سلسلة ذخائر العرب (١٨) ص٥٤

(٣) المصدر السابق ص٥

أقاليم قديمة مستقلة ، واعتقدوا أنها جواهر قائمة بنفسها كالذات[1] ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ ﴾ [2] .

ويستنكر ابن رشد أن يكون لله سبحانه ابن ، وأن تتعدد الآلهة ، ويستدل بقوله تعالى : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [3] .

لأنه إذا اختلفت أفعال الآلهة ، فلا يمكن أن يترتب منها فعل واحد[4] ، وموجود واحد[5] ولما كان العالم واحداً فلا يمكن أن يكون موجوداً بسبب عدة آلهة مختلفة الأفعال[6] .

وينكر ابن رشد أن يدعى النصارى مع قولهم بالتثليث أن الإله واحد « لأنه إذا تعدد الجوهر كان المجتمع واحداً ، بمعنى واحد زائد على المجتمع[7] » ويعنى ابن رشد بذلك أنه إذا تعدد الجوهر سيكون المجموع الكلى هو الذات ، والجواهر الزائدة على الذات وهذا تعدد وكثرة فى الآلهة ، وسيؤدى هذا إلى التركيب ، وكل مركب محدث[8] .

ومما اتحفظ به على ابن رشد أن يلزم الأشعرية نفس إلزام النصارى – بالتركيب – حيث يعتقد النصارى الجواهر زائدة على الذات ؛ وذلك لأن الأشعرية لا يقولون

(١) مناهج الأدلة فى عقائد الملة لابن رشد تقديم وتحقيق د. محمود قاسم ط٣ مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٦٩م ص ١٦٦ – ١٦٨

(٢) سورة المائدة ، آية ٧٣

(٣) سورة المؤمنون ، آية ٩١

(٤) مقدمة مناهج الأدلة لابن رشيد تقديم وتحقيق د. محمود قاسم ص ٣٤

(٥) المصدر السابق ص ١٥٧

(٦) المصدر السابق ص ١٢٧

(٧) تفسير ما بعد الطبيعة ابن رشد ج٣ مقالة اللام ص ١٦١٩ نشرة الأب بورج

(٨) المصدر السابق نفس الصفحة

بالصفات الزائدة عن الذات ، وإنما يذهبون إلى أن الصفات ليست هى عين الذات ، ولا هى غيرها حيث يرون أن الصفة ليست عين الذات حتى لا تتعدد الذات ، ولأن الصفة غير الموصوف ، فهى ليست عين الذات من حيث المعنى والدلالة ، فالصفات الإلهية هى وجوه للذات ، وكمالات لها كما أن الصفات الإلهية فى نظر الأشعرية ليست غير الذات بمعنى أنها لا تنفك عن الذات فى الوجود ، ولا تتصف وحدها بالوجود ، ولا تقوم بذاتها ، وتحقق الذات هو تحقق للصفة ، وليس تحققًا مستقلاً عن الصفة ، ووجود الذات هو وجود للصفة ، وليس وجودًا مستقلاً عن الصفة ، ومن ثم فالصفات فى نظر الأشاعرة هى معان قديمة قائمة بالذات ، وهذا لا يؤدى إلى التجسيم كما ظن ابن رشد ؛ لأنه ليس كل إقتران بين حقيقتين يكون من قبيل قيام العرض بالجوهر ؛ لأن العرض حادث ، والجوهر حادث فكلاهما محتاج للآخر وكلاهما محتاج لمحدث وصانع ؛ ولذلك لم يقل الأشاعرة بالجواهر كالنصارى ، وإنما قالوا بالذات القديمة القائمة بها صفات قديمة قدم الذات ؛ لأنهم لو لم يقولوا إن الذات قديمة وصفاتها كذلك فستكون هذه الذات حادثة ، وقيام الصفات بالذات ليس كقيام الأعراض بالجواهر، ولا يقاس عالم الغيب بعالم الشهادة فى كل الأحوال .

والأفضل فيما أرى هو موقف السلف الذى يثبت لله الأسماء الحسنى التى اطلقها على ذاته ، والتى أطلق عليها المتكلمون فيما بعد صفات الذات ، وصفات الفعل ، والصفات الخبرية ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ (١) .

جـ) مناظرات دينية :

لا ريب أن المناظرات الإسلامية لأهل الكتاب لها تاريخ قديم فى الإسلام تبدأ منذ أن كان الرسول – ﷺ – وصحابته الكرام يجادلون اليهود ، والنصارى فى الأمور

(١) سورة الشوى ، آية ١١

العقدية ، والتشريعية ، وطبيعى أن تنتشر مثل هذه المناظرات فى الأندلس ؛ لتوفر المناخ الملائم لذلك ، وعلى رأس هذا الاحتكاك المباشر بين المسلمين ، وأهل الكتاب ، والأمثلة على ذلك كثيرة :

- فى بدايات القرن الرابع الهجرى أراد أحد النصارى أن يشكك المسلمين فى عقيدة رفع المسيح عليه السلام - وعدم صلبه ، فقدم على القاضى أسلم بن عبد العزيز[1] ، وطلب أن يقتل ، وزعم أن هذا القتل لن يصيبه ولكن سينال شخصًا آخر سيلقى شبهه عليه - أى على هذا النصرانى - ولكن القاضى أسلم تصرف بحنكة ؛ حيث أراد أن يخبر هذا النصرانى أن رفع المسيح عليه السلام هو من معجزات نبوته، التى لا يمكن حدوثها لغير الأنبياء ، فطلب من أعوانه أن يضربوا هذا النصرانى بالسياط ، فتألم النصرانى وعلا صوته ، وهنا سأله أسلم : « فى ظهر من تقع هذه السياط ؟ فقال فى ظهرى .

قال له أسلم : وكذلك السيف - والله - فى عنقك يقع، فلا تتوهم غير ذلك؟» [2].

- وذكر ابن رشيق[3] (ت ٤٥٦هـ أو ٤٦٣هـ) أنه عندما حل مع والده مدينة مرسيه ، ورد على جماعة من القساوسة ، والرهبان ، أخذوا يترجمون علوم

---

(١) هناك خلاف فى اسمه فقيل أبو الجعد أسلم بن عبد العزيز بن هاشم بن عبد الله بن الحسن ...إلخ ، وقيل اسمه أبو الجعد أسلم بن عبد العزيز بن هاشم بن خالد بن عبد الله ... إلخ ، ولى قضاء الجماعة بأندلس لعبد الرحمن الناصر وكان جليلاً فى القضاء ثقة من الرواة يميل لمذهب الشافعى ، مات يوم السبت ، وقيل يوم الأربعاء لسبع بقين من رجب سنة ٣١٩هـ

(٢) قضاة قرطبة وعلماء إفريقيا : أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد الخشنى القيروانى الأندلسى (ت٣٦١هـ) نشر وتصحيح السيد عزت العطار الحسينى - مكتبة المثنى ببغداد - مكتبة الخانجى بالقاهرة ذو الحجة ١٣٧٢هـ

(٣) أبو على الحسن بن رشيق القيروانى له العديد من المؤلفات ككتاب العمدة فى صناعة الشعر ونقده وعيوبه، والشذوذ فى اللغة ، وكتاب طراز الأدب ، والممادح والمذام ، والمعونة ، والأسماء المعربة، والحيلة والاحتراس ... إلخ ، توفى بجزيرة صقلية واختلف فى تاريخ وفاته ٤٥٦هـ أو ٤٦٣هـ - انظر وفيات الأعيان لابن خلكان تحقيق د. إحسان عباس- م٢ - دار الثقافة بيروت- شخصية رقم ١٦٥ =

المسلمين وينقدونها ، وأيضًا كان « لهم حرصًا على مناظرة المسلمين ، وقصد زميم فى استمالة الضعفاء» [1] واستدرج أحد هؤلاء القساوسة ابن رشيق – رغم صغر سنة فى ذلك الوقت للجدل حول إعجاز القرآن الكريم ، ورغم تسليم القسيس – الذى عاونه ثلاثة قساوسة آخرون – بإعجاز القرآن للإنس والجن ، على أن يأتوا بمثله ، أو بسورة من مثله فإنه ذهب إلى أن هذا ليس بكاف على صدق نبوة محمد ﷺ – ومن ثم لا بد من قرائن أخرى .

ورغم أن ابن رشيق أخذ يفرع البراهين العقلية ، والأدلة العلمية على صحة إعجاز القرآن الكريم فى صدق النبوة ، فإن القسيس اعتذر بأنه سبق أن سمع ؛ مثل هذه الأدلة من علماء مسلمين سابقين – لم يذكرها ابن رشيق – وانتهت المناظرة بإفحام ابن رشيق للقسيس .

● وقد ورد نصرانى قرطبة ، وطلب مناظرة المسلمين ، فاجتمع به ابن الطلاع[2]، فسأله النصرانى : « ما تقول فى عيسى ؟ فقال له ابن الطلاع : « لعلك تريد المبشر بمحمد ؟ فانقطع النصرانى لأنه رأى إن أنكر له هذا الوصف كذّب إنجيله وكفر بعيسى على الحقيقة ؟ لأنه إنما أقر بعيسى آخر ، وإن أقرب لزمه الدخول فى الإسلام لما وجب عليه عند إيمانه بعيسى من الإيمان بما بشر به ... » [3] .

= ص٨٥ – شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلى (ت ١٠٨٩هـ) تحقيق لجنة أحياء التراث العربى – منشورات دار الآفاق بيروت ج٣ – أحداث سنة ٤٥٦هـ ص ٢٩٧

(١) المعيار المغرب فى الجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقيا والأندلس والمغرب لأحمد بن يحيى الونشريسى (ت ٩١٤هـ) دار الغرب الإسلامى . بيروت ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م – ج١١ – ص ١٥٦

(٢) الفقيه المحدث أبو عبد الله محمد بن الفرج المعروف بابن الطلاع كان من العلماء بالحديث ومذهب مالك حازقًا بالفتوى مقدمًا فى الشورى ، ومن مؤلفاته : نوازل الأحكام النبوية – وكتابه فى الوثائق، وهو من قرطبة ولقيه المعتمد بن عباد فنزل عن دابته ووعظه ابن الطلاع

(٣) عيون المناظرات للسكونى أبو على عمر السكونى (ت ٧١٧هـ م ١٣١٧م) تحقيق سعد غراب منشورات الجامعة التونسية سنة ١٩٧٦م ص ٢٩٨

وتذكرنا هذه المناظرة بيهودى كان يجادل المسلمين بالبصرة ، فينتهز إقرار المسلمين بنبوة موسى – عليه السلام – ويجحد نبوة محمد ﷺ : إذ يقول : « نحن على ما اتفقنا عليه إلى أن نتفق على غيره ، فنقرّ به» [١] .

ولكن هذا اليهودى أفحمه شاب مسلم هو أبو الهذيل العلاف[٢] حين سأله هذا اليهودى أخبرنى أليس موسى نبيًا ؟

فأجابه الشاب : « إن الذى سألتنى عنه ينقسم إلى قسمين : أحدهما أنى أقر بنبوة موسى ، الذى أخبر بنبوة محمد ﷺ ، وأمر بإتباعه ، وبشر به ، فإن سألتنى عنه فإنى أقربه ، وإن سألتنى عن موسى آخر لا يقر بنبوة محمد ﷺ – ولا بشر به فلست أعرفه ، ولا أقر به ، فانقطع اليهودى» [٣] .

والحق أن هذا الرد من العلاف جاء ذكيًا جدًا ؛ لأنه أجاب عن مدخل عظيم لليهود طالما رددوه فى مناظراتهم ، ويتلخص فى أن الأنبياء صدقت بنبوة موسى ، وكذلك الأمم ، فتواتر نبوته أعظم من تواتر نبوة محمد ﷺ – ولكن الذى فات اليهود والنصارى كذلك – هو أن إيمان المسلمين بنبوة موسى وعيسى هو فرع عن إيمانهم بمحمد ﷺ . وقد أخبر هؤلاء الأنبياء بنبوته ، فلو لم يظهر النبى لبطلت نبوات الأنبياء قبله[٤] .

وكان للرسل والبعثات التى تجرى بين ملوك الغرب، وحكام المسلمين بالأندلس

---

(١) عيون المناظرات : السكونى ص ٢٢٠

(٢) أبو الهذيل محمد بن الهذيل بن عبيد الله البصرى العلاف من شيوخ المعتزلة وكبار متكلميهم ، ولد سنة ١٣٥هـ ومات سنة ٢٢٦هـ فقارب المائة وعمى فى آخر عمره

(٣) عيون المناظرات للسكونى ص ٢٢٠ ، وانظر أيضًا فى تاريخ بغداد أو مدينة السلام منذ تأسيسها سنة ٤٦٣هـ للحافظ أبى بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى دار الكتب العلمية بيروت ج٣ ص٣٦٧: ٣٦٨

(٤) الدين والدولة فى إثبات نبوة محمد ﷺ : على بن بن ربّن الطبرى تحقيق عادل نويهض – منشورات دار الآفاق بيروت ط٤ ١٤٠٢هـ / ١٩٨٣م ص ١٣٠

أثرها الكبير فى حركة الجدل الدينى ، فنرى « أوتون » ملك جرمانيا فى القرن الرابع الهجرى يُعنى باختيار عالمًا لاهوتيًا يعتمد عليه فى المناقشة الدينية مع المسلمين ؛ ليبعثه إلى قرطبة ، فوقع اختياره على راهب اسمه (جان) وهو أحد رهبان دير جورز GORS بقرب ميتز عرف بضلاعته من اللاهوت وقد حاول هذا الراهب فى تلك البعثة أن يقنع الخليفة الناصر الأموى (ت ٣٥٠هـ) بإعتناق المسيحية(١) .

د) جدل للموريسكيين حفاظًا على العقيدة الإسلامية :

بعد سقوط غرناطة آخر ممالك المسلمين فى الأندلس (٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م) بدأت رحلة عذاب الموريسكيين ، أو المسلمين المنصَّرين ، فقد تعاون السيف والقلم فى محاولة إرهابية لتنصير هذه الفئة القليلة المغلوبة على أمرها ، وقد قامت محاكم التفتيش أو الشيطان ، كما وصفها المسلمون فى كتاباتهم بأبشع صور الإضطهاد الدينى لبقايا المسلمين فى الأندلس .

ونشير لمجموعة من المؤلفات النصرانية فى هذه الفترة ، التى تناولت الإسلام بالتشويه، والتحريف ، ومعظمها يدور حول القرآن الكريم ، ونبينا عليه الصلاة والسلام ؛ مثل « ضد القرآن» لبرناندو بيريث دى سنسون؛ و« ذم القرآن » لأحد آباء الدومينيكان ، و« شعلة العقيدة فى مواجهة القرآن والعقيدة الإسلامية » (٢) .

وقد حاول الموريسكيون من جانبهم الحفاظ على هويتهم الدينية ، وبدأ علماء المسلمين تعليم الموريسكيين الإسلام سرًا خاصة تعليمهم مجادلة النصارى الكاثوليك

(١) صلة الإسلام بإصلاح المسيحية : أمين الخولى (الأعمال الكاملة الجزء التاسع) الهيئة العربية العامة للكتاب سنة ١٩٩٣م ص ٢٦ : ٢٧

(٢) المسلمون المنصرون أو الموريسكيون الأندلسيون – صفحة مهملة من تاريخ المسلمين فى الأندلس : د. عبد الله جمال الدين – دار الصحوة ط١ – ١٩٩١ م ص ٣٥٩ : ٣٦٠

بالأندلس ففى سنة ١٥٧٣م مثل أحد المسلمين ويدعى « ميكال موزا » أمام محكمة دواوين التفتيش ؛ لعدة أسباب على رأسها أنه كان ينظم اجتماعات سرية للشباب ببيته ليقرأ عليهم كتابًا يملكه باللغة العربية ، وكان موضوعه مجادلة بين المسيح ومحمد؛ حيث خرج هذا الأخير منتصراً »(١) .

وكانت كتابات المسلمين الجدلية فى هذه الفترة يغلب عليها مظهران :

- الدفاع عن الإسلام ضد افتراءات النصارى ، والحفاظ على الهوية الإسلامية ضد موجات التنصير الموجه للمسلمين .
- نقض العقائد الدينية النصرانية ، وبيان أفضلية الإسلام على النصرانية(٢) .

ثار المورسكيون على عبادة الكاثوليك للإيقونات ، فهى فى نظرهم لا تتعدى سوى أن تكون قطع خشبية ، وكتب أحد فقهاء المورسكين ؛ لبعض النصارى محتجًا أنه : «إذا كان المسيحيون يعبدون التماثيل ، فإن المسلمين من جانبهم يعبدون الله »(٣) .

وتنبه المورسكيون لحقيقة عقدية تتمثل فى أن النصرانية ليست ديانة واحدة، ومن ثم تساءلوا : « كيف يمكن لدين سماوى يأوى فى طياته التناقض أن يكون دينًا حقيقيًا؟ »(٤) .

وقد تناول مورسكى يدعى محمد الكازر هذه الفكرة فى كتاباته ، التى يتضح منها معرفته الجيدة بالمذهب البورستانتى(٥) ؛ وكان لهذا الجدل الدائر بالأندلس

---

(١) المورسكيون الأندلسيون ، والمسيحيون المجابهة الجدلية (١٤٩٢/١٦٧٠م) مع ملحق بدراسة عن المورسكيين بأمريكا : د. لوى كارдياك تعريب عبد الجليل التميمى منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية ، والموريسكية فى التوثيق والمعلومات ، ط٢ زغوان سنة ١٩٨٩م ص ٤٣

(٢) المرجع السابق ٧٣

(٣) المرجع السابق ص٧٧

(٤) المرجع السابق ص ١٢٢

(٥) المرجع السابق نفس الصفحة

أصداءه على المغرب ، فنجد الشهاب الحجرى[١] أحد المورسكين قد حذر من رهبان المغرب ، الذين راموا صد المعتدين من النصارى للإسلام عن دينهم الجديد ، بل جادل بعضهم ، فبعث إلى راهب إسبانى كان أسيراً بمراكش سؤالاً يقول فيه : « ما قولكم فى دينكم رجل زنى بامرأة محصنة وحملت منه وولدت ، وزوج المرأة يعتقد أن المولود كان ابنه حتى كبر وزوَّجه ، وأعطاه من ماله ، واشتكى يوم الحساب لله سبحانه من زوجته ، ومن زنى بها ، والمال الذى أنفق وأعطى لابن الذى زنى بها ، فأحضر الزانى والزانية ، وقيل لهما فى ذلك ، فقالت المرأة : « إنى ذكرت ذلك للقسيس الفلانى، وغفر لى ، وقال الزانى إنه ذكر ذنبه للقسيس فى الدنيا وغفر له ذنبه، والسؤال منكم أيها الراهب» [٢] .

فأجاب الراهب : « ليس للرجل ما يطلب من زوجته ، ولا ممن زنى بها بعد إقرارهما فى الدنيا للقسيس من الذنوب ؛ لأنه غفر لهما ، ولم يبقى للزوج حق عليها ... » [٣] .

فانبرى الشهاب الحجرى لهذا الرد قائلاً : « فانظر هذا الاعتقاد الفاسد الذى عندهم فى دينهم الأصل يقولون بألوهية سيدنا عيسى عليه السلام ، وأن البابا خليفته ، وجميع أئمة دينهم كل واحد خليفة البابا ، يأمرون الناس في كل عام فى أيام صيامهم أن يمشى كل من هو بالغ من ذكر ، أو أنثى إلى الكنيسة ويذكر للقسيس جميع ذنوبه ، ويعطيه براءة المغفرة ويأخذ الدراهم عليها حينئذ يذهب بيته ، ويغفر له ، ويأخذ أجرته دراهم » [٤] .

---

(١) أبو العباس أحمد بن القاسم بن أحمد بن الفقيه قاسم بن الشيخ الحجرى ويعرف كذلك بأفوقاى أستطاع أن يغادر الأندلس ١٠٠٧هـ/ ١٥٩٨م ويقص قصة فراره فى كتاب لم يصلنا بعنوان «رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب» ومن مؤلفاته كتاب « العز والرفعة والنافع للمجاهدين فى سبيل الله بالمدافع» وقد توفى ١٠٥٠هـ / ١٦٤٠م

(٢) الأندلسيين وهجراتهم إلى المغرب خلال ق١٦ وق١٧ طبعة إفريقيا الشرق (المغرب ص٢٨٥)

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة

(٤) المرجع السابق نفس الصفحة

وكان للشهاب الحجرى هذا جولات جدلية أثناء ترحاله إلى فرنسا ، وهولندا ، ومصر ، وأعجب به مخاطبوه وألف كتاب « ناصر الدين على القوم الكافرين » ويؤيد الشهاب الحجرى فى هذا الكتاب تعاليم الإسلام ، ويدعمها ، ويفند حجج النصارى[1] .

بعد تعرفنا على أهمية دراسة الجدل الدينى بالأندلس ، وتاريخه فإنه يجدر بنا أن نتعرف على جهود عالمين من علماء الأندلس كان لهما باع عظيم فى هذا المجال، وهما ابن حزم الأندلسى ، وأحمد بن عبد الصمد الخزرجى ، ونبدأ بالتعرف على الأسباب التى دفعتهم للخوض فى هذا المجال الحيوى ، ومصادرهم الجدلية ، والآداب التى التزمها ابن حزم فى مجال الجدل .

(١) من تراث الأدب المورسكى كتاب « العز والرفعة والمنافع للمجاهدين فى سبيل الله بالمدافع » - مقال بمجلة الدراسات الإسلامية فى مدريد - المجلد السادس عشر مدريد ١٩٧١ ص١٢

الفصل الثالث

جدل ابن حزم والخزرجي لأهل الكتاب

أسبابه - مصادره - آثاره عند ابن حزم

شهد القرنان الخامس والسادس الهجريان مظهرين من مظاهر الجدل الديني في الأندلس أولهما مظهر التسامح حيث يكتب ابن النغريلة، وهو بين ظهراني المسلمين كتابات جدلية طاعنًا في القرآن الكريم ، والإسلام ، كما تصل وفود الفرنجة إلى المقتدر بالله حاكم سرقسطة (ت٤٧٤هـ) تدعوه صراحة للتنصر فإذا ما زال ملك المسلمين تدريجيًا عن بلاد الأندلس يقابلنا مظهرٌ آخر من مظاهر الجدل الديني، حيث لا يجد المسلمون ما يكفل لهم حق الدفاع عن عقيدتهم أمام تطاول النصارى على الإسلام عقيدة، وشريعة، مما يضطر ابن أبي عبيدة الخزرجي إلى التردد في إجابة القس الذي بعث إليه يدعوه إلى ترك الإسلام ، حتى إذا ما هم بالرحيل عن طليطلة كتب الخزرجي رده المفحم على هذا القسيس ، وهذا يدفعنا إلى محاولة التعرف على أسباب جدل كل من ابن حزم الظاهري وأحمد بن عبد الصمد الخزرجي لأهل الكتاب بالأندلس ، ومعرفة مصادرهما في مجادلة اليهود ، والنصارى ..

أولاً - أسباب جدل ابن حزم والخزرجي لأهل الكتاب ومصادره :

تعددت أسباب الجدل الديني بالأندلس ، فمنها ما هو عام ، ومنها ما هو خاص ويمكن إيجاز هذه الأسباب فيما يلي :

١ - الاقتداء بهدى القرآن الكريم ، والسيرة النبوية المطهرة في دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ﴾[١] .

وكان عليه الصلاة والسلام يبعث من يحمل رسائله إلى الملوك للدخول في الإسلام مثل الرسالة التي بعث بها إلى أهل حمير ، حيث كانت النصرانية منتشرة فيها ، ومما ورد بهذه الرسالة : « سلمٌ أنتم ما آمنتم بالله ورسوله وأن الله وحده لا شريك له بعث موسى بآياته ، وخلق عيسى بكلماته وقالت اليهود عزير ابن الله ... إلخ الرسالة [٢] » .

وكذلك كتب ﷺ إلى أسقف يدعى ضغاطر[٣] : «سلام على من آمن ، أما على أثر ذلك فإن عيسى ابن مريم روح الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم الزكية ، وإني أومن بالله وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى ، وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون والسلام على من أتبع الهدى[٤] » ، كذلك من الرسل النبوية الذين بعثوا

(١) سورة آل عمران آية رقم ٦٤

(٢) الطبقات الكبرى لمحمد ابن سعد الواقدي ط١ دار التحرير (١٣٨٨هـ ، ١٩٦٨م) جـ١ - القسم الثاني (ص ٣٢)

(٣) ورد أن ضغاطر أسقف رومي أسلم على يد دحية بن خليفة الكلبي وعندما علم قومه بإسلامه وثبوا عليه فقتلوه - أسد الغابة في معرفة الصحابة المجلد الثالث لعز الدين بن الأثير أبي الحسن علي بن محمد الخزرجي ٥٥٥ - ٦٣٠هـ ، ط الشعب باب الضاد والعين والميم

(٤) الطبقات الكبرى : ابن سعد الواقدي ص ٢٨

إلى الملوك والحكام دحية بن خليفة الكلبى [1] والذى أرسل إلى قيصر ملك الروم ، وعمرو بن أمية[2] إلى النجاشى ملك الحبشة ، وبعث حاطب ابن أبى بلتعة[3] إلى المقوقس [4] ملك الإسكندرية .

وكذلك لا ننسى أثر المجادلات الدينية ، والتى سطرها القرآن الكريم لغير المسلمين عامة ، ولأهل الكتاب خاصة ، وأيضًا جدل الرسول عليه الصلاة والسلام لليهود والنصارى كوفد نصارى نجران ، حيث وجد علماء الأندلس فى الكتاب والسُّنة ما يسمح بل يحض المسلمين للرد على الكتابيين .

٢ - ومن أسباب الجدل أيضًا الإتصال المباشر بين المسلمين وأهل الكتاب بالأندلس، الذى يكاد يكون امتزاجًا[5] ، حتى فترات الحرب بين المسلمين والنصارى التى ينقطع فيها الحوار العقائدى كان يجدى فى فترات السلم (الهدنة) كما قطع فى فترات الحرب[6] ، وزاد الاختلاط بين المسلمين

---

(١) دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة بن زيد بن امرئ القيس بن الخزرجى بن عامر بن بكر بن عامر الأكبر بن عوف الكلبى صحابى مشهور أول مشاهده الخندق، وقيل أحد ولم يشهد بدرًا وكان يضرب به المثل فى حسن الصورة وقيل شهد اليرموك ونزل دمشق وعاش إلى خلافة معاوية - الإصابة فى تمييز الصحابة : شهاب الدين أبى الفضل أحمد بن على بن محمد بن محمد بن على الكنانى العسقلانى المصرى الشافعى المعروف بابن حجر

(٢) عمرو بن أمية بن خويلد بن عبد الله بن إياس بن عبيد بن ناشزة بن كعب الصخرى يكنى أبى أمية، أسلم حين انصرف المشركون من أحد وأرسله رسول الله [إلى النجاشى يدعوه إلى الإسلام سنة ستة ومات فى المدينة فى خلافة معاوية بن أبى سفيان ، أسد الغابة فى معرفة الصحابة : المجلد الرابع - طبقات ابن سعد : المجلد الرابع ، ص ٢٤٨

(٣) حاطب بن أبى بلتعة واسم ابن أبى بلعتة عمرو بن عمير بن سلمة بن صعب بن سهل بن العتيك ابن سعاد بن راشدة بن جزيلة بن لخم بن عدى ، شهد بدراً والحديبية وأرسله رسول الله [إلى المقوقس صاحب الإسكندرية سنة ست وتوفى لسنة ثلاثين وعمره خمس وستون سنة ، وصلى عليه سيدنا عثمان ، أسد الغابة لعز بن الأثير ص ١٣١

(٤) المقوقس لقب واسمه صريح بن مينا بن قرقب صاحب الإسكندرية

(٥) ابن حزم حياته وعصره آراؤه وفقهه : الإمام محمد أبو زهرة ، ص ١٠٤

(٦) المرجع السابق ، ص١٠٥

والنصارى حين ضعفت شوكة أمراء المسلمين ، وصاروا يستعينون بالنصارى لتحقيق مآربهم مما أوجد اتصالاً فكريًا ، والتحامًا جدليًا بين المسلمين ، وأهل الكتاب .

٣ - التصدى لحركة التنصير المسيحية بالأندلس بعثت كذلك على الجدل خصوصًا فى فترات ضعف المسلمين ويظهر مدى ضعف المسلمين من أن هذه الحركة التنصيرية كانت غير متوارية ، وتكشف النقاب عن نفسها بلا حذر ، أو خوف من رادع إسلامى لدرجة أن النصارى بعثوا برسائل تنصيرية إلى حكام المسلمين يدعونهم لترك الوحدانية ، واعتناق التثليث المسيحى وإصرارهم على استمرارية هذه اللهجة التنصيرية إذ يقول راهب فرنسى فى رسالته إلى المقتدر بالله (ت٤٧٤هـ) : « ولن يسعنا أن نتراخى عن الاجتهاد فى تتميم هذه المصلحة - بجميل معونته - لنشترك معًا فى ملكوته إن آثرت ذلك ، ولهذا الأمر أشخصنا إليك من إخواننا من يورد عليك كلامًا إلهيًا - على ما يوفقهم الله إليه ويشرحون لديك حقيقة دين النصارى ويقررون عندك معرفة سيدنا ، الذى لا نبغى الإيمان بأحد سواه ، ولا نرتجى النجاة إلا به فهو الإله الذى اتخذ حجابًا على صورتنا لينقذنا - بدمه الطاهر - من هلكة إبليس(١) » .

ويتضح من كلام الراهب أن الحركة التنصيرية كانت تتخذ شكل وفود معتمدة لدى الكنائس النصرانية فى الغرب عن طريق إرسال من يمثل الكنيسة أمام حكام المسلمين ، وقد كان هذا الراهب يلج فى دعوة المقتدر بالله إلى النصرانية ، حيث يقول فى موضع آخر من رسالته : « ونحن نضرع إلى سيدنا يسوع المسيح أن

(١) رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين تحقيق محمد عبد الله الشرقاوى ص ٥٠

يتولى رعايتك ، ويتكفل سلامتك ، ويهديك إلى دينه المقدس ، ويسعدنا بالإيمان الصحيح به[١] » .

وهناك قس آخر كان يمارس التنصير بين عوام المسلمين بالأندلس، وحين تصدى له أحد الشباب ، وهو ابن أبى عبيدة الخزرجي ، وفضح أكاذيبه التى كان يموه بها على العوام فما كان من هذا القس سوى محاولة تنصير الخزرجي نفسه فكتب إليه رسالة تنصيرية افتتحها بالأب والابن والروح القدس والحديث عن أكل سيدنا آدم عليه السلام من الشجرة التى نهاه الله عنها ، وربط ذلك بالصلب المزعوم لعيسى عليه السلام ، ثم دعى ابن أبى عبيدة إلى النصرانية قائلاً : « فإذا أردت أن يتغمدك الله برحمته ، وتفوز بجنته ، فآمن بالله وقل إن المسيح ابن الله الذى هو الله ، والروح القدس ثلاثة أقانيم فى أقنوم واحد، فستنجح وترشد» [٢] .

وكان يوجد بالأندلس أديرة نصرانية من بين أهدافها كما هو حاصل اليوم ممارسة التنصير وتعليم النصارى الحجاج الدينى[٣] ، وكان بطرس الموقر[٤] رئيس رهبان كلونى CLUNY الذى عاش ما بين عامى (١٠٩٤ - ١١٥٦م) يقوم بزيارة هذه الأديرة للاطمئنان على سير العمل التنصيرى بين مسلمى الأندلس، الذى فشل فشلاً ذريعًا فى تلك الأونة ، كما يعترف بطرس الموقر نفسه فيقول عن التنصير :

---

(١) رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين تحقيق محمد عبد الله الشرقاوى ص ٧٥

(٢) مقامع هامات الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان لابن أبى عبيدة الخزرجي المنشور بعنوان : «بين الإسلام والنصرانية كتاب أبى عبيدة الخزرجى ت ٥٨٢ هـ» ، تحقيق د. محمد عبد الغنى شامة مكتبة وهبة ١٩٧٩م ، ص٦١

(٣) مجلة عالم المعرفة تراث الإسلام القسم الأول مقال لمكسيم رودنسون - ترجمة د. محمد زهير السمهورى ، ص٣٧ - ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م

(٤) بطرس الموقر أو المكرم ١١٢٣م ، الذى شيد بفرنسا ٩١٠ ، وانطلقت منه حركة إصلاح عمت النصرانية الأوربية وجعل منه الرهبان الأندلسيون الذين آووا إلى هذا الدير مركزًا خطيرًا لنشر الثقافة الإسلامية

«إذا كان على هذا يبدو عديم الفائدة ؛ لأن العدو الحقيقى يبقى منيعًا ضد مثل هذه الأسلحة ... وهذا العمل كما أراه لا يمكن أن يقال عنه إنه عديم الفائدة ، فإذا تعذر هداية المسلمين الضالين به ، فإن العلماء الذين يغارون على العدالة يجب أن لا يفوتهم تحذير أولئك الضعفاء من أفراد الكنيسة »[١] .

٤ – ومن أسباب الجدل أيضًا الدفاع عن الإسلام ضد تطاول اليهود ، وكيدهم للمسلمين ، فقد عاش اليهود بالأندلس فترة ازدهار عظيمة ، وتمتعوا بتسامح لا تحلم به أى أقلية فى أى زمان أو مكان ، ولكن اليهود هم اليهود فى كل زمان ومكان فما كان منهم إلا أن استغلوا التسامح الذى يصل لدرجة التهاون فى الكشف عن حقدهم الدفين ، فألفوا كتبًا جدلية تهدف للنيل من القرآن ، والرسول العظيم – كما أشرنا فيما سبق – مما حفز علماء المسلمين للرد عليهم ، فيقول ابن حزم الأندلسى: «فإن بعض من تقلى قلبه للعداوة للإسلام وأهله ، وذويت كبده ببغضه الرسول ﷺ من متدهرة[٢] الزنادقة المستسرين[٣] بأذل الملل وأرذل النحل من اليهود ... أطلق الأشر لسانه وأرخى البطر عنانه ، واستمشخت لكثرة الأموال لديه نفسه المهينة، وأطغى توافر الذهب والفضة عنده همته الحقيرة ، فألف كتابًا قصد فيه بزعمه إلى إبانة تناقض كلام الله عز وجل فى القرآن اغترارًا بالله تعالى أولاً ، ثم بملك ضعفه ثانيًا واستخفافًا بأهل الدين بدءًا ، ثم بأهل الرياسة فى مجانة عودًا»[٤] .

---

(١) مجلة عالم المعرفة ، تراث الإسلام ص ٣٨

(٢) متدهرة الزنادقة أى الدهرية الذين يرون أن الدهر غير مخلوق وهو الذى يهلك الإنسان

(٣) المستسرين الذين يسرون

(٤) الرد على ابن النغريلة اليهود لابن حزم الأندلسى ، تحقيق د/ إحسان عباس ط مكتبة دار العروبة ، ١٣٨٠هـ ١٩٦٠م ص٤٦

وأخذ ابن حزم يبحث عن كتاب هذا اليهودى ، فتعرف عليه من خلال الفصول ، التى نقلها أحد المسلمين من كتاب هذا اليهودى للرد عليه .

هذه هى أهم الدوافع التى حفزت ابن حزم والخزرجى ، وغيرهم من علماء المسلمين لمجادلة أهل الكتاب ، وقد اعتمد هذان العلمان على مجموعة من المصادر العلمية تجدر الإشارة إليها ، لأهميتها فى توجيه الجدل الدينى .

مصادر ابن حزم ، وابن أبى عبيدة فى مجادلة أهل الكتاب

تحتل المصادر فى دراسة ، ونقد الأديان أهمية كبرى ، فهى تكشف عن الخلفية الفكرية التى يعتمد عليها الباحث فى دراسة الأديان ومقارنتها ، وبتعرفنا على هذه المصادر نستطيع أن نحكم على مصداقية المجادل ، وتمكنه العلمى فى المعرفة بمن يجادله ، حتى تكتسب العملية الجدلية صفة الحياد العلمى المطلوب .

ولقد تنوعت مصادر ابن حزم ، والخزرجى فى الرد على اليهود ، والنصارى بما يكشف عن موسوعيتهم ، وسعة عقليتهم ، وإحاطتهما بالفكر اليهودى ، والنصرانى وهذه هى أهم المصادر التى اعتمدا عليها فى جدلهم الدينى لأهل الكتاب .

- **القرآن الكريم :**

القرآن الكريم هو المصدر الأساسى والرئيسى الذى استقى منه المسلمون عقائدهم الإيمانية واعتمد عليه مجادلو أهل الكتاب من المسلمين فى ردودهم .

ولقد أولى ابن حزم والخزرجى أهمية كبيرة لكتاب الله فى نقدهم لعقائد أهل الكتاب ولسنا فى حاجة إلى التذكير بأهمية النص ، وأولويته عند رجل كابن حزم الظاهرى الذى رأى أن الله عَزَّ وجَلَّ قد نص فى كتابه الكريم على أصول البراهين(1) ، التى استفاد منها فى جدله لأهل الكتاب وهاك بعض الآيات ، التى توجه الجدال بين المسلمين ، وأهل الكتاب على سبيل المثال لا الحصر ، كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾(2)، ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾(3)، وعن ما نسب للمسيح من صلب ورد ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ (4) .

(1) الفصل لابن حزم ج٢ ص ٢٣٦
(2) سورة العنكبوت ، آية ٤٦
(3) سورة النحل ، آية ١٢٥
(4) سورة النساء ، آية ١٥٧

● **الحديث الشريف :**

جاءت السنة النبوية المطهرة شارحة ، ومفسرة ، ومفصلة لما ورد فى القرآن الكريم، وقد اعتمد ابن حزم والخزرجى على الحديث الشريف ، كأقوى مصدر من مصادر السنة فى ردودهم الدينية لأهل الكتاب ، فكانا يستدلان بأحاديث النبى ﷺ فعلى سبيل المثال ذكر كل من ابن حزم ، وابن أبى عبيدة حديث : « ما بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة » (١) .

رأى ابن حزم أن هذا الحديث من أعلام النبوة ؛ لأنه يخبر بمكان قبر النبى ﷺ فكان كما قال واستدل أحمد بن عبد الصمد الخزرجى بهذا الحديث فى الرد على ادعاء النصارى أن سيدنا محمد ﷺ قال إنه لن يموت (٢) .

● **أقوال الصحابة رضى الله عنهم :**

عندما تعرض ابن حزم الأندلسى لتوضيح موقفه من التوراة والإنجيل ، اللذين بيد اليهود والنصارى رأى أن ما جاء فى القرآن الكريم ، والسنة النبوية بتصديقه صدقه ابن حزم ، وما جاء فيهما بتكذيبه ، أو ظهر كذبه كذَّبه ، وما لم يأت بتصديقه نص ، ولم يظهر كذبه توقف ابن حزم فى قبوله (٣) .

وأخذ ابن حزم يستدل بالقرآن الكريم ، والسنة النبوية ، وأقوال الصحابة ، لتصحيح هذا الموقف ، فمن أقوال الصحابة ما ورد من أن كعبًا الأحبار سأل عمر بن الخطاب : « هذه التوراة أفاقرأها ، فقال له عمر بن الخطاب : إن كنت تعلم أنها التى أنزل الله على موسى فاقرأها آناء الليل والنهار » (٤)

---

(١) صحيح البخارى كتاب الإعتصام بالكتاب والسنة ، طبع دار الجيل بيروت المجلد الثالث ، ج٩ ص١٢٩ ، ورواة الحديث هو عمرو بن على عن عبد الرحمن بن مهدى عن مالك بن حبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم عن أبى هريرة عن الرسول ﷺ

(٢) مقامع الصلبان ص ١٨٨

(٣) الفصل لابن حزم ج١ ص ٣١٩

(٤) المصدر السابق ٣٢٠

وعلق أبو محمد على هذا الموقف العمرى قائلاً : « فهذا عمر لم يحققها » [(١)] .

وهكذا نرى أن ابن حزم قد جعل الكتاب والسنة هما الحاكمان الأمينان ، والمصححان لما ورد فى الشرائع السابقة للإسلام ، فشرع من قبلنا هو شرع لنا ما لم يرد نص بتحريمه ، أو تحليله .

● كتب اليهود والنصارى التى يقدسونها :

لجأ علماء المسلمين لدراسة الكتب المقدسة لدى أهل الكتاب ؛ لتوسيع معرفتهم بالفكر اليهودى والنصرانى ، وليفيدوا من هذه الدراسة فى جهودهم الجدلية ، حتى تكون ملزمة لخصومهم ، فلا ألزم للخصم من أن تثبت له فساد عقيدته من عقيدته نفسها ؛ لأن ما يظن أنه سلاحه إنما هو راجع عليه ، ومصوب إليه .

ولقد أولى ابن حزم والخزرجى هذه الكتب عناية خاصة تدفعنا أن نعطى فكرة موجزة عنها ، حيث يجمعها كتابهم المقدس لديهم :

ويتكون ما يسمى بالكتاب المقدس لدى أهل الكتاب من العهدين القديم والجديد :

أ) أسفار العهد القديم :

يؤمن اليهود على اختلاف بين طوائفهم بأسفار العهد القديم ، الذى يتألف حسب رأى النصارى البروتستانت من تسعة وثلاثين سفراً تقع فى أربع مجموعات على النحو التالى :

المجموعة الأولى :

التوراة وتنسب لموسى عليه السلام ، وتتكون من خمسة أسفار هى :

١ - سفر التكوين أو الخليقة : ويتضمن قصة الخلق وقصص بعض الأنبياء .

٢ - سفر الخروج : ومن أهم ما يتناوله قصة موسى مع بنى إسرائيل .

---

(١) الفصل لابن حزم نفس الصفحة

٣ – سفر الأحبار أو اللاويين : نسبة لأبناء لاوى أحد أبناء يعقوب .

٤ – سفر العدد : شغل معظمه إحصاءات خاصة ببنى إسرائيل من حيث أعدادهم وجيوشهم وأموالهم ... إلخ .

٥ – سفر التثنية : ويرد فى مؤلفات ابن حزم باسم (التكرار) لأنه يذكر الحكم ويثنى عليه مرة أخرى .

المجموعة الثانية :

الأسفار التاريخية ، وهى اثنى عشر سفراً وتتضمن عرضًا لتاريخ بنى إسرائيل بعد موسى عليه السلام وقصة دخولهم الأرض المقدسة .

المجموعة الثالثة :

الأسفار الشعرية ، أو أسفار الأناشيد ، وهى خمسة أسفار تحتوى على مواعظ ، وأناشيد بعضها دينى ، وبعضها غزلى فاحش .

المجموعة الرابعة :

أسفار الأنبياء وعددهم سبعة عشر سفراً .

تشكل هذه الأسفار التسعة والثلاثون ما يعرف بـ (العهد القديم) طبقًا للأصل العبرانى، وقد ارتضاها جمهور البروتستانت من النصارى ، وهناك مجموعة أسفار يهودية تسمى بالأسفار الخفية بعضها زادت به الترجمة السبعينية عن الأصل العبرى ، وأقربها الكاثوليك وأقر بعضها الأرثوذكس .

والأسفار التى زادت بها الترجمة السبعينية عن الأصل العبرى هى :

١ – سفر طوبيا	٨ – سفر الكهنوت أو الحكمة
٢ – سفر الحكمة	٩ – سفر نشيد الأطفال الثلاثة
٣ – سفر المكابيين الأول	١٠– سفر سوزان
٤ – سفر المكابيين الثانى	١١– سفر بل والتنين

٥ – سفر المكابيين الثالث
٦ – سفر المكابيين الرابع
٧ – سفر يهوديت
١٢– أسفار ثلاثة منسوبة لعزرا
١٣– بعض الزيادات فى سفر دانيال

وهذه الأسفار التى تزيد بها الترجمة السبعينية عن الأصل العبرى لا تدخل عند اليهود فى العهد القديم ، وإن كان بعضها – رغم أنه خفى – مقدسًا لدى الأحبار الربانيين[(١)] .

وطائفة السامريين من اليهود لا تسلم من بين جميع هذه الأسفار الخفى منها ، وغير الخفى سوى سبعة أسفار فقط ، وترى الباقى محرفًا وموضوعًا[(٢)] وهى التوراة ويشوع والقضاة ، والسفران الأخيران تاريخيان فقط ، ويوافقهم على ذلك من العبرانيين الصدوقيون ويختلف متن هذه الأسفار بين الطوائف اليهودية، إذ يقول ابن حزم عن السامرية : « ولهم توراة غير التوراة التى بأيدى سائر اليهود » [(٣)] .

وتتهم السامرية التوراة التى بأيدى سائر اليهود من غيرهم بأنها محرفة مبدلة وفى المقابل يدعى سائر اليهود أن توراة السامرية محرفة مبدلة[(٤)] .

واطلع ابن حزم على أكثر من نسخة من التوراة فكان يظهر الاختلافات بين توراة اليهود ، وتوراة النصارى من حيث أعمار الرجال ، ومواليدهم ، وبلغت دقة ابن حزم الأندلسى مداها حين كان يصف لقارئه حجم ، وشكل التوراة التى اعتمد عليها فى جدله ، فيقول : « إنما هى مائة ورقة ، وعشر أوراق فى كل صفحة منها ثلاثة وعشرون سطراً إلى نحو ذلك بخط هو إلى الإنفساح أقرب يكون فى السطر بضع عشرة كلمة » [(٥)] .

---

(١) فى مقارنة الأديان بحوث ودراسات ، د. محمد عبد الله الشرقاوى دار الهداية ط١ ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م ص ٢٢

(٢) المرجع السابق ص ٢٣

(٣) الفصل لابن حزم ج١ ص١٧٧

(٤) المرجع السابق ج١ ص٢٠٢

(٥) الفصل : ابن حزم ج١ ص٢٨٥

ب) أسفار العهد الجديد :

يقدس النصارى على اختلاف بين طوائفهم أسفار العهد الجديد ، وتنقسم هذه الأسفار إلى أربع مجموعات على النحو التالى :

المجموعة الأولى : الأناجيل الأربعة وهى : إنجيل متى ، وإنجيل مرقس ، وإنجيل لوقا ، وإنجيل يوحنا .

المجموعة الثانية : أعمال الرسل : ينسب للوقا صاحب الإنجيل .

المجموعة الثالثة : الرسائل المقدسة وهى إحدى وعشرون رسالة منها أربع عشرة رسالة كتبها بولس .

المجموعة الرابعة : سفر رؤيا يوحنا ، ويطلق عليها كذلك مشاهدات يوحنا، ويؤمن الكاثوليك الروم والأرثوذوكس بما جاء فى الترجمتين اللاتينية واليونانية ، وإن كان الأرثوذوكس لا يسلمون بأسفار باروخ ، والمقابيين الأول والثانى بينما يسلم بها الكاثوليك، أما البروتستانت فإنهم لا يسلمون بسبعة أسفار من العهد القديم، الذى يؤمن به الكاثوليك، وهى : أسفار طوبيا ، ويهوديت ، والحكمة وباروخ ، والمقابيين الأول، والثانى ، وكهنوت عيسى بن سيراخ .

● التلمــود :

لفظ التلمود يقصد به التعليم أو الشريعة الشفوية ، وهو كتاب تعاليم ديانة اليهود، وآدابهم وهناك تلمود أورشليم ، وكان موجوداً بفلسطين ٢٣٠م ، وتلمود بابل، وكان موجوداً بمدينة بابل ٥٠٠م ثم زيد عليهما(١) .

(١) الكنز المرصود فى قواعد التلمود : د. يوسف نصر الله ط٢ بيروت ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م ، وهذا الكتاب عبارة عن ترجمة من الدكتور يوسف نصر الدين لكتابين بالفرنسية أحدهما للدكتور روهلنج (اليهود حسب التلمود) وهو ما نقلنا عنه العبارات التى فى متن هذه الصفحة وثانيها كتاب للدكتور إشيل لوزان بعنوان (تاريخ سوريا لسنة ١٨٤٠م)

ويتكون التلمود من المشناه والجمارة ، والمشناه هى المتن ، والجماره هى الشروح ويتفق التلمود البابلى ، والتلمود الفلسطينى فى المشناه (المتن) ويختلفان فى الجمارة (الشروح) فالشروح فى التلمود البابلى أربعة أمثالها فى الفلسطينى[1] .

وقد احتج ابن حزم فى جدله لليهود بكتابين من التلمود ذكر أن أحدهما يدعى (شعر توما) والآخر (سادرناشيم) ومعناه (تفسير أحكام الحيض) وقد ذكر هذين الكتابين فى كل من الفصل ، والرد على ابن النغريلة اليهودى .

وعن أهمية التلمود لليهود يقول ابن حزم : « والتلمود هو معولهم وعمدتهم فى فقههم ، وأحكام دينهم وشريعتهم ، وهو من أقوال أحبارهم بلا خلاف من أحد منهم» [2] .

وكلام ابن حزم عن أهمية التلمود ، وخطورته بالنسبة للفكر اليهودى يعكس معرفة مبكرة لعلماء الأندلس بهذا الكتاب الخطير قد لا تكون متوفرة لدى علماء المشرق فى القرن الخامس الهجرى ، وما قبله [3] ، كما أن أقوال ابن حزم السابقة

(١) إسرائيل والتلمود دراسة تحليلية : إبراهيم خليل أحمد مكتبة الوعى ص٣٣ ، وينسب السموأل بن يحيى المغربى هذه التعاليم إلى فقهاء اليهود ، أو حاخاماتهم ، ويفرق بين المشنا والتلمود فيقول عن المشنا إنها الكتاب الأصغر ومبلغ حجمه ٨٠٠ ورقة ، والتلمود الأكبر مبلغة نحو نصف حمل ، بغل وأظن أنه يقصد بنصف الحمل (٨٠٠ ورقة الخاصة بالمشناه والجماره وهى الشروح) بذل المجهود فى إفحام اليهود السموأل بن يحيى بن المغربى تحقيق محمد أحمد الشامى مكتبة الجهاد الكبرى

(٢) الفصل : ابن حزم ج١ ص٣٢٤

(٣) سبق أن ذكرنا تميز ابن حزم على علماء السلف من المسلمين (سمنار بكلية بنات عين شمس – قسم الفلسفة ١٩٩٥م) فى الإشارة المبكرة لأهمية التلمود بالنسبة للفكر اليهودى مما دفع أحد الزملاء إلى أن يحمل على القاضى عبد الجبار (ت ٤١٥هـ) لعدم الإشارة إلى التلمود بينما تميز ابن حزم فى هذا مستدلاً بنفس النص الذى ذكرناه فى السمنار عن ابن حزم : « والتلمود هو معولهم ... » ورغم أنه ذهب إلى نفس تعليلنا الذى ذكرناه من أن الوجود اليهودى بالأندلس كان أكثر تأثيراً عنه فى المشرق فإن الباحث لم يعذر القاضى عبد الجبار فى عدم الإشارة للتلمود ، وفيما أرى أن القاضى عبد الجبار له العذر فى ذلك ؛ لأن اليهود كانوا يجتهدون فى إخفاء هذا الكتاب عن غيرهم ، حتى إن علماء مسلمين جاءوا بعد القاضى بقرون عديدة ولم تتوفر لديهم معرفة كافية بالتلمود تسمح لهم =

يؤيدها التاريخ والدراسات الحديثة التى كشفت الكثير عن التلمود ، وخباياه ، فورد بكتاب (الكنز المرصود فى قواعد التلمود) الكثير من أقوال الحاخامات التى تدل على المكانة الرفيعة ، التى تبوأها التلمود فى العقلية اليهودية . ومن ذلك قولهم : « من احتقر أقوال الحاخامات استحق الموت دون من احتقر أقوال التوراة ، ولا خلاص لمن ترك تعاليم التلمود واشتغل بالتوراة ؛ لأن أقوال علماء التلمود أفضل مما جاء فى شريعة موسى[1] » وأيضًا قولهم : « إن من يقرأ التوراة بدون المشناه، والجماره فليس له إله[2] » . وفظائع التلمود ، ونظراته العنصرية للأمم غير اليهودية أصبحت غير خافية على المعارف العلمية الحديثة ، فغير اليهود فى نظر التلمود عبيد ، وكلاب، وخدم لليهود .

● **الشعــر :**

لا يخفى أثر الكلمة الشعرية فى نفسية المتلقى ، وتعلقها بذهنه ، ومن ثم اهتم أبو محمد بن حزم بذكر أبيات من الشعر العربى ، لتأييد آرائه ، فأثناء تكذيبه، لبعض النبوات التوراتية التى تدعى رفعة شأن يعقوب ، وبنيه ذكر أن الأمم لم تخدم يعقوب، ولابنيه، ولا خضعت لهم الشعوب ، وإن قال اليهود بأن هذا سيكون كذَّب قولهم بذكر قول الشاعر :

=بدراسات حوله ، ونرى ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) حين أراد أن يتحدث عن هذا الكتاب لم يجد بين يديه سوى أن ينقل كلام المهتدى اليهودى السموأل بن يحيى المغربى (ت٥٧٠هـ) بنصه دون إضافة منه لما قاله السموأل مع ملاحظة أن السموأل عاش قبل ابن قيم الجوزية قرابة قرنين من الزمان ، وقد يرجع ذلك أيضًا إلى أن منهج النقد لدى علماء المسلمين كان يقوم على دراسة ما هو متفق عليه لدى طوائف اليهود كالتوراة بينما التلمود ليس مقدسًا لدى جميع الفرق اليهودية بالإضافة إلى أن أغلب نصوص التلمود - إن لم يكن كلها - لم تكن مترجمة ترجمة شائعة تسمح لسلفنا فى المشرق بإعطاء فكرة واضحة عن هذا الكتاب . انظر جهود القاضى عبد الجبار فى دراسة النصرانية (دراسة تحليلية مقارنة) : حمدى عبد الله الشرقاوى - رسالة ماجستير - جامعة عين شمس كلية البنات قسم الفلسفة ١٤١٦هـ ١٩٩٦م ، ص ٢٣٦، ٢٣٧

(١) الكنز المرصود : ترجمة د. يوسف نصر الله ص ٤٤

(٢) المرجع السابق ص ٤٥

ترجّى ربيع أن تحى صغارها بخيرٍ وقد أعيا ربيعًا كبارها

وليس لى تعليق على هذا البيت الذى استشهد به ابن حزم سوى أن أقول ليت ابن حزم عاش ليرى ما نرى .

● مصادر علمية وفلسفية مختلفة :

استفاد ابن حزم ، والخزرجى من الفلسفة اليونانية والهندية ، وعلومهم المختلفة بما يتوافق مع العقيدة الإسلامية ، فعند تعرض ابن حزم لما ورد فى القرآن الكريم عن « يأجوج ومأجوج » ذكر أن أرسطاليس عند كلامه عند الغرانيق فى كتابه (الحيوان)(١) ذكر يأجوج ومأجوج والسد .

وذكر هذا السد أيضًا بطليموس فى كتابه (جغرافيا) وذكره أيضًا قدامة بن جعفر والناس(٢) كما استفاد ابن حزم فى استدلالاته الجدلية من دراسته فى المنطق .

وعندما حاول ابن حزم أن يثبت أن المتاع الأخروى حسى استدل بما ذكره قدماء الهند فى كتبهم أن فى الأفلاك والبروج ، ووجوه المطالع صورًا وصفوها ، وقالوا إنه ليس فى العالم الأدنى صورة إلا وهى فى العالم الأعلى ، واستنبط ابن حزم أن هذا (إيجاب منهم أن هنالك ملابس ، ومشارب ، ومطاعم ، وأنهارًا ، وأشجارًا ، وغير ذلك)(٣) .

وكان ابن أبى عبيدة يهتم بإيراد شواهد مما فى كتب النصارى ، وكتب اليهود العبرانية وما ورد فى تفاسيرهم(٤) .

---

(١) راجعت كتاب (أجزاء الحيوان) لأرسطو طاليس ترجمة يوحنا بن البطريق تحقيق وشرح د. عبد الرحمن بدوى (وكان الناشرون وكالة المطبوعات فى الكويت) ولم أجد ذكر يأجوج ومأجوج، والسد وإنما جاء ذكر الغرنوق فى المقالة الأولى ص ٥٩ ، وقد يكون ابن حزم رجع لنسخة أخرى أكثر اكتمالاً

(٢) الفصل ابن حزم ج١ ص ٢٠٦

(٣) المصدر السابق ج٢ ص ٢٦١

(٤) المقامع الخزرجى ص٢٩٥

• الخبر الشائع :

حينما ناقش ابن حزم قضية (الصلب) استدل على أن المصلوب ليس عيسى عليه السلام بمجموعة من الأدلة منها ما روى عن بعض علماء النصرانية أن المسيح - عليه السلام - أعطى قوة التحول من صورة إلى صورة[1] ، كما كان الجدل الشفهى الذى دار فى الأندلس من مصادر علماء الأندلس فى كتاباتهم كما سيتضح خلال البحث.

والجدير بالذكر أن ابن حزم كان أحيانًا يذكر عبارات وينسبها لكتب نصرانية دون ذكر أسماء هذه الكتب أو أصحابها ، ولكنه كان أمينًا فيما ينسبه للنصارى كما سنبين .

وقبل أن نترك الحديث عن مصادر ابن حزم ، والخزرجى فى الرد على أهل الكتاب لنا تحفظ على ما رجحه الدكتور محمود حماية من أن يكون كتاب (المختار فى الرد على النصارى) لأبى عثمان الجاحظ من المصادر المباشرة لابن حزم الأندلسى فى كتابه « الفصل »[2] ظنًا منه أنه يوجد عبارات بكتاب المختار للجاحظ تكررت بكتاب « الفصل » لابن حزم ولكن المتفحص للأمر يجد أن هنالك تشابهًا فى ذكر بعض الآيات القرآنية التى تحكى أقوال اليهود عن يد الله بأنها مغلولة - والعياذ بالله - وعن النصارى فى قولهم : بأن الله ثالث ثلاثة ... إلخ .

وقد رأى كل من الجاحظ وابن حزم أن هذه الآيات هى المبررة لهما فى حكاية أقوال اليهود والنصارى وعقائدهم ، فيقول ابن حزم بالنص أن سبب نقله كلام التوراة ما نزل فى الذكر الحكيم : « ولكن سهل علينا حكاية كفرهم ما ذكره الله تعالى لنا من ذلك »[3] ، وبذلك يكون ابن حزم سهل علينا أيضًا معرفة مصدره ،

---

(١) المصدر السابق ص ١٦٧

(٢) ابن حزم ومنهجه فى دراسة الأديان : د/ محمود على حماية دار المعارف ط١ ١٩٨٣م ص ١٢١:١٢٢

(٣) الفصل لابن حزم ج١ ص٣٢٧

وهو كتاب الله تعالى . وحتى لو لم يذكر ابن حزم مصدره ، فأرى أن هذا التشابه يرجع لرأى فقهى لكلا العالمين الجليلين مأخوذ من مصدر واحد وهو القرآن الكريم.

ونظرًا لأن ابن حزم فقيه فقد احتفى بذكر هذه الآيات المبررة له فى حكاية أقوال أهل الكتاب فذكرها فى أكثر من مكان سواء بكتاب الفصل(1) ، أو فى رده على ابن النغريلة اليهودى ، بينما الجاحظ ذكرها مرة واحدة فى أول كتابه (المختار فى الرد على النصارى)(2) .

وقد عبر عن هذه المشاعر النفسية ، التى تعترى المسلم حين يضطر لحكاية عقائد الكفار القرافى (ت ٦٨٤هـ) عندما أجاب على أسئلة النصارى ، فقال : « وأنا أستغفر الله العظيم من نقل كفرهم ، وسوء أدبهم ، وما الباعث على هذا إلا ليعلم الناظر فى هذا الكتاب من المسلمين ما أنعم الله عليه من نعمة الإسلام» (3) .

وقد كان ابن حزم يهتم بذكر مصادره فى الرد على النصارى خاصة إذا كانت من الجانب الإسلامى فى الرد على النصارى كما حدث من حكايته لجدل صديقه الحسن بن بقى لأحد النصارى ، وكما فعل حين ذكر أن أطلع على كتابات ابن النغريلة اليهودى من خلال رد أحد المسلمين عليه .

وينبغى أن نشير إلى أننا لا ننكر أنه قد يكون ابن حزم قد اطلع على (المختار فى الرد على النصارى) للجاحظ ، فهذا ما لا نقطع بنفيه .

---

(1) المصدر السابق ص ١١١ ، ١١٢ ، ٢٣٢ ، ٣٢٧

(2) وأعتقد أننا لو سألنا أى ذاكر لعقائد اليهود والنصارى من المسلمين لم تذكرها وهى كفر ؟ أجاب لأن القرآن الكريم قد حكى كلامهم فى معرض الذم ، وأنا أقتدى به وقد يكون هذا المجيب لم يقرأ كتب الجاحظ وابن حزم فى الرد على النصارى .

(3) الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة : القرافى تحقيق بكر ذكى عوض مكتبة وهبة ط٢، ١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م ، ص٤١٢

ج) الأندلسيون مصدر لبعضهم :

من الطبيعى أن تتوفر مؤلفات الأندلسيين بالأندلس ، فيفيد اللاحق من السابق ، وهذا ما حدث لابن أبى عبيدة الخزرجى حين قرأ (الفصل) لابن حزم ، وأفاد منه فى معالجة قضايا جدلية كانت قائمة بالأندلس ، والمشرق أيضًا ، كادعاء النصارى أنه ليس فى الجنة متاع حسى ، فنقل الخزرجى من ابن حزم بعض ردوده التى احتج بها ، لإثبات المتاع الحسى فى الآخرة ، وسبق أن ذكرنا نقل ابن حزم لكلام قدماء الهند ، وتعليقه على رأيهم فنجد الخزرجى ينقل كلام ابن حزم عن قدماء الهند ، ويكاد ينقل نفس تعليق ابن حزم ، إذ يقول عن قدماء الهند : « وهذا إيجاب من تلك الطائفة بأن هنالك ملابسًا ، وأكلاً ، وشربًا ، وأنهارًا ، وأشجارًا ، وغير ذلك»[(١)] .

وسنوفى هذه المسألة حقها فى الفصل الذى سنعقده عن مكانة جهود ابن حزم ، وابن أبى عبيدة فى حقل الجدل الدينى لأهل الكتاب .

بعد دراستنا لأسباب الجدل الدينى التى دفعت ابن حزم والخزرجى للرد على أهل الكتاب ، ومصادرهما العلمية فى هذا المجال ، فإنه يجدر بنا أن نتعرف على آداب الجدل لدى ابن حزم الأندلسى ، لارتباط هذه الآداب ارتباطًا وثيقًا بأهم المصادر التى اعتمد عليها فى الرد على اليهود والنصارى ، وهى القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة ، وأقوال الصحابة رضى الله عنهم .

---

(١) المقامع للخزرجى ص ٢٨٢

ثانيا : مفهوم الجدل وآدابه عند ابن حزم الأندلسى

الأدب لغة يعنى رياضة النفس بالتعليم والتهذيب على ما ينبغى لصاحب الصناعة أو الفن أن يتمسك به(١) . يقال أدُبَ فلان أدبًا أى راض نفسه على المحاسن ، وأدبه راضه على محاسن الأخلاق(٢) ، والأدب اصطلاحًا هو معرفة ما يحترز به عن جميع أنواع الخطأ ، وآداب البحث والمناظرة : صناعة نظرية يستفيد منها الإنسان كيفية المناظرة ، وشرائطها صيانة له عن الخبط فى البحث ، وإلزامًا للخصم وإفحامه(٣) .

والجدل فى اللغة هو مقابلة الحجة بالحجة ، والمجادلة هى المناظرة ، والمخاصمة(٤) ، ويعرف إمام الحرمين الجوينى (ت ٤٧٨هـ) الجدل بأنه : « إظهار المتنازعين مقتضى نظرتهما على التدافع ، والتنافى بالعبارة ، أو ما يقوم مقامهما من الإشارة والدلالة » (٥) .

مما سبق يتضح لنا أن الجدل يكون نتيجة خلاف بين طرفين أو عدة أطراف حول قضية ما ويحاول كل طرف إثبات صحة حجته ، وفى الوقت نفسه دفع حجج الآخر فالمجادل يقوم بعمليتين اثنتين أحدهما : إثبات فساد أدلة الخصم والثانية يأتى فيها المجادل بأدلته ، ويحاول البرهنة عليها .

---

(١) المعجم الوسيط : إخراج د. إبراهيم أنيس - د. عبد الحليم منتصر - عطية الصوالحى - محمد خلف الله أحمد - ط٢ - ج١ ص ٩ بدون تاريخ

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة

(٣) التعريفات : الشريف الجرجانى سنة ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م ص١٠

(٤) لسان العرب لابن منظور دار المعارف ط١ مادة الجدل ص٥٦٩ : ٥٧١

(٥) الكافية فى الجدل : عبد الملك بن عبد الملك بن يوسف بن محمد بن حيويه المعروف بالجوينى، ت ٤٧٨هـ - تحقيق د. فوقية حسين محمود ، طبع - عيسى البابى الحلبى وشركاه ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، ص٢١

وقد أخذ الجدل DIALECTIC معانى متعددة فى المدارس الفلسفية المختلفة، فعلى سبيل المثال كان الجدل يعنى لدى سقراط مناقشة تقوم على حوار (سؤال وجواب)(١) .

والجدل فى الإسلام علم من العلوم الذى استقى المسلمون مباده من القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ، ومن ثم وضع علماء المسلمين آدبًا ، وأحكامًا لهذا العلم يعرف المجادل من خلالها كيف يستدل ؟ وكيف يعارض ؟ ومتى يسكت ؟ ومتى يتكلم؟

ويذكر ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) تعريفًا لعلم الجدل جاء فيه : « أنه معرفة بالقواعد من الحدود ، والآداب فى الاستدلال ، التى يتوصل بها إلى حفظ رأى ، وهدمه»(٢) .

والحق أقول إننا حين نتعرض لدراسة آداب الجدل عند ابن حزم الأندلسى فإننا فى حقيقة الأمر ندرس آداب الجدل فى الإسلام ، كما صورها ابن حزم ، أو كما انعكست من فكره ، وتكتسب دراسة آداب الجدل عن ابن حزم أهمية خاصة تنبع من أن ابن حزم عالم مجادل بالدرجة الأولى ، فإذا ذكر ابن حزم يتطرق إلى الذهن مباشرة سمة الجدل ، التى عرف بها أكثر من أى سمة أخرى ، فقد كان ثائرًا على التقليد فى الدين وهذا دعاه إلى الاشتغال بالجدل والخوض فيه مع العلماء قبل العوام ، كما أنه كان ثائرًا على الأوضاع السياسية والاجتماعية والفكرية ، التى كانت تحيط به ، وهذا سيؤدى به إلى أصعب ، وأخطر أنواع الجدل ، ومن ثم حين يذكر ابن حزم آدابًا للجدل فهو يضع بين يدى القارئ خلاصة تجاربه الجدلية ، ومن ثم حين يذكر ابن حزم آدابًا للجدل فهو يضع بين يدى القارئ خلاصة تجاربه الجدلية ، التى ذاق مرارتها ، وعانى من ويلاتها بالإضافة إلى أن ابن حزم عالم

(١) انظر فى التعريفات المختلفة للجدل المعجم الفلسفى الصادر عن مجمع اللغة العربية – الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م ، ص ٥٩ ، ٦٠

(٢) مقدمة ابن خلدون عبد الرحمن بن خلدون ص ٢١ ، بلا بيانات نشر ، انظر مبحث أصول الفقه وما يتعلق به من الجدل والخلافيات

نفى، وأخلاق فهو حين يحلل أغوار النفس البشرية فى كتابه (الأخلاق والسير فى مداواة النفوس) فكأنه يحلل ولو بشكل غير مباشر أحوال وطباع المجادلين ، وبواعثهم النفسية ؛ لاتخاذ مواقف معينة ، خاصة بعض الشخصيات التى حلل ابن حزم نفسيتها فى هذا الكتاب كان له معها مواقف جدلية، كذلك مواعظه الأخلاقية ، وإرشاداته فى كيفية إلقاء الموعظة تدخل فى آداب الجدل ، التى ينبغى أن يتحلى بها المجادل .

وللجدل عند ابن حزم أنواع ذكرها فى مؤلفاته ، سنتحدث عنها بشىء من التفصيل :

١ – مفهوم الجدل وأنواعه عند ابن حزم :

يعرف ابن حزم الجدل بقوله : « والجدل والجدال : إخبار كل واحد من المختلفين بحجته ، أو بما يقدر أنه حجته ، وقد يكون كلاهما مبطلاً ، وقد يكون أحدهما محقًا والآخر مبطلاً ، إما فى لفظه وإما فى مراده ، أو فى كليهما ، ولا سبيل أن يكونا معًا محقين فى ألفاظهما ، ومعانيهما »(١) .

وتعريف ابن حزم للجدل يتميز بأنه يحتوى على قسمة عقلية لأحوال المتجادلين ، فإما أن يكونا على باطل ، أو أحدهما على حق ، والآخر على باطل ، ويخرج من هذه القسمة أن يكون كلا المتجادلين على حق ؛ لأن اليقينيات لا يمكن فى البنية أن تتعارض أبدًا(٢) .

وإذا كان بعض العلماء يفرق بين الجدل والمناظرة على أساس أن المناظرة تعنى تبادل وجهات النظر لطلب الحق فى الموضوع، الذى اختلفت فيه أنظار المتناقشين(٣)،

(١) الأحكام فى أصول الأحكام ابن حزم الأندلسى دار الجيل بيروت ط٢ –١٤٠٧هـ ١٩٨٧م ج١ ص٤٥
(٢) الفصل لابن حزم ج٢ ص ٣١٣
(٣) تاريخ الجدل : محمد أبو زهرة دار الفكر العربى ص٥

وأن الجدل يقصد به المغالبة ، والسبق ، والإلزام ، والإفحام فى مقام الاستدلال لا مجرد طلب الحق[١] . فإن ابن حزم لا يرى هذه التفرقة حتى إن كلمتى الجدل والمناظرة تتبادلا المواقع فى كتاباته ويرى ابن حزم أن الجدل قسمان : « قسم فى واجب وحق ، وقسم فى باطل» [٢] والجدال الذى يدعو إليه ابن حزم هو الذى فى طلب الحق ونصره ، وإزهاق الباطل[٣] .

ويذكر ابن حزم أن الجدل فى الشرع نوعان :

أ) جدل مأمور به محمود شرعًا :

هذا النوع من الجدل أوجبه سبحانه وتعالى فى قوله : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [٤] .

ويذكر أبو محمد حديثًا وصفه بأنه فى غاية الصحة ، حيث ورد عن النبى [أنه قال : « جاهدوا المشركين بأموالكم ، وأنفسكم ، وألسنتكم» [٥] ففى هذا الحديث أمر بالمناظرة ، وإيجابها كوجوب الجهاد ، والنفقة فى سبيل الله تعالى[٦] .

---

(١) ابن حزم حياته وعصره - آراؤه وفقهه للإمام محمد أبو زهرة دار الفكر العربى ص١٧٩

(٢) المحلى بالآثار فى شرح المجلى بالاختصار : ابن حزم الأندلسى تحقيق لجنة إحياء التراث العربى، دار الجيل ، ودار الآفاق بيروت ج٧ مسألة ٨٦٥ ص ١٩٦

(٣) الأحكام ج١ ص٣٠

(٤) سورة النحل آية ١٢٥

(٥) انظر سنن الدارمى كتاب الجهاد باب (فى جهاد المشركين باللسان واليد) طبع دمشق ١٣٤٩م ج٢ ص٢١٣ ، ورد أن رواة الحديث عمرو بن عاصم حدثنا حماد بن سلمة ، ثنا حميد عن أنس عن النبى ﷺ - وأنظر سنن أبى داوود - كتاب الجهاد باب كراهية ترك الغزو ضبط وتعليق محمد محيى الدين عبد الحميد المكتبة التجارية بمصر ج٢ ، ١٣٦٣هـ ١٩٥٠م ، ج٣ ص١٦ حديث رقم ٢٥٠٤- ورد أن رواة الحديث هم موسى بن إسماعيل ، ثنا حماد عن حميد عن أنس عن النبى ﷺ .

(٦) الأحكام لابن حزم ج١ ص٢٩

ومعلوم أن المسلمين مأمورون باتباع ملة إبراهيم الذى حاج قومه، والملك المتأله، ولذلك فرض الله على المسلمين جدال أهل الباطل لصرفهم إلى الحق[1] ، ويدخل فى هذا النوع من الجدل أن يكون أحد الطرفين على بينة من صدق قوله ، ويملك ناصية الحقيقة ، والثانى لم يقف على بيان الحقيقة بعد ، وإن كان يأمل الوصول إليها ، فتلك أيضًا مناظرة فاضلة محمودة العاقبة ، ويستدل ابن حزم بالآيات القرآنية التى تدعو إلى الجدل بالحسنى، وطلب البرهان ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[2]، ويصف ابن حزم من يذم أمثال تلك المناظرات بأنه « سخيف جاهل مذموم الطبع مفسد على الناس قد جعل هذا النفار[3] ستاره دون جهله ، فلم يقنع بأن حرم نفسه الخير حتى سعى فى أن يحرمه سواه» [4] .

ب) جدل منهى عنه مذمومًا شرعًا :

وهذا النوع من الجدل يجادل فيه صاحبه من غير حجة ، وفى الباطل قال تعالى : ﴿ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾[5] .

والجدل المذموم وجهان كما فهم ابن حزم من القرآن الكريم :

- **جدل بغير علم :**

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴾ [6] .

- **جدل لنصرة الباطل :**

ويتمثل فيما سبق أن ذكرناه من قول الحق سبحانه وتعالى:

(١) المصدر السابق ص٢٤

(٢) سورة البقرة ، آية ١١١

(٣) النفر : التفرق ، وكل جازع من شيء نفور ، ونفر ينفر نفورًا ونفارًا إذا فر وذهب لسان العرب لابن منظور مجلده - دار صادر - بيروت ١٩٥٦م ١٣٧٥هـ مادة - ن - ف - ر ص ٢٢٤

(٤) التقريب لحد المنطق : ابن حزم ص ١٨٦

(٥) سورة الكهف ، آية ٥٦

(٦) سورة الحج ، آية ٣

﴿ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ (١) .

وقد جمع الله عز وجل - نوعى الجدل المذموم فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ۞ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾(٢) .

وقد حرم الله عز وجل الجدل المذموم بنوعيه ؛ لأن صاحبه يجادل لينصر الباطل، ويبطل الحق(٣) .

ومن أمثلة هذا النوع من الجدل المذموم أن يكون المتناظران معًا غالطين أو مغالطين(٤) .

وقد ذكرنا أن من الجدل المحمود أن يكون أحد المتناظرين طالبًا الحق، والثانى يملك ناصية الحقيقة ، ولكن أحيانًا يكون أحد الطرفين غالطًا أو مغالطًا ، والآخر وإن كان ليس مغالطًا ولكنه جاهل ، فتكون النتيجة كما يعبر ابن حزم أنها : «مناظرة يكثر فيها الشغب ، ويعظم النصب ، ويكثر الصخب ، ويشتد الغضب ويوشك أن تشتد مضرتها ، وأما المنفعة فلا منفعة » (٥) .

وتعظم مصيبة هذا الجدل حين يكون طالب الحقيقة جاهلاً ، ومسارعًا إلى قبول ما يقرع سمعه بلا برهان صحيح فيهلك باعتقاد الباطل وقبوله(٦) .

٢ - موقف ابن حزم ممن يرون أن الجدل مكروه بإطلاق :

رغم أن ابن حزم قد بين مثالب الجدل المذموم ، والمنهى عنه شرعًا، فإنه يرد على الذين يرون أن الجدل مكروه على الإطلاق ، فيسألهم عن موقفهم من القضايا

(١) سورة الكهف ، آية ٥٦
(٢) سورة الحج ، آية ٨ ، ٩
(٣) الإحكام ص٢٧
(٤) التقريب لابن حزم ، ص ١٨٦
(٥) المصدر السابق ص ١٨٦
(٦) المصدر السابق ص ١٨٦

المختلف فيها وما أكثرها - خاصة إذا كانت بين من يثقون فيهم - ولا مناص لأصحاب هذا الرأى طالما نحوا الجدال جانبًا - أن يرجعوا إلى التقليد ، أو الإيهام ، أو ترك طلب الحق[(١)] ، وكل هذه الوجوه باطلة فاسدة فإذا بطلت صح الجدال[(٢)] ، وما أضعف حجة من يروم إبطال الجدال بالجدال وهدم الاحتجاج بالاحتجاج، ويتكلف فساد المناظرة بالمناظرة ، والسبب بسيط جدًا ؛ لأنه يصبح : «مقرًا على نفسه أنه يأتى بالباطل ؛ لأن حجته هى بعض الحجج التى يريد إبطال جملتها[(٣)] «فصاحب هذا الرأى يبطل الجدل بالحجج الجدلية ، فكيف يبطل الجدل ، وهو يعتمد على الجدل فى إبطاله للجدل ؟» .

أما الذين قصرت عقولهم عن أن ينظروا للقرآن الكريم نظرة شمولية فاحتجوا ببعض الآيات ، التى حرَّمت الجدل فإن ابن حزم يسوق حججهم ، ويشرح وجه الصواب فى فهمهما ، فمما احتجوا به قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ﴾[(٤)] .

وهذه الآية توضح وجه الجدل المذموم ؛ لأن هؤلاء الذين حرم الله جدالهم ، قد تبين لهم الحق فعاندوا[(٥)] ، فأصبح لا معنى ولا فائدة فى جدالهم .

وأيضًا احتج من يحرمون الجدل بقوله عز وجل : ﴿ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾[(٦)] .

---

(١) المصدر السابق ص ١٩٠
(٢) المصدر السابق ص ١٩٠
(٣) الإحكام جـ١ ص ٣٠
(٤) سورة الشورى ، آية ١٥ ، ١٦
(٥) الأحكام لابن حزم ص ٢١
(٦) سورة الزخرف ، آية ٥٨

ويجيب ابن حزم بأن المذمومين فى هذه الآية هم الذين يجادلون بالباطل ؛ لأنهم عارضوا الآلهة ، التى كانوا يعبدونها بسيدنا عيسى – عليه السلام – المؤيد بالمعجزات الدالة على نبوته(١) .

ويرد أبو محمد – كما ترد كنيته فى كتبه – على الطوائف الضالة ، التى تعتقد اعتقادات باطلة ، وحين مناظرتهم يتذرعون بأنهم نهوا عن الجدال(٢) ، بما سبق أن ذكرناه من الآيات التى تدعوا إلى الجدل بالحسنى ، كقوله تعالى : ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾(٣) .

وأخبر تعالى عن قوم سيدنا نوح فى معرض الذم لهم أنهم قالوا : ﴿ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ﴾(٤) .

كما أن الله تعالى ذكر فى ثنايا كتابه الكريم أصول البراهين(٥) ودافع ابن حزم عن الإسلام دفاعًا مجيداً ضد الذين ادعوا أن الدين لا يؤخذ بحجة مبينًا خطورة هذا القول فهو قرة عين الملحدين ، وصدق أبو محمد فقد رأينا منهم فى حاضرنا المعاصر من يدعى أن الإسلام يؤخذ صفقة واحدة ، ونسى أولئك أو تناسوا أن الإيمان فى الإسلام قائم على البرهان وتدبر السموات والأرض .

وبالإضافة إلى دعاوى القرآن الكريم ، والسيرة المطهرة للجدل بالحسنى ، فما علمنا أن أحداً من الصحابة – رضوان الله عليهم – نهوا عن الاحتجاج ، وقد حاج ابن عباس الخوارج(٦) .

وهكذا نجد ابن حزم وقف موقفًا إيجابيًا فى توضيح موقف الإسلام من الجدل، فلم يحرمه على الإطلاق، ولم يبيحه بلا إرشادات، وآداب، وهو ما نتعرض له فيما يلى:

(١) الإحكام لابن حزم ، جـ١ ص٢٢
(٢) الفصل لابن حزم جـ٢ ص ٢٣٦
(٣) سورة النحل ، آية ١٢٥
(٤) سورة هود ، آية ٣٢
(٥) الفصل لابن حزم ، جـ٢ ص٢٣٦
(٦) الفصل لابن حزم جـ٢ ص٢٣٦، ومن جانبنا نضيف أن سيدنا عمر بن عبد العزيز قد جادل القدرية.

٣ - آداب الجدل عند ابن حزم الأندلسى :

غالبًا ما يعتمد ابن حزم فى حديثه عن الجدل ، وآدابه على مشاهداته، وتجاربه الجدلية، فإننا نراه يذكر أحوال المجادلين ، وطباعهم ، وكيفية التعامل معهم ، ويحذر من ألاعيبهم الجدلية ، ولا ينسى أن يذكر توجيهاته الفكرية ، والعلمية ، والأخلاقية، التى يدعو من خلالها أن ينهجها أثناء الجدل والمناظرة ؛ لأنهما بمعنى واحد عنده ، ومن أهم آداب الجدل عن ابن حزم .

١ - الرجوع إلى القرآن والسنة عند حدوث الخلاف بين المسلمين[١] ، فيقول تعالى : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾[٢] .

٢ - الرفق والتزام الحق إذ قال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾[٣] .

ويعلق ابن حزم على هذه الآية الكريمة قائلاً إن الله تعالى : « قد أوجب الجدال فى هذه الآية ، وعلم فيها تعالى جميع آداب الجدال من الرفق ، والبيان ، والتزامالحق ، والرجوع إلى ما أوجبته الحجة القاطعة »[٤] .

---

(١) ركز ابن حزم على هذا المبدأ وكرره كثيرًا فمثلاً يقول : « المرجوع إليه عند التنازع كلام الله تعالى، وكلام رسوله ﷺ » المحلى : ابن حزم ج٨ – ص٥٢

(٢) سورة النساء ، آية ٥٩

(٣) سورة النحل ، آية ١٢٥

(٤) الإحكام لابن حزم ج١ – ص٢٢ . ويؤكد الغزالى كلام ابن حزم إذ يقول عن أهمية الرجوع إلى الحجة السليمة أيا كان مصدرها : « أن يكون فى طلب الحق كناشد ضالة لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يده ، أو على يد من يعاونه ، ويرى رفيقه معينًا لا خصمًا ، ويشكره إذا عرفه الخطأ وأظهر له الحق ، كما لو أخذ طريقًا فى طلب ضالة فينبهه صاحبه على ضالته فى طريق أخر فإنه يشكره ولا يذمه ويفرح به فهكذا كانت مشاورات الصحابة رضى الله عنهم حتى أن امرأة ردت على عمر بن الخطاب رضى الله عنه ونبهته إلى الحق وهو فى خطبة على ملأ من الناس» – إحياء علوم الدين للغزالى – شركة ومطبعة البابى الحلبى وأولاده بمصر سنة ١٣٥٨هـ .

ويطلب ابن حزم ألا يدعى أحد قولاً إلا بحجة مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾(١) .

ويذكر ابن حزم أن المقصود بالسلطان فى هذه الآية بلا اختلاف بين أهل العلم ، واللغة هو الحجة(٢) فالحجة الصحيحة عند ابن حزم لها أهمية كبرى فى إفحام الخصم ، وهى أعظم ما يضيق به الكفار حتى أنه قد تهزم العساكر الكبار ، والحجة السليمة لا تغلب أبدًا .

ويقول أبو محمد فى ذلك : « فهى أدعى إلى الحق ، وأنصر للدين من السلاح الشاكى، والأعداد الجمة ، وأفاضل الصحابة الذين لا نظير لهم ، إنما أسلموا بقيام البراهين على صحة نبوة محمد ﷺ »(٣) .

وتتضح مدى أهمية الحجة ، وخصوصيتها لدى ابن حزم إذا عرفنا أن من أهم سمات منهجه الفقهى رفض التقليد فى الدين مهما كانت مكانة المقلد العلمية(٤) ، فليس للمقلد أن يتبع أحدًا إلا أن يذكر له صاحب الفتيا الحجة والدليل على صدق فتواه ، ولذلك شدد ابن حزم على من يظهر له البرهان على صحة رأى ما ، ومع ذلك يتبع ما ألفه من المذاهب المخالفة لهذا البرهان الصحيح لدرجة أنه يقول : « لا بد ها هنا حجة برهان تعارض البرهان وإن خفيت عنى »(٥) .

(١) سورة يونس ، آية ٦٨
(٢) الأحكام ج١ ص٢٣
(٣) الأحكام ج١ ص٢٨
(٤) لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن رفض التقليد كان هدف ابن حزم الأكبر ، الذى ناضل من أجله، وتعرض بسببه لهجوم بعض فقهاء عصره .
(٥) التقريب ص ١٩٥

وهذا القول ظن من صاحب البرهان اليقيني ، فيكون قد « غلب ظنه على يقينه ، وصدق ما لم يصح عنده ، وكذب ما صح عنده ، وأثبت ما لعله أن لا يكون ، وترك حاصلاً قد كان ، وهذا غاية الخذلان ، ومثله من ترك برهانًا قد صح عنده لتمويه لم يتدبره فحمله التهور على اعتقاده»[1] .

٣ - ويذهب ابن حزم إلى أن من آداب الجدل ، التي عول عليها الرسول ﷺ - كيفية وضع السؤال موضعه ، وكيفية المحاجة[2] ، فقال جل من قائل :

﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [3] .

ومن آداب الجدل عند ابن حزم أن تكون حجة المجادل قائمة على العلم البرهاني اليقيني وأن يجادل الإنسان فيما له به علم ، وفي ذلك قال تعالى : ﴿ هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ﴾[4] .

ومن ثمَّ ينعى أبو محمد على الذين يتبعون أقوالاً بلا علم بصحتها[5] . بل إن من لم يرجع إلى البرهان بعد ما تبين له فهو من أهل النار ، فقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ، أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ﴾ [6] .

أما ما لا نعلم بصحته فيرى ابن حزم أن نتوقف فيه ، فيقول : « وإنما يجب على العاقل أن يثبت ما أثبت البرهان ، ويقف فيما لم يثبته برهان حتى يلوح له الحق»[7] .

ويدعو ابن حزم ألا يتحدث أحد في علم من العلوم حتى يتبحر في هذا العلم ، أما إن كان حديثه على سبيل الاستفهام ، وطلب الاستزادة من تلك العلوم فهذا مقبول .

---

(١) المصدر السابق ص ١٩٥
(٢) الأحكام جـ١ ص ٢٩
(٣) سورة البقرة ، آية ١٥١
(٤) سورة آل عمران ، آية ٦٦
(٥) الإحكام : ابن حزم ج١ ص٢٥
(٦) سورة العنكبوت ، آية ٦٨
(٧) التقريب لابن حزم ص١٩٣

وتتفق رؤى ابن حزم هذه مع مواقف الغزالى (ت ٥٠٥ هـ) ، الذى كان يرى : «أن رد المذهب قبل فهمه ، والإطلاع عليه رمى فى عماية» [١] ، بل إن الغزالى يشدد على ضرورة التزود من العلوم قبل الحكم عليها ؛ إذ يقول : « وعلمت يقيناً أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم حتى يساوى أعلمهم فى أصل ذلك العلم ثم يزيد عليه من غور وغائله » [٢] .

٥ - ويضع ابن حزم قواعد ، وضوابط تحكم سير العملية الجدلية يمكن تلخيصها فى النقاط التالية :

أ) أن يتوفر الأمان الكافى حتى لا يمتنع أحدهم عن الجواب لخوف من شىء ما كوجود أمير مثلاً [٣] ، ولعل هذا ما دفع الغزالى (ت ٥٠٥ هـ) إلى أن يفضل المناظرة فى الخلوة عن المحافل وبين الأكابر والسلاطين ، حتى لا تتحرك دواعى الرياء بين المتناظرين ، كما أن المناظرة فى الخلوة يتوافر فيها صفاء الذهن الذى يمكِّن من الوصول إلى إدراك الحقائق[٤] .

ب) تحديد الموضوع المتنازع عليه ، فكثيراً ما يتنازع الخصمان ، وأخدهما يريد معنى ، والآخر يريد معنى آخر[٥] ، ويضرب ابن حزم مثلاً لذلك بالألفاظ المشتركة فى اللغة[٦] ككلمة (نسر) التى تطلق على الطائر المبالغ فى

---

(١) المنقذ من الضلال للغزالى : ومعه كيمياء السعادة ، والقواعد العشرة ، والأدب فى الدين تعليق محمد محمد جابر مكتبة الجندى بالقاهرة ، ص١٧

(٢) المصدر السابق ص ١٦ ، ١٧

(٣) التقريب : ابن حزم ص ١٨٧

(٤) إحياء علوم الدين للغزالى شركة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر ١٣٥٨هـ ، ١٩٣٩م جـ١ - ص ٥٠

(٥) التقريب : ابن حزم ص ١٨٦

(٦) الألفاظ المشتركة فى اللغة هى التى تتشابه ، وتتفق فى هيئتها وترتيب حروفها إلا أنها تقع على معانى شتى .

الاستعلاء الذى يأكل الجيف ، وعلى حافر الفرس ، وأيضًا يقال نسر للنجم ، فعلى المتجادلين أن يتفقوا على تحديد مقصودهم بكلمة نسر كى لا تصبح الجهة منفكة فى العملية الجدلية ، فأحد المتجادلين يتكلم على نسر ، والآخر يتكلم على نسر غيره حتى أن ابن حزم ينبه إلى أن أهل الشر ، والفسق ، والسفسطة أدخلوا الآفاقت العظيمة على الناس من قبل اشتراك الأسماء ، واشتباكها على المعانى الواقعة تحتها ، وهو ما يؤكده ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) الذى يروى أن أكثر اختلافات العقلاء من جهة اشتراك الأسماء(١) .

وفى مطالبة ابن حزم بتحديد مدلولات الألفاظ بحيث لا تقع الأسماء على غير مدلولاتها فضل سبق لما سوف ينادى به كثير من مفكرى العصر الحديث كراسل ، وفتجنشتين(٢) ، حيث يريا أن مصدر الشرور الاجتماعية إنما يتمثل فى الاستخدام، والفهم الخاطئ للكلمات(٣) .

جـ) وإذا ما اتفق على تحديد الموضوع المتنازع عليه ينبغى أن يتحلى المتناظرون بالاختصار ، الذى لا يقصر عن البيان فى أقوالهم ، فيعبر المجادل عن مراده بما يفهم به خصمه بلا مزيد فى الألفاظ ، وتكون أقوالهم سهلة ، وفصيحة وواضحة(٤) ، ولكن هذا الاختصار المطلوب لا يمنع من أن يفسح المجال كاملاً للمتحدثين ، فلا يقطع أحدهما كلام صاحبه حتى يتمه(٥) .

د) ونظم ابن حزم عملية المداخلات التى قد تتم أثناء المناظرات ، فنصح ألا

---

(١) الجواب : الصحيح لمن بدل دين المسيح : ابن تيميه .

(٢) لورد فيج فتجنشتين من علماء القرن العشرين من مؤلفاته كتاب (أبحاث فلسفية) وترجم له الدكتور عزمى إسلام رسالة منطقية فلسفية .

(٣) ابن حزم وأراؤه الكلامية والأخلاقية د. صلاح الدين رسلان رسالة دكتوراه بجامعة القاهرة- كلية الآداب قسم الفلسفة ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م ، ص ٢٧ ، ٢٨.

(٤) التقريب لابن حزم ص ١٨٩

(٥) المصدر السابق ص ١٨٦

يتدخل طرف ثالث بين المتناظرين إلا أن ير حيفًا[1] ظاهرًا فيشهد به[2] لأنه قد يُعرِّض نفسه لسخرية كلا المتناظرين ، فربما يقول له الطرف المنحاز له : « أنا غنى عن نصرك »[3] أما الطرف المهاجم فقد يقول لمناظره على سبيل السخرية : «أنا أقويك به مباركًا لك فيه »[4] .

هـ) ويحذر أبو محمد من التنازع فى الكلام كأن يقول كل واحد من المتناظرين للآخر : أنا أبدأ بالسؤال ، أو أنت السائل أولاً . حتى أنه يعتبر ذلك عجز ، وقلة ثقة من كلا المتناظرين على إثبات صحة القول الذى يريدان بيانه ، أو بصحة القول نفسه ؛ ولذلك ينصح ابن حزم من ليس عنده ثقة بصحة قوله أن يتسع فى طلب العلم ، ويتجنب الدخول فى مناظرات حتى يقوى علميًا ، أما الذى ليس عنده ثقة بصحة قوله فلا يكون نصيبه من ابن حزم سوى اللوم الشديد[5] ، لأنه يتخذ موقفًا وهو يتشكك فى صحته .

وعلى كلٍ فإن ابن حزم يشدد على ضرورة الاتفاق على أمر يبدأ به فى المناظرة وأمام هذه المواقف المترددة من المتناظرين يضرب لنا أبو محمد مثلاً من مناظراته فلأنه يثق فى صدق مذهبه ، وإقامة الدليل على صحته فإنه يفسح المجال لخصمه أن يتخير كما يشاء فى أن يكون سائلاً أو مسئولاً .

ولكن ماذا يكون موقف ابن حزم لو أن خصمه هو الذى خيره ؟

يخبرنا أبو محمد بما يدل على معرفة بأحوال مناظريه ، ونفسياتهم ، بأنه يسمح لمناظره أن يكون هو السائل أولاً فلماذا ؟

(١) الحيف هو الظلم
(٢) التقريب لابن حزم ص ١٨٦
(٣) المصدر السابق ص ١٩٦
(٤) المصدر السابق ص ١٩٦
(٥) التقريب لابن حزم ص ١٨٧

لأنه يريد أن يعطى لخصمه أفضل الفرص المتاحة له فى مجال المناظرة خاصة أن الإنسان حين يكون فى موضع السائل أو المعترض يظن أنه فى موقف الأقوى (موقف هجومى) وهذا غاية قصد الضعفاء ، وعمدة مرغوبهم لأنهم يضعفون إذا وضعوا فى موقع المسئولين فإذا ما تمت الإجابة على اعتراضاتهم يكون أقوى ما يتعلقون به قد فقدوه فيسهل إثبات صحة الرأى المخالف لآرائهم[(١)] .

أما إذا طلب الخصم أن يكون ابن حزم هو السائل فإنه يوافقه على مطلبه وفى النهاية فإن ابن حزم يقدم نصائح لكلا المتناظرين بما يمكن أن نلخصه فى أن يعطى كلاً منهما للآخر الفرصة كاملة فى أن يكون سائلاً أو مسئولاً[(٢)] .

و) ويحذر ابن حزم – كذلك – من الانتقال من مسألة لمسألة أخرى أثناء الجدل ، قبل توفيه المسألة السابقة حقها من البحث ، ويتهم من يعمد لذلك بالشغب والجهل[(٣)] .

ز) وإذا رأى أحد المتجادلين أن حجته فاسدة ، فأحب أن يتركها لغيرها ، فله ذلك ، بل إن فعله هذا حسن فى المناظرة ، ولا يوسم بالانقطاع[(٤)] ، وليس لمناظره أن يمنعه من ذلك . ويؤكد الغزالى (ت ٥٠٥هـ) على ضرورة السماح للمتناظرين من الانتقال من دليل إلى دليل ، ومن إشكال لآخر مذكّرًا أنه هكذا كانت مناظرات السلف رضوان الله عليهم[(٥)] .

ولكن متى يكون سكوت أحد الطرفين دليلاً على إنتهاء المناظرة ؟

يتحقق ذلك حين يجيب الخصم السائل فيسكت ، ولا يعترض السائل مرة

(١) المصدر السابق ص ١٨٧
(٢) المصدر السابق ص ١٨٧
(٣) المصدر السابق ص ١٨٩
(٤) المصدر السابق ص ١٨٦
(٥) إحياء علوم الدين للغزالى جـ ١ ص ٥٠

أخرى[١] ولكن قد يكون السائل سكت خوفًا من شىءٍ ما أو يكون المجيب أتى بما لا يُعقل ، أو أجاب عما لم يسأل عنه جهلاً أو مكابرة ، وهنا يقول ابن حزم : « فمن هذه صفته فسكوت الخصم عن معارضته جواب ، إلا بإخباره بأن الذى أتى به ليس مما هما فيه ... »[٢].

واستأنس ابن حزم لبيان أدلة انقطاع أحد المتناظرين بكلام سابقيه من العلماء، الذين وصفهم بالأوائل ، فمما ذكروه فى هذا المجال[٣] :

- أن يقصد أحد الطرفين إبطال الحق أو التشكيك فيه .
- أن يعمد إلى المجاهرة بالباطل والبهت ، وعدم المبالاة بتناقض أقواله ، ولا بفساد ما ذهب إليه .
- تغيير مجرى الحديث من قول إلى قول ، ومن سؤال إلى آخر للخلط والتمويه ، وليس للتوضيح والإبانة .
- استعمال الكلام الغامض حتى يظن السامع أن كلامه مملوء حكمة، وحقيقة الأمر عكس ذلك .
- محاولة إحراج خصمه ، وإلجائه إلى تكرار الكلام بلا زيادة فائدة (جدل عقيم) .
- التصدى على المجادل بمحاولة استجهال كلامه ، وربما السب ، والتكفير ، واللعن، والقذف بالأمهات ، والآباء إن لم يكن اشتباك بالأيدى ، ولطم الخدود .

---

(١) يذهب ابن تيمية إلى رأى قريب من هذا فيقول : « ومن أثبت شيئًا أو نفاه ، وطلب منه الحجة، فلم يأت بها كان منقطعًا فى المناظرة ، وإذا اعترض المعترض عليه بممانعة أو معارضة فأجاب عنها انقطع المعترض عليه وثبت قول الأول وإن لم يجب عن المعارضة انقطع المستدل إذا كان الدليل الذى يجب اتباعه هو الدليل السالم عن المعارض المقاوم ولو أقام دليلاً قطعيًا فعورض بما لا يفيد القطع كان له أن يقول ما ذكرته يفيد العلم والعلم لا يعارض الظلم ، والبينات لا تُعارض بالشبهات التى هى من جنس كلام السوفسطائيين » الجواب الصحيح ابن تيمية جـ٢ ص٢٩١

(٢) التقريب : لابن حزم ص١٨٨

(٣) التقريب : لابن حزم ص١٩٧

وإجمالاً فإن ابن حزم يرى أن الانتهاء إلى الحقيقة فى الجدل ليس بانقطاع أحد المتجادلين جهلاً ، أو خوفًا ، أو لشغل بال طرقه[1]، والحق مبين فى مجال الملل- وهو ما يهمنا - بموجب العقل والبراهين الراجعة إلى أول الحس، والضرورة[2] .

وهكذا نرى مكانة العقل ، والبرهان فى فكر ابن حزم اللذين هما مناط الجدل السليم فليس المطلوب فى المناظرة قسر الألسنة إلى الإقرار بالحق ، ولكن المهم هو قسر النفوس إلى الإقرار به ، وذلك بإقامة البرهان السليم ، الذى يقطع الألسنة عن المعارضة الصحيحة ؛ لعدم وجودها أصلاً[3] .

ح) ويرفض ابن حزم اللجوء إلى طريقة الفتقلة فى الجدل (فإن قال قلنا) ؛ لأنه يرى أن من الجائز ألا يقول الخصم ذلك .

أما إن كان المجادل يرد على مؤلف بعينه ، فإنه يرى ضرورة الإجابة عن جميع الحجج الواردة بهذا المصنف ؛ لأن فى هذا إنصاف لمن يرد عليه ، ويستنكر أبو محمد من يقوِّل مجادلة ما لم يقل ؛ لأن هذا كذب[4] .

ط) ويذهب ابن حزم إلى تخطئة من يعارض الخطأ بالخطأ ، كأن يقول السائل : أنت تقول كذا ، أو لم تقول كذا ، فيقول المجيب كأنه يعتذر وأنت تقول أيضًا كذا ، أو لأنك أنت أيضًا تقول كذا ، فيأتيه بأشنع مما أنكر عليه ، أو مثله وهذا فى نظر أبى محمد خطأ فاحش بل عار عظيم ، واقتداء بالخطأ .

ومثل هذا النوع من المناظرة يرفضه ابن حزم لسبب واضح وهو أن كلا المتناظرين سيكونا على باطل ، ولا يخفى أن هذا من الجدل المذموم المنهى عنه

(١) التقريب : لابن حزم ص ١٨٨

(٢) الرد على ابن النغريلة اليهودى ، ورسائل أخرى لابن حازم (رسالتان أجاب فيها عن سؤال سئل فيهما سؤال تعنيف) تحقيق د/ إحسان عباس ص١١٤ دار العروبة ١٣٨٠هـ ١٩٦٠م

(٣) التقريب : لابن حزم ص ١٩٣

(٤) التقريب : ابن حزم ص ١٩٦

شرعًا ، ولكن ابن حزم لا يرفض المعارضة على الإطلاق، وإنما يستثنى من المعارضة المرفوضة أنواعًا يقبلها ، مثل أن يكون القول الذى يعترض به المجيب قولاً صحيحًا ينتج ما يقوله هذا المجيب[1] أو أن يكون السائل يقصد التشنيع ، والتوبيخ، ولا يطلب الحقيقة فهذا يجب ردعه ، ولا يناظر بأكثر من ذلك[2] .

ونعتقد من جانبنا أن من المعارضة المقبولة أيضًا إلزام الخصم بناءً على ما يدعيه بأقوال واضحة الفساد لا يقولها أحد فى العالم ، أو يقبلها ، أو إلزام الخصم بناء على مذهبه بمذاهب أخرى يرفضها الخصم نفسه .

ى) ولا يصح عند أبى محمد أن يحتج المجادل بما يكذبه بدعوى أنه صحيح ، كالنصارى الذين يدعون تصديقهم لتوراة اليهود ، ويحتجوا بها مع أن نصوص توراتهم تخالف توراة اليهود ؛ لأن هذا – فيما أرى – نوع من التمويه ، والتناقض – فى اتخاذ المواقف – الذى يحذر منه ابن حزم ، ومن ثم يرى أن الذى يجعل شيئًا ما حجة فى مكان لزمه أن يجعله حجة فى كل مكان، ففى أناجيل النصارى أن الله أبٌ للبشر جميعًا ، فما وجه اعتبار المسيح ابنًا لله بالمفهوم اللاهوتى دون سائر البشر[3] ؟ .

ك) ويولى ابن حزم اهتمامًا عظيمًا للجو العام ، الذى تتم فيه المناظرة ، كى لا تؤثر على المتناظرين ، أو على الوصول إلى الحق فى موضوع الخلاف ، حتى أنه يعتبر أن شهادة الحاضرين لأحد الخصمين بالغلبة ليست دليلاً على انتصاره فقد يكونوا مؤمنين بنفس رأى هذا المجادل من قبل ، ومن ثمَّ اتفقوا فى الهدف فحكموا له . أو كما يقول ابن حزم :

---

(١) التقريب : ابن حزم ص ١٩٠

(٢) المصدر السابق ص ١٩٠

(٣) الفصل جـ ٢ ص٥١

« فسبيلهم وسبيله واحد » [1] وأؤيد أبو محمد فيما ذهب إليه من أن الإنصاف فى الناس قليل مضيقًا خاصة فى مجال العقائد .

٦ - الصفات التى يجب أن يتحلى بها المجادل :

بعد هذا التكييف المنهجى لشكل الجدل ، ولضوابط سير العملية الجدلية يحدثنا ابن حزم الأندلسى فى ثنايا كتبه عن الصفات التى ينبغى أن يتحلى بها المجادل مهتديًا بالآيات القرآنية التى تدعو إلى الرفق ، والبيان والتزام الحق ، والرجوع إلى ما أوجبته الحجة ، فلا يفلح من يأتى بكلام لا يقيم على صحته حجة .

ويدعو ابن حزم إلى الإنصاف الذى هو غاية العدل فى المناظرة ، وإتباع البرهان الظاهر ووجوب الإنصراف إلى قول صاحبه ، فما أعظم تواضع ، وإنصاف ابن حزم حينما يقول « وكذلك نقول فيما لم يصح عندنا حتى الآن ، فنقول مجدين مقرين إن وجدنا ما هو أهدى منه اتبعناه ، وتركنا ما نحن عليه» [2] فالرفق والإنصاف ، وترك التعسف ، والبذاء ، والاستطالة من ضروريات الجدل إلا على من بدأ بشىء من ذلك ، فيعارض بما ينبغى مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ [3] .

ومن الإنصاف كما يذكر ابن حزم ألا يترك المتجادل قولاً لخصمه إلا ويناقشه فى مدى صحته ، وإنطباقه على موضوع الجدل وألا يطالب أحد الخصمين صاحبه بما لا يلتزمه هو نفسه [4] .

---

(١) التقريب ص ١٨٨

(٢) الإحكام ج١ ص ٢٣

(٣) العنكبوت آية ٤٦

(٤) يقول ابن حزم : « فمن أضل ممن يحتج بخبر - يقضى بأنه حجة على من لا يراه حجه ثم يكون المحتج به أول مخالف لما احتج » المحلى ج١ ص ١٤٦ . ويقول أيضًا : « ومن المقت احتجاج المرء بما لا يراه لا هو ولا خصمه حجة ، واحتجاجه بشىء هو أول مخالف له » المحلى ج٢ ص١٤٩، ويلزم ابن حزم نفسه بالحجة الصحيحة قائلاً : « ومعاذ الله أن نحتج فى مكان بما لا نراه حجة فى كل مكان » المحلى ج٣ ص ٢١٥

وفى هذه المعانى الجميلة يقول العلامة ابن حزم : « وحقق كل ما تسمعه من خصمك ، ولا تغفله ، وأقله إن أخطأ ، ولا تدع مشكلاً إلا وقفته عليه ، فإذا استقر البيان سليمًا من النقص والإشكال ، وإيَّاك وإدخال ما ليس من المناظرة فى المناظرة، فهذا من فعل أهل الجنون ، وإن من يريد أن يبطل الكلام حتى ينسى آخره أوله ؛ لينسى غلطة وسقطه » (١) .

فابن حزم لا يريد أن يترك للمتناظرين شيئًا إلا ويكون موضع بحث وتأمل من كلا الطرفين؛ إذ يقول : « فتأمل مقدماته ومقدماتك ، وعكسه وعكسك، ونتائجه ونتائجك، فلا ترض لنفسك من خصمك إلا بالحق الواضح»(٢) .

ومن الصفات التى يركز عليها ابن حزم فى المجادل صاحب الحق أن يتحلى بالشجاعة فلا يبالى إن قيل عنه إنه مبطل ، ويحاول تسلية من قد تصيبه مثل هذه التهم الجائرة بتذكيره بما قيل عن الأنبياء – عليهم السلام – ومن دونهم ، ويذكر ابن حزم عبارة لا أعتقد أنه يوجد أبلغ ، وأصدق منها فى دعوة المجادل للثبات على الحق ، إذ يقول : « فمن كان معه الحق فالخالق تعالى معه»(٣) .

ولا ريب أن هذه الآلام التى قد تصيب المناظر عن الحق ، وتلك الأمال التى يتوخاها ابن حزم فى المجادل جاءت انعكاسًا لحياته ، والمصائب التى ألمت به ، لكثرة مناظراته ودفاعه عن مذهبه الظاهرى، وهذا الذى دفعه أن يقول : «واعلم أنه لا يقدر أحد على هذه الشروط إلا بخصلة واحدة ، وهى أن يروض نفسه على قلة المبالاة بمدح الناس له أو ذمهم إياه، ولكن يجعل وكده طلب الحق لنفسه»(٤)

---

(١) التقريب لابن حزم ص ١٩٠

(٢) التقريب لابن حزم ص ١٩٢

(٣) المصدر السابق ص١٩٣

(٤) المصدر السابق ص١٩٧

٧ - ورغم مطالبة ابن حزم من المجادل التحلى بالشجاعة ، والإنصاف ، والدقة فإنه لا يطلب منه أكثر من نصرة الحق ، وتبيينه ، فليس عليه أن يصور للحواس ، أو فى النفوس ما لا سبيل إلى تصويره، وما لا صورة له أصلاً فإذا قلنا مثلاً إن الأول ليس بجوهر، ولا عرض ولا يحده زمان ، ولا مكان ، ولا حاملاً ، أو محمولاً، فليس للخصم أن يطالب بصورة لهذا الأول الأزلى ، ومن يطلب هذا يكون : « كأعمى كلف بصيراً أن يصور له الألوان فهذا ما لا سبيل إليه ، وهذا تكليف فاسد لا نقص فى العجز عنه على التكليف»[(١)] وكون المرء لا تتشكل له الحقائق ليس بقادح فى البرهان ، فلو جاز لكل من لا يتشكل فى نفسه شىء أن ينكره لجاز للأخشم أن ينكر الروائح ، وللأعمى أن ينكر الألوان[(٢)] .

٨ - ويولى أبو محمد اهتمامًا خاصًا بنفسية المجادل ، وما قد يعتريها من أمراض النفوس فيحذر من أن يمتدح الإنسان نفسه ، ويدعى تمكنه العلمى، فالأفضل أن يكون هذا المدح من الغير ، وفى المقابل لا يحقر غيره ، فمن يدرى لعله يأتى بأدلة لم تكن فى الحسبان[(٣)] ، ويضع ابن حزم مجموعة من المحاذير التى تفيد المجادل، وتحدد من يستحق مكالمته أو السكوت عن مناظرته .

---

(١) المصدر السابق ص ١٩٢

(٢) يذكر لنا ابن حزم أن أحد أصدقائه امتحنه فى أن يريه العرض غير قائم بجوهر ولم يقنعه رأى ابن حزم من أن العرض لو كان فى غير جوهر لم يصبح عرضاً . ورغم ذلك أخذ ابن حزم يمثل لصاحبه حالات للعرض مثل تربيع الطين ثم تدويره مع بقاء الطين أو حركات الإنسان من قيام وقعود ، أو تغيير لون الثوب من البياض إلى الحمرة، وأمام لجاجة صاحبه لم يجد ابن حزم بدًا من أن يخبره على سبيل الفكاهة بأنه لو استطاع إخراجه من كرة العالم لأمكن لأبى محمد أن يريه العرض غير قائم بجوهر ومع ذلك فلأن العالم كله كرة مصمتة ، وجوهرة متصلة الأجزاء ليس بين أجزائها خلل فإنه حتى لو انفصل العرض عن الجوهر لما صار فى جوهر آخر ، وترك ابن حزم صاحبه رافضًا لكلامه - التقريب ص ١٩٣

(٣) التقريب لابن حزم ص ١٩٦

٩ – يحذر ابن حزم من الاغترار بكثرة الخصوم ، وعدتهم ، وقدم أزمانهم ، وتعظيم الناس إيَّاهم ، فالحق فى نظره – بل عند كل صاحب نظر سليم – أعظم وأعز من كل ذلك « لأن يقين الباطل لا يصححه شيء أبدًا ، كما أن يقين الحق لا يفسده شيء أبدًا »(١) .

وهذا ما يؤكده أبو الحسن العامرى(٢) (ت ٣٨١هـ) حيث يرى أن الحق لا ينقلب باطلاً لاختلاف الناس فيه ، ولا الباطل يصير حقًا لاتفاق الناس عليه(٣)، وكذلك أبو حيان التوحيدى الذى يذكر : « أن الحق لا يصير حقًا بكثرة معتقديه، ولا يستحيل باطلاً بقلة منتحليه وكذلك الباطل»(٤) ويلفت ابن حزم نظرنا بما نشاهده من أحوال فنجد أهل كل ملة وكل أمة مطبقين على تعظيم أسلافهم ونعتهم بكل فضيلة وبكل خير، وفى المقابل ذمهم لأسلاف من خالفهم ، ثم يدعونا إلى تأمل: « كل قول يقال فقد كان القائلون به فى أول أمره قليلاً ، وأكثر ذلك يرجع إلى واحد ثم كثر أتباعه، وفتش كل قول قديم تجده قد كان ابن ساعة بعد أن لم يكن ، ثم مرت عليه الأيام، والشهور، والسنون، والدهور»(٥) .

١٠– ويحذر ابن حزم من نوع آخر من الاغترار أرى أنه أخطر من الاغترار بكثرة الخصوم ويتمثل فى الاغترار بكثرة صواب شخص ما ، فيكون ذلك مدعاة لتقليد فى كل أمر اعتقادًا من أن الصواب يحالفه دائمًا .

(١) الفصل ج٢ ص ٢١٣

(٢) أبو الحسن محمد بن يوسف العامرى (ت ٣٨١هـ) أحد تلاميذ الكندى الفيلسوف ، وكان عالمًا بالمنطق والفلسفة اليونانية من أهل خراسان ، وأقام بالرى سنين واتصل بابن العميد الوزير الكاتب فقرأ معًا عدة كتب وأقام ببغداد مدة وعادة إلى بلده ، له شروح على كتب أرسطو ومن كتبه (النسك العقلى) وشرحه (والإبصار والمبصر) .

(٣) الإعلام بمناقب الإسلام لأبى الحسن العامرى تحقيق د. أحمد عبد الحميد غراب دار الكتاب العربى للطباعة وانشر ١٣٨٧هـ ١٩٦٧م ص ١٩٣

(٤) المقابسات : أبو حيان التوحيدى مكتبة سعاد الصباح – القاهرة ط٢ سنة ١٩٩٢م – المقابسة ١٢٧

(٥) التقريب : ابن حزم ص ١٩٤

ويذكرنا كلام ابن حزم بما رصده الغزالى (ت ٥٠٥هـ) من خطأ فادح وقع فيه بعض المسلمين ، الذين درسوا الفلسفة اليونانية ، قديمًا حين أعجبتهم رياضيات اليونان ، فعمموا ذلك بالثقة ، والتصديق فى جميع علومهم ، فكان من آفات هذه الرياضيات على حد تعبير الغزالى: « أن من ينظر فيها يتعجب من دقائقها ، ومن ظهور براهينها ، فيحسن بسبب ذلك اعتقاده فى الفلسفة، فيحسب أن جميع علومهم فى الوضوح، وفى وثاقة البرهان، كذا العلم . ثم يكون قد سمع من كفرهم، وتعطيلهم وتهاونهم بالشرع ما تداولته الألسن، فيكفر بالتقليد المحض، ويقول لو كان الدين حقًا لما اختفى على هؤلاء مع تدقيقهم فى هذا العلم فإذا عرف بالتسامح مع كفرهم، وجحدهم فيستدل على أن الحق هو الجحد، والإنكار للدين وكم رأيت من يضل عن الحق بهذا القدر ولا مستندل له سواه»(١) .

١١- ويرفض ابن حزم الالتفات إلى أهل السفسطة ممن يدعون قدرتهم على جعل الحق باطلاً والباطل حقًا ؛ لأن هذا كذب صريح(٢) ويتفق ابن حزم فى موقفه هذا مع كثير من علماء الإسلام كابن تيمية (ت٧٢٨هـ) الذى يذهب إلى أن من يظهر له الحق فلا يقبل وتنتهى مناظرته إلى مقدمات ضرورية بينة بنفسها فيتجاهلها يكون سوفسطائيًا ولا يناظر بعد ذلك(٣) .

١٢- وكذلك من الناس من يكون هدفه الخلاف ، أو الأخذ بمبدأ خالف تعرف، وأيضًا محاولة الانتصار بأى وسيلة ، فهؤلاء يحذر ابن حزم من مكالمتهم، ويفضل وعظهم وإرشادهم ، للابتعاد عن ضلالهم فإن لم يُجْد معهم الوعظ فيزجروا .

(١) المنقذ من الضلال للغزالى تحقيق د. عبد الحليم محمود دار المعارف ط٣ - ص٣٤٩

(٢) التقريب : ابن حزم ص ١٩٥

(٣) درء تعارض العقل والنقل أو موافقة صحيح المنقود لصريح المعقول : ابن تيمية - تحقيق د. محمد رشاد سالم ط١ سنة ١٤٠١هـ / ١٩٨١ م جـ ٧ ص ١٧٤

١٣- ولأن هدف ابن حزم من المناظرة الوصول إلى الحقيقة بصرف النظر عن أى اعتبارات أخرى ، فإنه يحذر من مناظرة من لا ينصف ، أو من لا يفهم، أما أهل الفهم، والإنصاف فهم الجديرون بالحديث معهم إذ يقول : « ولا تكلم إلا من ترجو إنصافه وفهمه»(١) .

وفى نهاية المطاف قد رأينا عظمة ابن حزم فى حديثه عن الجدل على المستوى النظرى، الذى جاء وليداً لخبراته، وثقافته، فيجدر بنا أن نتساءل: هل التزم ابن حزم بهذه الآداب الرفيعة التى نصح بها المجادلين ؟

٤ - مدى إلتزام ابن حزم بالآداب الجدلية :

الحقيقة أن ابن حزم برع فى الجدل ما فى هذا ريب ، ويغلب على مؤلفاته السمة الجدلية، وكان يلتزم أدلة مخالفيه بأمانة علمية نادرة ، وكان يذكر لهم قرائن يُظن أنها تدل على صحة قول مخالفيه ، ولكنها عند التمحيص يثبت عدم جدواها، وفائدتها فى تأييد قول الخصم .

وقد كان ابن حزم ناقداً لنفسه عندما كتب سيرته الذاتية فكشف النقاب عن بعض عيوبه التى عمل على علاجها ، وها نحن أمام واقعة جدلية يعترف فيها أن النصر كان حليف خصمه ، وإن بدا للحاضرين العكس فيقول : « وأخبرك بحكاية لولا رجاؤنا فى أن يسهل بها الإنصاف عن من لعله ينافى ما ذكرناه، وهى أنى ناظرت رجلاً من أصحابنا فى مسألة فعلوته فيها ، لبكوء كان فى لسانه، وانفض المجلس على أنى ظاهر ، فلما أتيت منزلى حاك فى نفسى منها شيء فتطلبتها فى بعض الكتب، فوجدت برهاناً صحيحاً يبين بطلان قولى، وصحة قول خصمى، وكان معى أحد أصحابنا ممن شهد ذلك المجلس ، فعرفته بذلك ثم إنى قد علّمت على المكان من الكتاب فقال لى ما تريد ، فقلت حمل هذا الكتاب، وعرضه عل فلان،

---

(١) التقريب : ابن حزم ص ١٩٦

وإعلامه بأنه المحق ، وأنى كنت مبطلاً، وأنى راجع إلى قوله ، فهجم عليه من ذلك أمر مُبهت، وقال لى : وتسمح نفسك بهذا ؟ فقلت له نعم ، ولو أمكننى ذلك فى وقت هذا ما أخرته إلى غد» (١) .

ولكن رغم هذه النزاهة ، والموضوعية فى مواقف ابن حزم الجدلية، ودعوته إلى وجوب الانصراف إلى البرهان الصحيح أيّاً كان صاحبه ، ففى بعض المواطن نرى أن كلامه لا يخلو من تحيز ، وأحادية النظرة ، إذ يقول : « ... من أتى ببرهان ظاهر وجب الإنصراف إلى قوله ، وهكذا نقول نحن أتباعًا لربنا عز وجل بعد صحة مذاهبنا لاشكًّا فيها ، ولا خوفًا منا أن يأتينا أحد بما يفسدها، ولكن ثقة منا بأنه لا يأتى أحد بما يعارضها به أبدًا ، لأننا ، ولله الحمد أهل التخليص ، والبحث ، وقطع العمر فى طلب تصحيح الحجة ، واعتقاد الأدلة قبل اعتقاد مدلولاتها ، حتى وفقنا ، ولله تعالى الحمد على ما ثلج اليقين، وتركنا أهل الجهل والتقليد فى ريبهم يترددون»(٢) .

وابن حزم هنا رغم تصريحه بضرورة الانصراف إلى البرهان الصحيح ، فإنه يضع النتائج التى سوف ينتهى إليها فى جدله مقدمًا، وهى صحة مذهبه، الذى لا يمكن أن يعارضه أحد أبدًا ، مما قد يفسد استعداده لقبول قول الخصم ، ويفسد الأساس الذى تقوم عليه العملية الجدلية، وهى الموضوعية ، والحياد ، واستعداد كل طرف لقبول آراء الآخر إن ثبت له صحتها .

وقد نقبل هذا الموقف اليقينى من ابن حزم على مستوى الجدل العقائدى بين المسلمين، وأهل الكتاب وغيرهم من أصحاب العقائد الضالة، لظهور فسادها، وتناقضها مع أبسط ضروريات العقل السليم، وأحكامه، ولكن فى المقابل نرفض رفضًا قاطعًا يقينياته على مستوى الجدل مع الفرق الإسلامية المختلفة، وكذلك

(١) التقريب : ابن حزم ص ١٩٤

(٢) الإحكام : ابن حزم جـ ١ ص ٢٣

المذاهب الفقهية، لأنه يصرح بأنه لا يمكن لأحد أن يعارض آراءه ، ويضفى على نفسه هالة من الأوصاف التى تجعله فى مرتبة أعلى عن غيره ، فيقول : « لأننا ولله الحمد أهل التخليص ، والبحث وقطع العمر فى طلب تصحيح الحجة، واعتقاد الأدلة، قبل اعتقاد مدلولاتها... »[١] .

وهذه الأوصاف توفرت لفقهاء المذاهب ، ومع ذلك فقد أثر عنهم - كما يذكر الشيخ أبو زهرة - أنهم يقررون أن مذهبهم صواب يحتمل الخطأ ، ومذهب غيرهم خطأ يحتمل الصواب « فأدخلوا الاحتمال فى قولهم ، وقول مخالفيهم، أما ابن حزم فلم يدخل احتمال الخطأ فى قوله ، ولا احتمال الصواب فى قول مخالفيه»[٢] .

وموقفنا النقدى هذا لا يدفعنا أن نتسرع ، وندعى بإطلاق - أن نظر ابن حزم للأمور لم يكن نظر الباحث الفاحص الموضوعى - كما يذهب أحد الباحثين[٣] - فإن القارئ لأبى محمد ابن حزم يذهله طول نفسه فى البحث، ودقته فى الاستقصاء، وقدرته على استقراء حجج مخالفيه.

ومما يؤخذ أو يعاب على ابن حزم أنه كان شديد اللهجة قاسى العبارة أثناء رده على المتمذهبين بغير مذهبه الظاهرى. وارتفعت حدة أسلوبه عند رده على الملل غير الإسلامية كاليهودية ، والنصرانية ، وقد حاول كثير من الباحثين أن يعتذر لابن حزم عن هذه التهمة بأسباب صحية ، ونفسية ، واجتماعية تفاعلت داخله ، فأدت إلى هذه القسوة ، التى قد تبدو فى أسلوبه الجدلى ، ومن الآراء التى تبرر هذه الحدة الأسلوبية من ابن حزم من أرجعها إلى ثقته فى نفسه ، واعتداده بآرائه[٤] .

---

(١) الإحكام فى أصول الأحكام لابن حزم ج١ ص ٢٣

(٢) ابن حزم حياته وعصره - آراؤه وفقهه للإمام أبو زهرة دار الفكر العربى ص ١٨٤

(٣) المهدى عياد الصابرى (قواعد المنهج عند ابن حزم) رسالة دكتوراه - جامعة القاهرة كلية دار العلوم - قسم الفلسفة الإسلامية ١٩٩٥ ص٤١١

(٤) د. محمود على حماية : ابن حزم ومنهجه فى دراسة الأديان ، ص ١٤١

وفيما أرى أن الثقة بالنفس تكون أدعى إلى اللين ، والرفق أثناء الجدل[1] ، فالمعهود أن الذى يلجأ إلى العنف الجدلى غالبًا ما يكون قد فقد الحجة القوية، والمنطق السليم، فلجأ إلى الأسلوب الحاد ، ليخفى ضعفه، ويحول الأنظار عن تهافت أدلته .

والحق أنه يوجد أسباب كثيرة يمكن من خلالها تفسير قسوة عبارات ابن حزم ، التى وجهها لمخالفيه تتلخص فيما يلى :

١ - ما تعرض له ابن حزم فى حياته من تقلبات الدهر ، وهجر موطن الميلاد والأهل والكيد له لدى الأمراء .

يقول الشيخ أبو زهرة عن ابن حزم أن : « ما أحسه من إرادة السوء به ، وإنزال الأذى ، وأى أذى أشد وأعظم أثرًا فى نفس العالم من أن يرى جهوده، وثمرات فكره تحترق بين يديه ، ويشهد العالم احتراقها، إن ذلك يخرج الحليم عن حلمه»[2] .

وقد عبر ابن حزم - رحمه الله - عن واقعة الإحراق هذه ، وأثرها فى نفسه ، وما ولدته فى داخله من تحدى وثبات على المبدأ بأبيات شعرية حزينة ، وقوية نقتبس منها هذين البيتين :

فإن يَحْرِقوا القِرْطَاسْ لا يَحْرِقُوا الذى ... تَضَمَّنَهُ القرطَاس ، بَلْ هُوَ فِى صَدْرِى
يَسِيرُ مَعِى حيثُ اسْتَقلت رَكَائِبِى ... وَيَنْزِلُ إنْ أنْزل وَيُدْفَن فِى قَبْرِى

وهذه الأبيات الحزينة خير معبر عن موقف عالم ومفكر من واقعة غير حضارية يتعرض لها وكأنى به يريد أن يقول :

---

(١) والثقة بالنفس التى تصل إلى درجة الغرور ليست من سمات سلفنا الصالح، وقد كان ابن حزم يتميز بالتواضع العلمى والاعتراف بقدرات الإنسان المحدودة فها هو يصرح بذلك قائلاً: « نحن لا ندعى الإحاطة بأقوال الصحابة جميعهم والتابعين كلهم فمن بعدهم من العلماء بل نقول ونقطع أن من أدعى الإحاطة بأقوالهم فقد كذب كذبًا متيقنًا لا خفاء فيه) المحلى : لابن حزم ج٧ ص٢٣٠

(٢) ابن حزم حياته وعصره : أبو زهرة ص٧١

وَتَجَلُّدِى لِلشَّامِتِينَ أُرِيهُمُ ... أَنِّى لِرَيْبِ الدَّهْرِ لا أَتَضَعْضَعُ

٢ - قال ابن حزم فى سيرته الذاتية أن مرضًا أصابه غير من طبعه ، وأخرجه عن حلمه ، حتى أنه يصف لنا بصراحته المعهودة أن هذا المرض قد أورثه الضجر وضيق الخلق ، وفى ذلك يقول : « ولقد أصابتنى علّة شديدة ولّدت علىّ ربوًا فى الطحال شديد ، فولد علىّ ذلك من الضجر ، وضيق الخلق ، وقلة الصبر والنزق أمرًا حاسبت نفسى فيه ، إذ أنكرت تبدل خلقى ، واشتد عجبى من مفارقتى لطبعى ، وصح عندى أن الطحال موضع الفرح ، وإذا فسد تولد ضده»[١] .

وهكذا نجد ابن حزم ينكر تبدل خلقه ، وتغير طبعه ، وكما هو معهود فيه صاحب نظرات تأملية فيثبت له ارتباط صحته النفسية بصحته الجسمانية[٢] .

٣ - هناك مبررات خاصة تفسر حدة ابن حزم فى جدلة لليهود ، والنصارى يمكن إرجاعها للأسباب الآتية :

أ) التعصب المقيت الذى أظهره اليهود والنصارى للإسلام ، ولنبى المسلمين خصوصًا فقد شهدت الأندلس الإسلامية فى بعض فتراتها التاريخية ظاهرة خطيرة يصل فيها التعصب الدينى إلى درجة الهوس ، فقد كان نصارى الأندلس يسبون النبى ﷺ علنًا ، كما بينا لدرجة أن قاضى المسلمين كان يصم أذنه عن سماع هذا السب ، حتى لا يحكم عليهم بالإعدام ، وكان المسلمون يظنونهم من المجانين[٣] ، ولا شك أن ابن حزم عالم التاريخ - كان

(١) الأخلاق والسير فى مداواة النفوس : تحقيق لجنة إحياء التراث دار الثقافة ص ٧١

(٢) وقد رأى الشيخ أبو زهرة أن يرجع التثبيت من أثر مرض الطحال على نفسية المصاب من حيث التفاؤل والتشاؤم إلى الطب للحكم فى ذلك . والذى نراه أن القضية لا ترجع إلى الطب قدر ما ترجع إلى نفسية المريض ذاته فالتجربة والخبرة تثبت أن المرض أى مرض يكون مبعثًا للتشاؤم لدى المصاب، ويكون أيضًا مبعثًا للبشر والتفاؤل إذا تم الشفاء منه .

(٣) تاريخ الجدل محمد أبو زرهة - دار الفكر العربى ص١٤٨، وانظر أيضًا فى تفسير هذه الحادثة كتاب « مع المسلمين فى الأندلس » د. على حبيبة دار الشروق ص٢٩٩ : ٣٣٧

على علم بهذه الأحداث ، ولس بنفسه تآمر أهل الكتاب على المسلمين مما ترك أثره على أسلوبه الجدلى، وقد ذكرنا فيما سبق أثر تولية وزراء يهود بالأندلس على أحوال المسلمين ، والتطاول الذى أظهره هؤلاء الوزراء على الإسلام .

ب) طبيعة عقائد أهل الكتاب ، التى تتناقض مع أبسط أحكام العقل ، وتتعارض مع المنطق السليم مما تثير دارسها خاصة إذا كان رجلاً كابن حزم يتميز بالصراحة المطلقة ، ويضيق بمجافاة العقل ، وهذا الضيق الذى ينتاب الدارس لعقائد أهل الكتاب يصوره موقف أحد ملوك الهند[(١)] حيث قال : «أما النصارى فإن كان مناصبوهم من أهل الملل يجاهدونهم بحكم شرعى، فلقد أرى ذلك بحكم عقلى ، وإن كنا لم نر بحكم عقولنا قتالاً، ولكن استثنى هؤلاء القوم من جميع العالم، فإنهم قصدوا مضادة العقل وناصبوه العداوة، واستحلوا بيت الاستحالات مع أنهم حادوا عن المسلك الذى انتهجه غيرهم من أهل الشرائع، وقد كان لهم فيه كفاية .... »[(٢)] . فرأى هذا الملك استثناء النصارى من جميع الملل بأن العقل يحكم بقتالهم لمضادتهم له . وقد اهتم برأى ذلك الملك كثير من علماء المسلمين كابن أبى عبيدة الخزرجى وابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) فى كتابيه (هداية الحيارى فى أجوبة اليهود والنصارى) و(إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان) .

ويقول القرافى أيضًا : « ولقد عذرت بعض الفضلاء ، لما سمعته يقول : النصارى عرَّة ولد آدم[(٣)] » . بل إن بعض أئمة الإسلام كما يروى ابن قيم الجوزية كان يغمض

---

(١) لم استطع التوصل إلى اسمه أو التعرف على شخصيته

(٢) المقامع : الخزرجى ص١٢٣

(٣) الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة : أحمد بن إدريس القرافى (ت ٦٨٤هـ) تحقيق د. بكر زكى عوض ط٢ سنة ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م ص ١٢٣، ويؤكد نفس المعنى ابن قيم الجوزية بإغاثة اللهفان نقلاً عن عقلاء الملوك كما يصفهم ص ٢٠٩

عينيه إذا رأى صليبيًا ، ويقول : « لا أستطيع أن أملأ عينى ممن سب إلهه، ومعبوده بأقبح السب»(١) .

بعد تعرضنا لدراسة أسباب جدل ابن حزم ، والخزرجى لمجادلة اليهود والنصارى ومصادرهم الجدلية التى اعتُمِدَ عليها فى الدراسة والنقد ، فإنه يجدر بنا بعد دراسة آداب الجدل لدى ابن حزم أن نتعرف على جهود هذين العلمين الجليلين فى القضايا العقائدية الكبرى المختلف عليها بين الإسلام وكل من اليهودية والنصرانية، وموقفهما منها .

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان : ابن قيم الجوزية ص ٢٠٩

الفصل الرابع

موقف ابن حزم وابن أبى عبيدة الخزرجى من أهم قضايا الخلاف العقائدى بين المسلمين وأهل الكتاب

جاء الإسلام بمفاهيم عقائدية تصحح كثيراً مما أصاب العقائد اليهودية ، والنصرانية من تحريف ، وتبديل سواء فى مفهوم الألوهية ، أو النبوة ، أو صحة كتبهم المقدسة ... إلخ .

وقام علماء الأندلس بجهد عظيم فى بحث ودراسة أهم قضايا الخلاف العقائدى بين الإسلام وكل من اليهودية والنصرانية ؛ حيث اتجهت جهودهم اتجاهين رئيسيين :

- **أحدهما** : إثبات ما تطرق إلى عقائد أهل الكتاب من فساد .
- **الثانى** : محاولة الرد على شبهات اليهود والنصارى ضد الإسلام ، وهو ما سنتعرض له فى الفصل التالى ، وقد كانت أهم قضايا الخلاف، التى تعرض لها الأندلسيون أثناء جدالهم لليهود والنصارى هى الألوهية ، وصلب المسيح ، وتحريف التوراة والإنجيل ، ونسخ شريعة الإسلام لكثير من أحكامهما، وإثبات نبوة محمد ﷺ .

وسنعرض لموقف اثنين من كبار مفكرى الأندلس هما ابن حزم ، وابن أبى عبيدة من هذه القضايا بشىء من التفصيل :

أولاً : نقد ابن حزم وابن أبى عبيدة لعقيدة الألوهية لدى أهل الكتاب وصلب المسيح

يتسم مفوم الألوهية لدى اليهود والنصارى ، بالاضطراب ، وإضفاء الصفات البشرية على الله تعالى حتى تكاد تختلط صفات الله – تعالى – بصفات الإنسان لدى القارئ للتوراة والإنجيل ، فكلاهما – الله والإنسان – يتبادلان الحديث وجهًا لوجه ، ويتشاجران ، وينتصر الإنسان كما سنوضح .

ويتبين للناظر فى كتب التراث أن علماء المسلمين قد أولوا عقيدة التثليث النصرانية الاهتمام الأكبر ، والجهد الأعظم من الدراسة ، والتمحيص ، والرد على هذه العقيدة ، ويرجع ذلك إلى اهتمام القرآن الكريم بإثبات الوحدانية ، لله عز وجل، وكذلك غموض فكرة التثليث وتعقيدها .

ويعتبر ابن حزم الأندلسى (ت ٤٥٦هـ) من أوائل علماء المسلمين ، الذين اهتموا بنقض مفهوم الألوهية ، وصفات الله ، التى وردت فى التوراة والتى لا تنزه الله عن التشبيه والتجسيم ، وغيرهما من الصفات ، التى لا تليق بذات الله العلية، وهو ما سنفصل الحديث عنه فيما يلى :

١ – نقد ابن حزم لعقيدة الألوهية لدى أهل الكتاب وصلب المسيح :

كان ابن حزم على معرفة معمقة بكثير من الملل والنحل، ومن ثم وضع كتابه (الفصل فى الملل والأهواء والنحل) وخص اليهودية ، والنصرانية بالدراسة والنقد:

أ) نقد ابن حزم لمفهوم الألوهية فى اليهودية :

مفهوم الألوهية من حيث الذات والصفات يختلف اختلافًا كبيرًا بين الإسلام، واليهودية، وكان لابن حزم جهد متميز فى دحض ما نسبه اليهود إلى الله من صفات لا تليق به تعالى، وقد تميزت جهود ابن حزم ، وردوده فى هذا المجال بالخصوبة والشمول.

ويعتبر ابن حزم من أوائل المسلمين الذين اهتموا بالبحث فى عقيدة الألوهية عند اليهود بتوسع . وقد يرجع هذا الاهتمام لديه فى الرد على العقائد اليهودية إلى أن الوجود الثقافى اليهودى بالأندلس كان أكثر وضوحًا ، وتأثيرًا عنه فى المشرق خلال هذه الحقبة التاريخية .

وقد لاحظ ابن حزم أن الإله فى التوراة يتسم بصفات خطيرة يمكن إجمالها فى ما يلى :

* **إضفاء الصفات البشرية على الإله (أنسنة الإله) :**

وردت نصوص توراتية تحكى مصارعة يعقوب لله – تعالى الله عما يفترون – وقد اعتذر ابن حزم بحكايته هذه القصص ، التى لا يصح أن تقال أو تروى عن الله بأنه يقتدى بالقرآن الذى حكى أقوالهم(١) .

والعجيب فى هذه القصة أنها لا تقف عند حدود المصارعة الإلهية الإنسانية بل تجعل يعقوب الإنسان يتحكم فى الإله حتى أنه لا يدعه إلا بشريطة مباركة الله للإنسان، وقد أوضح ابن حزم كيف أن هذه المصارعة جعلت الإله شبيهًا بالإنسان بل الإنسان الأحمق؛ إذ يقول : « ذكر فى هذا المكان أن يعقوب صارع الله – عز وجل – تعالى الله عن ذلك ، وعن كل شبهة لخلقه ، فكيف عن لعب الصراع ، الذى لا يفعله إلا أهل البطالة ؛ وأما أهل العقول فلا يفعلونه لغير ضرورة .... »(٢) .

---

(١) الفصل لابن حزم جـ ١ ص ٢٣٢

(٢) الفصل : ابن حزم جـ ١ ص ٢٣٢ . والعجيب أن التوراة التى بين أيدينا اليوم ورد بها ما يفيد أن يعقوب صارع إنسانًا ، وهاك نص القصة : « فبقى يعقوب وحده وصارعه الإنسان حتى طلوع الفجر، ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حقَّ فخذ يعقوب فى مصارعته له ، وقال أطلقنى لأنه قد طلع الفجر، فقال لا أطلقك إن لم تباركنى ، فقال ما اسمك ؟ فقال يعقوب ، فقال لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل ؛ لأنك جاهدت مع الله والناس ، وقدرت ، وسأل يعقوب وقال : أخبرنى اسمك ، فقال : لماذا تسأل عن اسمى ؟ وباركه هناك فدعا يعقوب اسم المكان فنيئيل قائلاً لأنى نظرت الله وجهًا لوجه ، ونجيت نفسى » تكوين صح ٣٢ عدد ٢٤ : ٣٠ =

وقد وصفت التوراة الله - تعالى بأنه يلحقه التعب ، والإرهاق كسائر البشر ، فقصة الخلق تصف الله - عز وجل - بطلب الراحة فى اليوم السابع بعد أن خلق الخلق فى ستة أيام : « فأكملت السموات والأرض ، وكل جندها ، وفرغ الله فى اليوم السابع من عمله الذى عمل فاستراح فى اليوم السابع من جميع عمله الذى عمل ، وبارك الله اليوم السابع وقدسه ؛ لأنه فيه استراح من جميع عمله الذى عمل الله خالقًا(١) » .

ويتساءل ابن حزم متعجبًا : « وهل تكون الراحة إلا لتعب ، ونصب (ممن) خارت قواه ، وضعفت طبيعته؟ »(٢) .

ويتعقب أبو محمد القصص التوراتية ، التى تصف الإله بالبكاء ، والأنين ، والدعاء بالويل على نفسه ، وجواز الكذب ، والبداء على الله إلى آخر هذه الخرافات التى تضفى الصفات الإنسانية على الله جلا وعلا .

*** تأليه الإنسان :**

فى مقابل أنسنة الإله ألهت التوراة الإنسان ، ولعل هذا من أهداف محرفى التوراة، وقد أشار ابن حزم إلى العديد من الإصحاحات التوراتية التى تؤله الإنسان

= والسبب - فيما أرى - فى اختلاف ما ذكره ابن حزم عما هو موجود فى التوراة الحالية يرجع إلى أن اليهود غيروا فى توراتهم مرات كثيرة - تحريف المحرف - ليدفعوا عن أنفسهم نقد المسلمين، وهذا ما يؤكده السموأل بن يحيى المغربى (ت ٥٧٠هـ) إذ يقول : « ويطول الكتاب إن عددنا ما عندهم من كفريات التجسيم ، على أن أحبارهم قد تهذبوا كثيرًا عن معتقدات آبائهم بما استفادوه من عندهم بما يدفع عنهم إنكار المسلمين عليهم ، ما تقتضيه الألفاظ التى فسروها، ونقلوها، وصاروا متى سئلوا عما عندهم من هذه الفضائح استبرعوا بالجحد والبهتان من فظيع ما يلزمهم من الشناعة» . انظر بذل المجهود فى إفحام اليهود للسموأل بن يحيى المغربى تقديم محمد أحمد الشامى ص٤١

(١) سفر التكوين صح ٢ عدد ١ : ٣

(٢) الرد على ابن النغريلة : ابن حزم ص ٥٤ . ولفظة (ممن) من عندنا ليستقيم المعنى.

مثل : « اصنع بناء آدم كصورتنا كشبهنا » [١] .

ورأى أبو محمد أن هذا النص يشبه آدم عليه السلام بالإله.

ويبدو أن نقد ابن حزم لمفهوم الألوهية لدى أهل الكتاب اكتسب شيوعًا فى الأندلس – على الخصوص – حتى أننا نجد أحد كبار علماء اليهود، ويعرف بموسى ابن ميمون[٢] (ت٦٠٣هـ) قد حاول تأويل معظم النصوص التجسيمية فى التوراة بما يخرجها عن التجسيم والتشبيه.

ويلاحظ أن أغلب هذه النصوص قد ذكرها ابن حزم من قبل، ومن هذه النصوص ذكر ابن ميمون نصًا جاء فيه "نخلق آدم على صورتنا[٣]".

وفرق ابن ميمون بين الصورة النوعية؛ حيث يرى إنها تفيد الإدراك العقلى، والصورة الصناعية، وتعنى الشكل والتخطيط ورأى أن المقصود بالصورة هنا هو "الصورة النوعية الذى هو الإدراك العقلى لا الشكل والتخطيط[٤]".

ولم يفت ابن حزم أن يقطع الطريق على أى محاولة؛ لتأويل مثل هذه النصوص التشبيهية حيث إنه اتخذ منهجًا فى التأليف، والنقد يقوم على عدة أسس من أهمها:

- عدم ذكر النصوص التى قد تحتمل أكثر من معنى، ولو كانت هذه المعانى دقيقة وبعيدة.
- عدم إيراد النصوص التى لا يفهم معناها رغم وجودها فى كتب اليهود والنصارى المقدسة لديهم، وكان يهدف ابن حزم من ذلك ألا يعرض نقده للسفسطة.

---

(١) الفصل لابن حزم جـ ١ ص٢٠٢ ورد بسفر التكوين صح١ عدد ٢٧ "وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا".

(٢) عاش موسى بن ميمون فى الفترة ما بين (٥٣٠ – ٦٠٣هـ) وتتلمذ لعلماء مسلمين مثل أبي بكر ابن الصائغ، وقرأ لابن رشد، واشتهر بين اليهود حتى قالوا: من موسى لموسى لم يظهر كموسى، ويعنون بموسى الأول للنبى، وموسى الثانى ابن ميمون، وألف كتبًا عديدة من أهمهما (دلالة الحائرين، ومشنة التوراة) وزار مصر وأكرمه صلاح الدين الأيوبى.

(٣) دلالة الحائرين : موسى بن ميمون عارضه بأصوله العربية والعبرية، وترجم نصوصه العبرية – د.حسين آتاى – مكتبة الثقافة الدينية ص٢٣.

(٤) دلالة الحائرين موسى بن ميمون ص٢٣.

- ذكر النصوص القاطعة الدلالة على معانيها.

وأجمل أبو محمد هذه المبادئ في قوله: "وليعلم كل من قرأ كتابنا هذا أننا لم نخرِّج من الكتب المذكورة شيئًا يمكن أن يخرَّج على وجهٍ ما، وإن دق وبعد، فالاعتراض بمثل هذا لا معنى له، وكذلك أيضًا لم نخرج منها كلامًا لا يفهم معناه، وإن كان ذلك موجوداً فيها لأن للقائل أن يقول قد أصاب الله به ما أراد، وإنما أخرجنا ما لا حيلة فيه، ولا وجه أصلاً إلا الدعاوى الكاذبة، التى لا دليل عليها أصلاً لا محتملاً ولا خفيًا[1]".

وتطبيقًا لهذا المنهج قطع ابن حزم كل تأويل قد يحاول أن يعتذر به اليهود للنص الذى أورده؛ فيقول : "ولو لم يقل إلا كصورتنا لكان له وجه حسن ومعنى صحيح، وهى أن نضيف الصورة إلى الله تعالى إضافة الملك والخلق، كما تقول هذا عمل الله، وتقول للقرد والقبيح والحسن هذه صورة الله، أى تصوير الله، والصفة التى انفرد بملكها وخلقها، لكن قوله كشبهنا منعت التأويلات، وسد المخارج وقطع السبل، وأوجب شبه آدم لله – عز وجل – ولابد ضرورة[2]".

وأثبت ابن حزم من خلال هذه النصوص أن التوراة تقول بتعدد الآلهة، فمن مصائب الدهر كما يذكر ابن حزم أن يرد فى التوراة : "هذا آدم قد صار كواحد منا[3]". فإذا كان هذا كلام الله فإن قوله (منا) تدل على تعدد الآلهة.

---

(١) الفصل لابن حزم جـ ١ ص٢٠١ ، ٢٠٢

(٢) الفصل لابن حزم جـ ١ ص ٢٠٢ ، ٢٠٣

(٣) المصدر السابق جـ ١ ص ٢٠٧ ورد بسفر التكوين صح ٣ عدد ٢٢ : (وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا).

ب) نقد ابن حزم لعقيدة التثليث والتجسد النصرانية :

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ [1] (١٧١) ﴾.

وتمتد الجذور التاريخية لعقيدة التثليث النصرانية بين كثير من الشعوب، والديانات السابقة لظهور النصرانية نفسها، ففى مصر كانت الآلهة تتجمع على هيئة تالوثات مثل ثالوث (بتاح، وسخمت، ونفرتم) ، (آمون وموت وخنسو) وكذلك ثالوث آخر يجمع بين (بتاح وسوكاريس وأوزوريس[٢]) وينقل محمد طاهر التنير فى كتابه (العقائد الوثنية فى الديانية النصرانية) العديد من أقوال علماء الغرب، التى تؤكد أن الديانات الوثنية كثيرة التشابه جداً فيقول أحد العلماء[٣] : "كان عند أكثر الأمم البائدة الوثنية تعاليم دينية جاء فيها القول باللاهوت الثالوثى، أى أن الإله ذو ثلاثة أقانيم[٤]".

ويقول عالم آخر[٥]: "إذا أرجعنا البصر نحو الهند نرى أن أعظم وأشهر عباداتهم اللاهوتية هو التثليث أى القول : بأن الإله ذو ثلاثة أقانيم[٦]".

والحق أن علماء المسلمين الذين انبروا فى القرون الأولى للإسلام لمجادلة أهل الكتاب وإن لم تتوفر لديهم المعلومات الكافية عن الجذور التاريخية لعقيدة التثليث النصرانية، فإن حسهم التاريخى جعل بعضهم يشير إلى هذا الأثر السابق للديانات التى كانت قبل النصرانية فيرى ابن تيمية (ت٧٢٨هـ) أنّ النصارى ركبوا ديناً من دينين : من دين الأنبياء الموحدين، ودين المشركين، كما أحدثوا ألفاظ الأقانيم التى لا توجد فى كلام الأنبياء، وأحدثوا الأصنام المرقومة بدل الأصنام المجسدة والصلاة للشمس والقمر والكواكب والصيام وقت الربيع ليجمعوا بين الدين الشرعى والدين الطبيعى[٧].

---

(١) سورة النساء آية ١٧١

(٢) المعتقدات الدينية لدى الشعوب : GEOFFREY PARRINDER سلسلة عالم المعرفة ١٧٣ – ترجمة د. إمام عبد الفتاح ١٤١٣هـ/١٩٩٣م ص٥٢

(٣) يدعى موريس.

(٤) العقائد الوثنية فى الديانة النصرانية لمحمد طاهر التنير البيرونى دار الصحوة ط١ ١٤١٠هـ ١٩٨٩م ص٥٥

(٥) يدعى دون.

(٦) العقائد الوثنية لمحمد طاهر التنير ص٥٥

(٧) الجواب الصحيح : ابن تيمية جـ٣ ص٢١١

وبلفته ذكية، وفهم عظيم وعميق لإشارات القرآن الكريم ذكر ابن تيمية أن اعتقاد النصارى البنوة لله تعالى جاء تقليداً للمشركين قبلهم مصداقًا لقوله تعالى : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ[١] (٣٠)﴾ .

وذكر ابن حزم أن النصرانية هى شعبة وامتداد لليهودية[٢]، التى أثبت أنها تقول بتعدد الآلهة[٣]، وهناك تشابه أيضًا بين الصابئة عبدة الكواكب والنصرانية فى القول بتعدد الآلهة[٤].

وقد بدأ ابن حزم حديثه عن النصارى بتفصيل القول فى فرقهم وعقائدهم المختلفة متفقًا فى ذلك مع كثير من الذين جادلوا النصارى كما ذكر أماكن تواجدهم مما يعكس سعة ثقافتهم التاريخية والجغرافية، ثم أخذ أبو محمد فى تفصيل الرد عليهم معتمداً على العقل والنقل والحس جميعًا.

وأثبت ابن حزم فساد عقيدة التثليث، وأنها تتناقض مع التوحيد الصحيح بأدلة كثيرة، كمحاولته معرفة علاقة الأقانيم ببعضها، فسألهم عن علاقة الكلمة بالآب والابن والروح القدس؟ فإن أجاب النصارى بأنها أحد هذه الثلاثة سألهم عن الدليل، فإن قالوا هى شىء رابع خرجوا عن التثليث إلى التربيع[٥].

---

(١) سورة التوبة آية ٣٠

(٢) الفصل جـ١ ص٣٠٤

(٣) ورد بسفر التكوين صح ٣ عدد ٢٢: (وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا) والنص الذى استدل به ابن حزم على تعدد الآلهة هو : (هذا آدم قد صار كواحد منا) الفصل جـ١ ص٧٠.

(٤) الأصول والفروع لابن حزم ط١ - ١٩٧٨م - ج٢ ص٣٦٥

(٥) الفصل لابن حزم جـ١ ص١١٩ وهناك أكثر من مجادل مسلم ألزم النصارى بالتربيع فيقول نصر المتطبب :(وأما من قال إن الأقانيم خواص وصفات فإنهم إذا قالوا إنها ثلاث صفات لابد لها من موصوف وفى ذلك قدم أربعة) النصيحة الإيمانية فى فضيحة الملة النصرانية لنصر بن يحيى المتطبب تحقيق د. محمد عبد الله الشرقاوى دار الصحوة سنة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ص٦٥

وتساءل ابن حزم إذا كانت الأقانيم الثلاثة شيئًا واحدًا، فبأى معنى سمى أحدهم أبًا، والآخر ابناً والثالث روح القدس[١]؟

واعترض ابن حزم على رؤية النصارى لطبيعة المسيح اللاهوتية، والناسوتية، فإذا كان نصف المسيح إلها والنصف الآخر إنسانًا، فيطالبهم ابن حزم أن يحددوا موقفهم من عبادتهم للمسيح، فإن قالوا بأنهم يعبدون الطبيعتين اللاهوتية والناسوتية يصبح مقرين بأنه إنسان مخلوق وهذا هو الشرك بعينه[٢].

وإن ادعى النصارى أنهم يعبدون الجزء الإلهى من المسيح فقط، فإنهم بذلك يعبدون نصف المسيح فقط[٣].

وقد كان ابن حزم يفهم نصوص الإنجيل فهمًا مجازيًا - وليس ظاهر ألفاظ الإنجيل كما يزعم البعض[٤] - إذا قام الدليل على ضرورة هذا الفهم - فرأى أن ما ورد من نصوص إنجيلية تنسب أبوة الإله للمسيح، أو بنوة المسيح للإله هى مثل ما لسائر البشر ولا فرق[٥] أى بمعنى الرعاية والرحمة.

وكان يلجأ أبو محمد أحيانًا لعرض أدلة النصارى على التثليث دون نقدها فسادها ومن ذلك من ترويه التوراة من ظهور ثلاث كائنات لإبراهيم عليه السلام، ومحاولته إكرامهم وإطعامهم، فيذكر ابن حزم أنه قرأ فى بعض كتب النصارى الاحتجاج بهذه الكائنات الثلاث بأنها دليل على التثليث، وهنا نجده يكتفى بأن يعلق بأن هذه فى غاية الفضيحة[٦].

---

(١) الفصل جـ ١ ص١١٢

(٢) المصدر السابق جـ١ ص١٢٨

(٣) الفصل لابن حزم جـ١ ص١٢٨

(٤) د. بركان محمد مراد - منهج الجدل والمناظرة فى الفكر الإسلامى - المصدر لخدمات الطباعة ط١ سنة ١٩٩٠م ص٤٦

(٥) الفصل لابن حزم جـ٢ ص٥١

(٦) المصدر السابق جـ١ ص٢٢٠

ورغم أن ابن حزم لم يشأ ذكر مصدره فإنه كان أمينًا فى نقل استدلالات النصارى على التثليث، حيث نجد فكرة الاستدلال بظهور ثلاث كائنات لإبراهيم على الثالوث موجودة فى رسالة نصرانى يدعى عبد المسيح بن اسحاق الكندى يرد بها على شخصية خيالية مسلمة سميت بعبد الله بن إسماعيل الهاشمى(١) حيث إن هذه الرسالة مكذوبة على المسلم، فكلا الرسالتين من تأليف نصرانى نسب أحدهما إلى الهاشمى والأخرى إلى الكندى(٢).

ولا يتعجب القارىء من سذاجة هذه الأدلة فإن المطلع على كلام النصارى يجدهم يتأولون أى شىء ينقسم إلى ثلاثة بأنه دليل على التثليث، حتى الحروف التى فى أوائل السور القرآنية مثل (الم)، (طسم) فهم النصارى منها فى أوائل الدولة العباسية أنها تشير إلى الثالوث المقدس(٣).

وقد كان للنصارى تمويهات كلامية يحاولون البرهنة من خلالها على عقائدهم وذكر أبو محمد بن حزم بعضها بأمانه علمية تعكس سعة اطلاعه على أقوال الخصوم وعمق فهمه لشبهاتهم العقائدية ومن هذه التمويهات قولهم : «لما وجدنا الأشياء قسمين حى ولا حى، وجب أن يكون الله تعالى حيًا، ونفس الكلام فى الأشياء الحية فهى إما ناطقة وغير ناطقة فيجب أن يكون البارى ناطقًا»(٤).

---

(١) رسالة عبد الله بن إسماعيل الهاشمى إلى عبد المسيح بن اسحاق الكندى يدعوه بها إلى الإسلام، ورسالة الكندى إلى الهاشمى يرد بها عليه، ويدعوه إلى النصرانية ص٤٥ مطبوعة دون بيانات النشر.

(٢) لسنا فى مجال تحقيق النصوص لأصحابها، وإن كنا نشير إلى أن الرمز واضح فى الأسماء فعبد الله فى مقابل عبد المسيح، وإسماعيل فى مقابل إسحاق، والهاشمى نسبة إلى بنى هاشم فى مقابل الكندى نسبة إلى بنى كندة النصرانية فى الجاهلية.

(٣) بعض محاورات بين النصرانية والإسلام عليها محمد حمدى البكرى - بحث مقدم فى كلية الآداب جامعة القاهرة سنة ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م ص٤٥

(٤) الأصول والفروع لابن حزم ص٣٨٢ - الفصل لابن حزم جـ١ ص١١٤

وأفسد ابن حزم هذا الكلام بوجهين : أحدهما أن هذه القسمة قسمة طبيعية واقعة تحت جنس، فإذا كان البارى حيًا لأن الأشياء إما حية أو غير حية فهو إذن يقع مع سائر الأجسام تحت جنس الحى، ويحد بحد الحى، وبحد الناطق لنفس السبب، وإذا كان الله تعالى يحد بحد والناطق فهو مركب من جنسه وفصله وكل ما كان محدوداً فهو متناه، وكل ما كان مركبًا فهو محدث[١].

أما الوجه الثانى فيتمثل فى أن ابن حزم رأى أن هذه القسمة منقوضة مموهة لأنه يلزم النصارى أن يبدءوا بالقسمة الطبيعية أولاً، فيقولون: "وجدنا الأشياء جوهرًا ولا وجوهراً، ثم يدخلون البارى تحت أحد القسمين، وهم يدخلونه تحت الجوهر، فيجب أن يحدوه بحد الجوهر، والمحدود متناه، كما أن هذه القسمة تقع على المخلوقات كذلك فلو كان البارى تعالى بعضها، أو كانت هذه الصفات واقعة عليه من طريق وقوعها على المخلوقات، لكان الله – تعالى عما يقولون – مخلوقًا[٢] ".

ومن الجدير بالذكر أن تقى الدين أحمد بن تيمية (ت٧٢٨هـ) تعرض لنفس شبهة النصارى السابقة مع زيادتهم لبعض التمويهات، وكان رده عليهم عن طريق تصحيحه للمفاهيم، فهم إذا ادعوا أنهم وجدوا الأشياء قسمين: إما حية، أو غير حية، فوصفوا الحق تعالى بالحياه لنفى الموت عنه، ووجدوا الحى إما ناطق أو غير ناطق فوصفوه بالنطق لنفى الجهل عنه ومن ثم قالوا بالآب، والابن، والروح القدس، أى أن الله حى ناطق[٣].

وأجاب ابن تيمية على هذا الكلام، يتلخص رأيه فى أن الله تعالى يوصف بصفات الكمال التى يستحقها بذاته، فلم يوصف بالحياة لنفى الموت عنه كما يدعى النصارى، بل وصفه بالحياة يستلزم نفى الموت عنه تبارك وتعالى[٤].

---

(١) الفصل جـ ١ ص١١٤ ، والأصول والفروع جـ٢ ص٣٨٢
(٢) الفصل جـ١ ص١١٥ والأصول والفروع جـ٢ ص٣٨٣
(٣) الجواب الصحيح لابن تيمية جـ٢ ص٩٠، ٩١
(٤) المصدر السابق جـ٢ ص١٠٧

أما ادعاؤهم أنهم وصفوه بالنطق لنفى الجهل عنه تعالى يقتضى أن النصارى أرادوا النطق والمناقض للجهل وهذا - كما يذكر ابن تيمية - هو العلم لا النطق المعهود المتمثل فى العبارة والكلام(١).

وعند تطبيق المفاهيم الصحيحة، التى ذكرها ابن تيمية فى اثبات الصفات الإلهية يكون وصفنا لله تعالى بالعلم، لأنه صفة كمال تثبت لله تعالى بذاتها لا لنفى الجهل عنه، وإن كانت متضمنة نفى الجهل عنه تبارك وتعالى.

وكان رد ابن تيمية على عقيدتهم فى التثليث (الآب، الابن، الروح القدس) وأن مقصودهم أن الله حى ناطق بما يلى:

أ) معلوم عند سائر الملل أن الله موجود، حى، عليم، قدير، متكلم، لا تختص صفاته تعالى بثلاثة.

ب) لا يعبر عن الله تعالى بألفاظ الآب والابن والروح القدس عند أحد من الأنبياء ولا فى لغة أمه من الأمم بل هذا مما ابتدعه النصارى لوجوده فى أناجيلهم المحرفة(٢).

ولذلك كان ابن تيمية يرى أن هذه الأناجيل تأتى بما يحيله العقل رغم أن الكتب الإلهية من ضرورياتها أنها لا تأتى بما يرفضه العقل(٣).

والتمويه الثانى الذى ذكره ابن حزم للنصارى - ونكتفى به - هو أنهم قالوا: لما وجدنا الثلاثة تجمع الزوج والفرد، وهذا أكمل الأعداد وجب أن يكون البارى تعالى كذلك لوصفه بالكمال(٤).

---

(١) الجواب الصحيح لابن تيمية جـ٢ ص١١٧

(٢) المصدر السابق جـ٢ ص٩١، ١٣٤

(٣) المصدر السابق جـ٢ ص٩٢

(٤) الفصل لابن حزم جـ١ ص١١٥ - الأصول والفروع لابن حزم جـ٢ ص٣٨٣

ورد ابن حزم على زعمهم هذا بأدلة عقلية ألزمهم فيها بالتناقض، وقلة العلم نجملها فيما يلى:

أ) هذا الاستدلال السابق من النصارى لعقيدتهم، التى يدعون فيها أن الثلاثة واحد، والواحد ثلاثة خطأ، لأن الثلاثة التى تجمع الزوج والفرد غير الثلاثة التى تساوى الواحد حسب ما يزعم النصاري، وهذا من ابن حزم على طريقة مجاراة الخصم لأنه لا يوجد ثلاثة تساوى الواحد أصلاً.

ب) كل عدد محدث، وكذلك كل معدود، والله تعالى لا يوصف بالحدوث.

جـ) البارى تعالى لا يوصف بالكمال والتمام اللذان هما من باب الإضافة لأن الكمال والتمام اللذان من باب الإضافة لا يقعان إلا فيما فيه النقص لأن الكمال بالإضافة ، وكذلك التمام ، هو إضافة شىء إلى شىء به كملت صفاته ، ولولاه لكان ناقصاً .

وبدهى أن ابن حزم يفرق بين الكمال بالإضافة، والكمال المطلق فهو ينفى النوع الأول، ويثبت النوع الثانى الذى هو الكمال المطلق لله جل وعلا.

د) مما هومعلوم أن كل عدد بعد الثلاثة أتم من الثلاثة لأنه يجمع إما زوجًا وفردًا وإما زوجًا وزوجًا وأما زوجًا وزوجًا وفردًا، وإما أكثر من ذلك وما جمع أكثر من زوج أتم وأكمل مما لم يجمع إلا زوجًا وفردًا فقط، والذى يريد أن يثبت الكمال لله تعالى عن طريق هذه المفاهيم العددية يلزمه أن يجعل ربه تعالى أعدادًا لا تتناه، وهذا يدخل فى باب المحال.

هـ) هذا المعنى نجده فى الاثنين؛ لأن الاثنين عدد يجمع فردًا وفردًا وهو زوج مع ذلك فنجد فى الاثنين الزوج والفرد، وقائل هذا الكلام يلزمه أن يجعل ربه تعالى اثنين(١).

---

(١) الفصل جـ١ ص١١٥ ، ١١٦ ، الأصول والفروع لابن حزم ص ٣٨٣، ٣٨٤

وقد عالج القاضى عبد الجبار (ت ٤١٥هـ) نفس هذه الدعوى السابقة فى موسوعته المعروفة بـ(المغنى فى أبواب التوحيد والعدل) فذكر أن النصارى ادعوا التثليث لأنه يجمع الشفع الوتر، وذلك يجمع نوعى العدد، وما جمع نوعى العدد أكمل مما لم يجمعهما(١).

ورد القاضى عبد الجبار (ت٤١٥هـ) بأنه بناء على هذا الكلام يجب أن يكون كل أقنوم من الأقانيم الثلاثة يجمع بمفرده نوعى العدد الشفع والوتر، حتى يكون كاملاً غير ناقص، وهذا يوجب أن يكون الآب وحده ثلاثة أقانيم وكذلك الابن، وروح القدس، فيصبح الأقانيم تسعة لا ثلاثة(٢).

والنصارى عندهم أن الله - تعالى - ثلاثة فى أقنوميته واحد فى جوهريته، وبناء على علتهم السابقة يكون تعالى ناقصًا فى جوهريته لأنه لم يجمع نوعى العدد فى جوهريته(٣).

وتتضح تشابه المعالجة عند كل من ابن حزم الظاهرى، والقاضى عبد الجبار المعتزلى (ت٤١٥هـ) من أن الأخير رأى كما ذهب الأول أننا لو قلنا أن الله يجمع نوعى العدد لدل ذلك على حدوث الله - عز وجل (٤) - وأيضًا كلما كان اجتماع الشفع والوتر أكثر كان أكمل وأفضل مما لم يجمع غير شفع ووتر فقط(٥).

وهكذا نجد تشابهًا بين الأندلس، والمشرق فى تناول قضايا مشتركة، وفى الرد على تمويهات للنصارى متشابهة.

بعد تعرضنا لنقد ابن حزم لعقيدة التثليث يجدر بنا أن نتعرف على موقفه من صلب المسيح عليه السلام.

---

(١) المغنى فى أبواب التوحيد والعدل للقاضى عبد الجبار الأسد آباى (ت٤١٥هـ) جـ٥ (الفرق غير الإسلامية) تحقيق محمود محمد الخضيرى نشر الدار المصرية للتأليف والترجمة ص١٠١

(٢) المصدر السابق جـ٥ ص١٠١

(٣) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٤) المغنى : القاضى عبد الجبار جـ٥ ص١٠١

(٥) المصدر السابق نفس الصفحة.

جـ) نقد ابن حزم لدعوى صلب المسيح :

يعتقد النصارى أن آدم حين عصى ربه، وأكل من الشجرة فقد أخطأ، وانتقلت الخطيئة وراثيًا إلى بنى آدم، وأراد الله - تعالى كما يزعمون - أن يكفر عن خطيئة آدم، فبعث ابنه ليصلب، ويكون دمه فداء تكفيريًا عن خطيئة آدم.

وهذه العقيدة تتناقض مع أبسط أحكام العقل، وتثير كثيرًا من الأسئلة، فما الداعى لأن يرث البشر خطيئة أبيهم آدم؟! وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ[(١)] ﴾ .

وما علاقة صلب ابن الله بتكفير خطأ آدم؟!.

وإذا كان صلب ابن الله خطأ أكبر من أكل آدم من الشجرة، فكيف يكون تكفير خطأ صغير بخطأ أكبر وأعظم؟!.

ومن ثم جاء النص القرآنى حاسمًا فى نفى هذه العقيدة : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ[(٢)] ﴾ .

ولقد كان لهذه العقيدة أثر خطير على السلوك المسيحى، فلا يتعين على النصرانى سوى أن يؤمن بالفداء، والخلاص من الذنوب مضمون له[(٣)] وهذا أدى إلى تهاون النصارى على مستوى السلوك العام، ونظرتهم إلى أعمال غير المسيحيين على أنها لا قيمة لها، أو كثياب بالية.

والصلب كالثالوث له جذور تاريخية تمتد إلى ما قبل النصرانية، فنجد عند اليونان، والرومان، وكثير من الأمم تقديم البشر كذبيحة لله. فيقول أحد العلماء[(٤)]: "ويعتقد الهنود والوثنيون بتجسيد الإله وتقديم نفسه ذبيحة فداء عن الناس والخطيئة[(٥)]".

(١) الإسراء آية ١٥

(٢) سورة النساء آية ١٥٧

(٣) مسألة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء: أحمد ديدات ترجمة على الجوهرى دار الاعتصام ص١٢٨

(٤) M.WILLIAM

(٥) العقائد الوثنية : محمد طاهر التنير ص٧٥

ونحيل القارىء لكتاب (العقائد الوثنية فى الديانة النصرانية) لمحمد طاهر التنير، حيث نجد أممًا لديها مثل هذه العقيدة.

وبدأ ابن حزم إبطاله لعقيدة الصلب بنقضه لدعوى مشهورة تأتى على لسان كل من اليهود والنصارى على السواء تتلخص فى أن كلا الفريقين يزعم أن المسيح صلب؛ فإن قال المسلمون التبس الأمر عليهم، فهذا يجيز الالتباس على سائر الكواف[١] ومنهم المسلمون.

وبطريقة تقوم على تزييف المفاهيم تساءل اليهود والنصارى، عن موقف الناس قبل ورود الخبر بإنكار الصلب، فإن كان الله فرض عليهم الإقرار بالصلب، فعلى قول المسلمين يكون الله تعالى فرض عليهم الإقرار بالباطل؛ أما إن كان فرض الإنكار لصلب المسيح عليه السلام يكون الله تعالى فرض على الناس تكذيب الكواف[٢].

ورد ابن حزم على هذا الزعم محاولاً تصحيح المفاهيم مبينًا لهم أن شروط الكافة لم تتوفر، وذلك للأسباب التالية:

- يقول النصارى إنه تم أخذ المسيح ليلاً خوف العامة، وصلب فى مكان نازح عن المدينة ليس موضعًا معروفًا للصلب[٣].
- الشرط، (رجال الشرطة) الذين نقلوا صلبه مضمون منهم الكذب، وتم رشوتهم على القول بأن أصحابه سرقوه ففعلوا ذلك[٤]، ومريم المجدلانية لم تحضر الصلب وإنما كانت تنظر على بعد.

(١) الكواف جمع كافة وهى الكل أو الجميع فيكون المقصود أنه يجيز الالتباس على جميع الناس.

(٢) الفصل لابن حزم جـ١ ص١٢٢

(٣) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٤) المصدر السابق جـ١ ص١٢٤

- لم يحضر الحواريون الصلب، وإنما كانوا خائفين هاربين بأرواحهم مستترين[1].

واستنتج ابن حزم تفسيرًا ذكيًا لقوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾[2]. فرأى أن الفساق الذين دبروا تمثيلية الصلب شبهوا على من قلدهم فأخبروهم أنهم صلبوا المسيح وقتلوه، وهم كاذبون فى ذلك.

وضرب ابن حزم مثلاً لهذه الحادثة المكذوبة من تجاربه الشخصية؛ حيث ذهب مع والده لحضور دفن المؤيد هشام بن الحكم المستنصر[3]، وتمت عملية الغسل بحضورشيخين حكيمين من حكام المسلمين، وتم حمل النعش، والصلاة على الميت بحضور جماعة المسلمين بطريقة طبيعية جدًا. وبعد سبعة شهور – كما يروى ابن حزم – ظهر أن هشامًا ابن الحكم المستنصر ما زال حيًا وبويع بالخلافة، ودخل عليه ابن حزم، وجلس بين يديه، واستمر حكمه ثلاثة أعوام غير شهرين وأيام[4] وهذا يدل على جواز التلبيس على الناس وإخبارهم بحدث عظيم كهذا كذبًا وزورًا مثلما حدث مع المسيح عليه السلام.

ونلاحظ أن ابن حزم قال بقدرة (الله تعالى) على إحالة الحواس فى عملية الصلب، لإلزام الخصم فقط لأنه يرى أن القول بإحالة الطبائع لا تجوز إلا بنص، وهو ما لم يرد[5].

ويذكر أبو محمد أن النصارى لو ادعوا أن الذين قالوا بالصلب أناس صالحون، كمتى، ويوحنا، ولوقا، وبولس وغيرهم؛ فهم كفار كاذبون، وليسوا من صالحى

---

(١) الفصل لابن حزم جـ١ ص ١٢٤

(٢) سورة النساء آية ١٥٧

(٣) أحد خلفاء بنى أمية بالأندلس وكان عصره فى نهاية القرن الخامس وبداية السادس الهجرى عصر قلاقل.

(٤) الفصل : ابن حزم جـ ١ ص ١٢٥

(٥) الفصل : ابن حزم جـ ١ ص ١٢٥

الحواريين، ودليل ذلك أنهم نقلوا التثليث، ويقرر ابن حزم أن نقل الكاذب لا يقوم به حجة فبطل تمويههم[١] .

ومما يدل على شهرة الاستدلال بإتفاق اليهود والنصارى على صلب المسيح عليه السلام كدليل لتأكيد هذه الأكذوبة ما أورده القاضى عبد الجبار (ت ٤١٥هـ) الذى يقول : « وادعى اليهود والنصارى العلم بذلك ، والمعاينة، والمشاهدة، وأنهم قد تلقوا ذلك الجمهور عن الجمهور ، والأمم عن الأمم ، وصار النصارى خاصة يسخرون من المسلمين إذا قالوا ما كان هذا من شيء ، ويقولون : أى فائدة لصاحبكم فى مكابرة الأمم المجمعة على ذلك ، وقد سبقوه ، وكانوا قبله ، وهم أهل هذا الرجل وأصحابه وبينهم وُلِد ، ومعهم عاش ، وقد أجمع على ذلك عدوه من اليهود ووليه من النصارى، فأنكر نبيهم ، وهل هذا إلا كما قيل : رضى الخصمان وأبى القاضى» ؟[٢] .

وأجاب القاضى عبد الجبار على هذا الاعتراض بردود مفحمة ، فذهب إلى أنه كان من الأفضل للنبى – عليه الصلاة والسلام – أن يوافق على دعوى صلب المسيح لأن فى هذا :

- تشنيع على اليهود بقتلهم نبيًا يضاف لغيره من الأنبياء الذين قتلوهم .
- وكذلك تشنيع أعظم على النصارى لزعمهم أن المقتول إله ورب .

كما أن موافقته عليه الصلاة والسلام لهاتين الأمتين العظيمتين – اليهود والنصارى فيه استمالة لهما لكى يصدقوه ، خاصة أنه كان أشد الناس حرصًا على تآلفهم ودعوتهم ، وهذه الموافقة ستدفع عنه تهمة تكذيبهم له عليه الصلاة والسلام[٣] .

---

(١) الفصل : ابن حزم جـ ١ ص ١٢٥ .

(٢) تثبيت دلائل النبوة للقاضى عبد الجبار أحمد الهمزانى المعتزلى تحقيق د. عبد الكريم عثمان – دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع جـ ١ ص ١٢٢

(٣) المصدر السابق نفس الصفحة

ومما سبق يتضح أن ما كان يرد على لسان النبى ﷺ هو ما نزل به الوحى من قبل الله تعالى .

والجدير بالذكر أن الإمام القرافى (ت ٦٨٤هـ) قد تعرض لهذا الشق من الاعتراض السابق الخاص بزعم أهل الكتاب أن الذين حضروا الصلب كانوا كثرة وذلك فى كتابه (الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة) ورد موضحًا لهم شروط التواتر، وأن هذه الشروط لم تتحقق فى نقل أهل الكتاب لدعوى الصلب وذلك للأسباب التالية :

- فر الحواريون عن المسيح ؛ لأنه لو وجد واحد منهم لقتله اليهود، فخبر النصارى عن أسلافهم لا يفيد علمًا .
- كان المباشرون للصلب المزعوم الوزعة ، وأعوان الولاة، وهم عدد قليل ويجوز عليهم الكذب .
- وأخذ القرافى رحمه الله يذكر نصوصًا إنجيلية كثيرة تدل على عدم الصلب وأن المصلوب هو من ألقى عليه شبه المسيح ، والعقل يجيز ذلك ، ولا مدخل للحس فى ذلك(١) .

ومن هذه النصوص التى ذكرها القرافى (ت ٦٨٤هـ) ما ورد بإنجيل مرقس عن تغير هيئة المسيح عليه السلام : « وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا، وصعد بهم إلى جبلٍ عالٍ منفردين وحدهم ، وتغيرت هيئته قدامهم وصارت ثيابه تلمع بيضاء جداً كالثلج ... » (٢) .

وهكذا يتضح لنا من دراسة جدل علماء المسلمين وأهل الكتاب تشابهًا بين موضوعات الجدل فى الأندلس ومصر، وحجج المجادلين بين كل منهم حيث إن ما

(١) الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة للقرافى (ت ٦٨٤هـ) ص ١٨٦

(٢) إنجيل مرقس إصحاح ٩ عدد ١ : ٣

كان مثاراً فى عصر ابن حزم (القرن الخامس الهجرى) كان أيضًا مثاراً فى عصر القرافى (القرن السابع الهجرى) وتشابهت ردود ابن حزم والقرافى على القضايا المشتركة التى عالجها كل منهما كما اتضح مما سبق .

أما رد ابن حزم على الشق الثانى فى سؤال أهل الكتاب : هل فرض الله على الناس الإقرار بالصلب أم الإنكار ؟ فإن كان فرض الإقرار يكون فى نظر المسلمين فرض عليهم الإقرار بالباطل ، أما إن كان الله فرض الإنكار فيكون فرض على الناس تكذيب الكوف .

وأجاب ابن حزم بأن هذا السؤال ناقص ، ويحتاج إلى صيغة أكثر اكتمالاً حتى يكون واضحًا وصحيحًا ، فيرى أن تكون صيغة السؤال على النحو التالى: قبل ورود الخبر بإنكار صلب المسيح : هل فرض الله على الناس الإقرار بصلبه ؟ أم الإنكار؟ أم لم يفرض الإقرار أو الإنكار ؟ .

وجاء رد ابن حزم بما نلخصه فى جملة واحدة هى أن الله تعالى لم يفرض على الناس تصديق الصلب أو تكذيبه قبل ورود الخبر بذلك(١) .

وفى الجزء الثانى من موسوعة (الفصل فى الملل والأهواء والنحل) أفاض ابن حزم فى ذكر النصوص الإنجيلية التى تحكى أكذوبة الصلب مثبتًا تناقض هذه النصوص، وزيفها .

ويجدر بنا أن نتعرف على موقف أحمد بن عبد الصمد الخزرجى من عقيدة الألوهية لدى أهل الكتاب ، ودعوى صلب المسيح عليه السلام .

---

(١) الفصل لابن حزم جـ ١ ص ١٢٧

٢ - نقد ابن أبى عبيدة لعقيدة الألوهية لدى أهل الكتاب وصلب المسيح :

لم يركن الخزرجى إلى مجرد الدفاع عن الإسلام عقيدة وشريعة ، وإنما نقد عقائد اليهود ، والنصارى كذلك ، ومن ثم فإن منهجه كان قائمًا على الرد والنقد، أو الدفاع والهجوم ، وهذا منهج متكامل تقتضيه طبيعة الرسائل الجدلية :

أ) نقد الخزرجى لعقيدة الألوهية لدى اليهود والنصارى :

أثبت الخزرجى أن التوراة ألحقت بالإله صفات بشرية لا تليق بالكمالات الإلهية، فالله - تعالى عما يقولون - كان علمه الإلهى ناقصًا ، ويعتريه ما يعترى البشر من الندم والحزن على خلقه للإنسان حتى أنه قال : (سأذهب الآدمى الذى خلقت على الأرض والحشائش ، وطيور السماء ، إنى نادم على خلقها جدًا جدًا)(١) .

والعجيب أننا لو قارنا هذا النقص فى العلم الإلهى، كما ورد بالتوراة ، بما جاء فى القرآن الكريم سنجد أن التوراة لم تجعل الإله يصل فى علمه إلى درجة المخلوقات، كما ورد فى القصص القرآنى ؛ لأن الملائكة كانت تعلم أن الإنسان سيفسد فى الأرض وهو مالم يعلمه ، (إله التوراة) مما سبب له الأسى والندم(٢) .

---

(١) المقامع للخزرجى ص٢٤٨ ، ورد بسفر التكوين صح ٦ عدد ٥:٧ (ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر فى الأرض وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم ، فحزن الرب أنه عمل الإنسان فى الأرض وتأسف فى قلبه ، فقال الرب أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذى خلقته الإنسان مع بهائم، ودبّابات وطيور السماء لأنى حزنت أنى عملتهم) .

(٢) وهذا هو ما دفع القرطبى لأن يعلق على هذا النص بقوله : « وهذا فى حق الله تعالى محال، إذ الندم إنما يلحق به من لا يعلم مصير المندوم عليه ، ومآله ، واعتقاد هذا فى حق الله كفر ، إذ ينبئ على أن الله تعالى جاهل وأنه متغير ، تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا، ولفظ الندم هذا نص لا يقبل التأويل فهو كذب وباطل قطعًا » الإعلام جـ ٢ ص١٤٩

وحين اعترضت الملائكة على خلق الإنسان دار الحوار التالى، الذى يثبت كمال العلم الإلهى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) ﴾(١) .

ولم يفت عالم مثل الخزرجى أن يقارن - ولو جزئيًا - بين الصفات الإلهية كما وردت بالتوراة ونظيرها فى القرآن الكريم ، فالعجيب أن التوراة تدعو بنى إسرائيل إذا لقوا العدو أن يضربوه بشدة، حتى يعلوا صوت الضرب؛ ليسمعهم الله فيؤيدهم على عدوهم(٢) .

ويعلق الخزرجى على هذا الكلام قائلاً : « كأن الله - سبحانه وتعالى - لا يسمع إلا الأصوات العالية »(٣) ، ويقارن الخزرجى ذلك بما ورد فى قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ (٤) وَأَخْفَى (٧) ﴾ (٥) .

ووقف الخزرجى - كابن حزم - على قصة مصارعة الله - تعالى - ليعقوب عليه السلام ونزه ابن أبى عبيدة الله تعالى عن هذه الأقوال الفاسدة(٦) .

وليت التوراة تقف عند تشبيه الإله بالإنسان ، بل تذهب إلى ما هو أعظم من ذلك حين تشبهه بإنسان شرير ، أو شيطان يلجأ للغش ، والمداهنة والجشع فقد أوضح الخزرجى أن إله إسرائيل يدعوهم إلى معاملة الناس بالربا ، فنقل عن التوراة، (على الأجنبى إرب، وعلى أخيك فلا ترب ...)(٧) .

(١) سورة البقرة ، آية ٣٠

(٢) المقامع للخزرجى ص٢٥١

(٣) المقامع للخزرجى ص ٢٥١

(٤) السر هو ما يكون علمه محصوراً بين اثنين أو أكثر مثل الأسرار العسكرية، وأخفى من السر هو حديث النفس ، أو ما يكتمه الإنسان فى نفسه وهذا لا يعلمه إلا الله تعالى .

(٥) سورة طه ، آية ٧

(٦) المقامع ص ٢٥٠، ومما تجدر الإشارة إليه أن القرطبى نقل من مواطنه الخزرجى فكرة الرد بنفس الآية الكريمة التى تدل على شمولية العلم الإلهى - انظر الإعلام جـ ٢ ص١٩٥ ، ١٩٦

(٧) المقامع للخزرجى ص٢٤٩، ورد بسفر التثنية صح ٢٣ عدد ٢٠-٢١ (لا تقرض أخاك بربا فضة، أو ربا طعام، أو ربا شىء مما يقترض بربا، للأجنبى تقرض بربا، ولكن لأخيك لا تقرض بربا...) .

وبعد أن ينقد الخزرجى هذا المفهوم التجسيمى للألوهية ، فإنه يضع بين يدى قارئه الميزان الذى تقاس به الصفات الإلهية متمثلة فى قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ (١) .

وعندما اتجه الخزرجى لدراسة التثليث النصرانى فإنه حاول أن يعرف كمواطنه ابن حزم علاقة أقانيم الأب ، والابن وروح القدس ببعضها البعض فإذا كانت الأقانيم الثلاثة شيئًا واحدًا - كما يدعى النصارى - فلماذا اعتبروا المسيح هو الابن، وليس الأب؟! (فلم خصصتم المسيح بالابن، ولم تقولوا إنه الأب، وقد قلتم : إن الأب ، والابن ، والروح القدس شيء واحد؟)(٢) .

وهذا يذكرنا بموقف ابن حزم السابق وتساؤله : بأى معنى سمى أحد الأقانيم أبًا والآخر ابنًا ، والثالث روح القدس(٣) ؟! .

وكما ألزم ابن حزم القول بالتربيع إن قالوا إن الكلمة غير الأقانيم الثلاثة(٤). فإن ابن أبى عبيدة ألزمهم بالتربيع - كذلك - لأنهم جعلوا بدن المسيح معبودًا، وليس أحد الأقانيم الثلاثة ؛ لأنه لا يتصور أن يعبد المسيح دون جوهر بدنه(٥) .

وحتى لو قالوا إن نصف المسيح إله ونصفه الآخر ليس بإله، فإنه يلزمهم إذا دعوه أن يقولوه : (يا نصف المسيح ارحمنا)(٦) وإذا سئلوا من إلهكم؟ فيجب أن يقولوا: (نصف المسيح(٧)) وهذا يذكرنا بموقف ابن حزم من النصارى إن ادعوا

---

(١) سورة الشورى ، آية ١١
(٢) المقامع : الخزرجى ص ١٨١
(٣) الفصل : ابن حزم جـ ١ ص ١١٢
(٤) الفصل لابن حزم جـ ١ ص١٩٩
(٥) مقامع الصلبان للخزرجى ص ١٨١
(٦) المصدر السابق ص١٧٩
(٧) المصدر السابق نفس الصفحة

أنهم يعبدون الجزء الإلهى من المسيح فإنهم بذلك يصبحون عابدين لنصف المسيح فقط[١] .

ويشبه ما ذكره الخزرجى فى هذا الصدد ما قاله ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) : «فالنصارى يعتقدون أن أقنوم الابن الذى هو العلم، أو الكلام، أتحد بجسد المسيح، ولو قال قائل: يا علم الله، أو يا كلام الله اغفر لى وارحمنى، لكان هذا باطلاً فى صريح العقل، ولم يجوز أحد أن يقال للتوراة والإنجيل وغير ذلك من كلام الله اغفر لى وارحمنى، إنما يقال للإله الموصوف بالكلام اغفر لى وارحمنى[٢] .

ويعجب القرطبى من أن النصارى يعبدون المسيح المتكون من اللاهوت والناسوت رغم ما ينسبونه للناسوت من أنه يجوع، ويعطش ويبول، ويتغوط ، وهذا يلزمهم أن يقولوا إن جسد المسيح البائل المتغوط إله[٣] ، فإن ادعى النصارى أن هذا الجسد (إله) بما حل فيه من الإله فكان ينبغى لهم أن يقولوا إنه نصف إله ، ولا يعبدون جسمه، ولا يسجدون لجسده، وإذا قالوا إلهنا المسيح قالوا مكان إلهنا يا نصف إلهنا أو يا ثلث إلهنا فإنه اتحد به أحد الأقانيم الثلاثة، والواحد من الثلاثة ثلث[٤] .

ويتعجب الخزرجى كذلك أن يكون نصف المسيح إلهًا خالقًا ونصفه الآخر عبدًا مخلوقًا! ومعروف أن النصارى يعبدون المسيح، ويدعون باسمه ، وهذا من تناقضات النصارى الدينية والعقائدية[٥] .

---

(١) الفصل لابن حزم جـ ١ ص ١٢٨

(٢) الجواب الصحيح لابن تيمية جـ ٢ ص ١١٥

(٣) الإعلام للقرطبى ص ١٤١

(٤) المصدر السابق ص١٤٢

(٥) المقامع للخزرجى ص١٧٩

واستفاد الخزرجى من القرآن الكريم بدليل عرف لدى المتكلمين بـ(دليل التمانع)[1] يتمثل فى قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[2] .

فلو كان يوجد أكثر من إله فى الكون لفسدت السموات والأرض لأنهم سيختلفون فأحد الآلهة أو بعضهم يريد شيئًا ، والآلهة تريد شيئًا آخر ، فيقع التمانع، فإذا افترضنا إلهين أحدهما يريد أن يحيى إنسانًا ، وأراد الآخر أن يميته ، فإما أن يتم مرادهما معًا ، وهذا غير ممكن لأنه يستحيل أن يكون الجسم حيًا وميتًا فى وقت واحد، وإما أن لا يتم مرادهما، وهذا يوجب عجز الإلهين معًا، أو يتم مراد أحدهما دون الآخر ، وهذا يوجب ضرورة وحدانية الله تعالى، لأن الذى تتحقق إرادته هو الذى يستحق الألوهية[3] واستدل الخزرجى – كذلك – بقوله تعالى : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾[4] ، ولم يفت الخزرجى أن يقارن بين خلق آدم ، وخلق عيسى عليهما السلام ، فإذا كان آدم خلق من تراب، فليس هناك ما يمنع أن يخلق عيسى من الدم المجتمع فى رحم السيدة مريم[5] ، ولا ريب أن الخزرجى متأثر فى تحليله هذا بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾[6] . وإذا كان المسيح نفخ الله فيه من روحه فإن آدم كذلك، فمن يثبت الألوهية لعيسى وجب عليه أن يثبتها لآدم[7] .

---

(١) انظر فى هذا الدليل كتاب (اللمع فى الرد على أهل الزيغ والبدع) للأشعرى صححه وعلق عليه د. حمودة غربة مكتبة الخانجى بالقاهرة ومكتبة المثنى ببغداد سنة ١٩٥٥ ص٢١ ، ٢٢

(٢) سورة الأنبياء ، آية ٢٢

(٣) علم الكلام ومدارسة : د. فيصل بدير عون – مكتبة الحرية الحديثة ط١٩٨٢م ص ٢٧٦، ٢٧٧

(٤) سورة المؤمنون ، آية ٩١

(٥) المقامع ص ١٣٠

(٦) سورة آل عمران آية ٥٩

(٧) المقامع ص ١٢٩

ومن الجدير بالذكر أن الروح هنا ليس معناها أنها جزء من الله وإنما تعنى أنها روح مخلوقة من الله ، أو قد تعنى جبريل عليه السلام والإضافة لله على كلا التفسيرين مقصود بها التشريف والتكريم . وليس أوقع على الخصم من أن يجادله بما يعتقده ويظن أنه يؤيد دعواه ، ومن ثم لجأ الخزرجي إلى استخراج نصوص من الإنجيل تثبت نبوة وبشرية عيسى عليه السلام ، مثل : قول المسيح عن نفسه إنه لا يكرم أحد من الأنبياء فى وطنه[1] .

سأل الرجل المسيح عليه السلام : (أيها المعلم الصالح أى صلاح أعمل لتكون لى الحياة الأبدية ، فقال له : لماذا تدعونى صالحًا ليس أحد صالحًا إلا واحد وهو الله)[2] .

ويعتقد النصارى أن المسيح صعد بعد الصلب إلى السماء ليجلس عن يمين الأب، ومما لا ريب فيه أن هذا يدل على الاختلاف بين المسيح والآب فيقول أحد المهتدين إلى الإسلام من علماء النصرانية[3] : (والجالس عن يمين صاحبه يكون منفصلاً عنه)[4] .

ويتساءل الخزرجي مستنكرًا : إذا كان الأب إله والمسيح الجالس على يمينه إله : فمن منهما خلق صاحبه ؟! ولا ريب أن المخلوق منهما ضعيف وليس بإله[5] .

---

(١) المقامع للخزرجى ص ١٣١ - إنجيل يوحنا صح ٤ عدد ٤٤ : (لأن يسوع نفسه شهد أن ليس لنبى كرامة فى وطنه)

(٢) المقامع للخزرجى ص١٣١ إنجيل مرقس صح ١٠ عدد ١٧ ، ١٨ (وفيما هو خارج إلى الطريق ركض واحد وجثى له وسأل : أيها المعلم الصالح ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية فقال له يسوع : لماذا تدعونى صالحًا ، ليس أحد صالحًا إلا واحد وهو الله)

(٣) نصر بن يحيى المتطبب

(٤) النصيحة الإيمانية فى فضيحة الملة النصرانية لنصر بن يحى المتطبب تحقيق دكتور محمد عبد الله الشرقاوى - دار الصحوة ص١٢٨

(٥) المقامع للخزرجى ص ١٧٨

والنصوص الإنجيلية تثبت أن المسيح كان يأكل ويجوع ، ويشبع ولا ينكر النصارى أنه كان يتغوط[١] :

- ذكر الخزرجي أنه جاء في إنجيل يوحنا الإصحاح السابع عشر أن اليهود لما أرادت القبض على المسيح رفع رأسه إلى السماء، وقال : (قد دنا الوقت يا إلهي فشرفني لديك واجعل لي سبيلاً إلى أن أملك ما ملكتني ، الحياة الباقية، وإنما الحياة الباقية أن يؤمنوا بك إلهًا واحدًا وبالمسيح الذي بعثت ، وقد عظمتك على أهل الأرض، واحتملت ما أمرتني به فشرفني لديك)[٢] .
- واستدل بما جاء في إنجيل متى أن عيسى قال لتلاميذه : (لا تسبوا أباكم على الأرض فإن أباكم الذي في السماء وحده ، ولا تدعوا معلمين فإن معلمكم المسيح وحده)[٣] .

  ويذهب الخزرجي إلى أن المسيح ينهاهم في هذا النص عن سب الإله بقولهم إنه على الأرض، والحقيقة أنه في السماء .
- كما استند الخزرجي إلى ما جاء بإنجيل لوقا من أن عيسى المسيح نبي مرسل من عند الله، وذكر ما نصه: (أن عيسى أحيا الميت بباب مدينة (نائين) عندما أشفق لأمه لشدة حزنها عليه فقالوا إن هذا النبي العظيم والله قد تفقد أمته)[٤] .

---

(١) المصدر السابق ص ١٣٠

(٢) المقامع : الخزرجي ص١٣٢ ، ورد هذا النص في إنجيل يوحنا صح ١٧ عدد ٤:١ ونصه : (تكلم يسوع بهذا ورفع عينيه نحو السماء وقال أيها الآب قد أتت الساعة مجد ابنك ليمجدك أبنك أيضًا إذ أعطيته سلطانًا على كل جسد ليعطي حياة أبدية لكل من أعطيته. وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته)

(٣) المقامع : الخزرجي ص١٣٢ . إنجيل متى صح ٢٣ عدد ٩ ، ١٠ (ولا تدعوا لكم أبًا على الأرض لأن أباكم واحد الذي في السموات ولا تدعوا معلمين لأن معلمكم واحد المسيح)

(٤) المقامع : الخزرجي ص١٣٢، ١٣٣ . قارن إنجيل لوقا صح ٧ عدد ١٢:١٥

- واستدل الخزرجي على بشرية عيسى عليه السلام وأنه نبى مرسل بما جاء فى إنجيل يوحنا أن عيسى قال لليهود : (لست أقدر أن أفعل من ذاتى شيئًا لكننى أحكم بما أسمع لأننى لست انفذ إرادتى بل إرادة الذى بعثنى)(١) .
- واستشهد الخزرجي على بشرية المسيح ونبوته بما جاء فى إنجيل يوحنا من أن المسيح قال لليهود معلنًا : (قد عرفتمونى فى موضعى ، ولم آت من ذاتى ، ولكن بعثنى الحق وأنتم تجهلونه)(٢) .
- وفى إشارة واضحة من المسيح عليه السلام إلى أن من سنن اليهود قتل الأنبياء وحذرهم من ممارسة هذه الوسيلة الدموية معه، وأكد بشريته فى نصوص واضحة لا تحتمل التأويل كقوله : (على أنى رجل أديت إليكم الحق الذى سمعته)(٣)، وكذلك قوله : (لو كان أباكم لحفظتمونى لأنى رسول منه ... ولم أقبل من ذاتى، ولكن هو بعثنى)(٤) ومعنى رسول منه أى رسول مرسل من الله تعالى .

والحقيقة أن مثل هذه العبارات تتفق تمامًا مع ما جاء فى القرآن الكريم بشأن نبوة عيسى عليه السلام .

واحتج الخزرجي بأن المسيح كان يمشى ذات يوم فأحاط به اليهود وسألوه: (إلى متى تخفى أمرك أن كنت المسيح الذى ننتظره ، فأعلمنا بذلك)(٥) .

---

(١) المقامع : الخزرجى ص١٣٣، قارن إنجيل يوحنا الإصحاح الخامس عدد ٣٠

(٢) المقامع : الخزرجى ص١٣٣ . إنجيل يوحنا ٧ : ٢٨ (فنادى يسوع وهو يعلم فى الهيكل قائلاً: تعرفوننى وتعرفون من أين أنا ومن نفسى لم آت بل الذى أرسلنى هو حق الذى أنتم لستم تعرفونه) .

(٣) المقامع للخزرجى ص ١٣٤

(٤) المقامع ص١٣٤ . إنجيل يوحنا صح ٨ عدد ٤٢ (فقال له يسوع لو كان الله أباكم لكنتم تحبوننى لأنى خرجت من قبل الله وأتيت ، لأنى لم آت من نفسى بل ذاك أرسلنى)

(٥) المصدر السابق ص١٣٤

ومن المعلوم - كما يؤكد الخزرجي - أن المسيح الذى ينتظره اليهود بلا خلاف بينهم هو إنسان حيث يقول : (ولا اختلاف عند اليهود أن الذى انتظروه إنسان نبى، ليس بإنسان إله)(١) .

وينبغى ألا يفهم من عبارة الخزرجى السابقة أن اليهود مجمعون على الاعتقاد بالمسيح المنتظر ؛ حيث إن بعض الفرق اليهودية لا تؤمن بالمسيح المنتظر مثل فرقة الصدوقيين(٢) ولكن يفهم من هذه العبارة بأنه لا خلاف بين الذين يعتقدون من اليهود بالمسيح المنتظر بأنه إنسان نبى وليس بإله .

وقد انعكس موقف اليهود من المسيح المنتظر على القضايا السياسية المعاصرة فالذين يؤمنون بالمسيح المنتظر من اليهود المعاصرين يرفضون قيام دولة إسرائيل لأنهم يعتقدون بأن الذى سيجمعهم فى أرض فلسطين هو المسيح المنتظر، ومن ثم فإن عودتهم إلى الأرض المقدسة مترتبة على مجيء المسيح المنتظر، وطالما لم يأت المسيح بعد فيجب ألا تقوم لبنى إسرائيل دولة، ومن ثم فإن قيام دولة إسرائيل تعتبر فى نظر هؤلاء مخالفة للعقائد اليهودية؛ حتى أن منهم من يرى ضرورة العمل على إسقاط هذه الدولة(٣) .

تبقى مسألة تحتاج منا إلى شىء من التأمل والتحليل وهى أمام هذه النصوص الكثيرة والقاطعة الدلالة على بشرية عيسى عليه السلام : لماذا يؤمن النصارى حتى يومنا هذا بألوهية المسيح عليه السلام ؟

والحقيقة أن هذه القضية لها جوانب كثيرة ومتعددة نشير إلى الجانب النفسى منها، فتقليد الآباء والركون إلى العادة والإلف من أهم العوامل النفسية وراء مثل هذه الاعتقادات وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى آيات متعددة، ويبدو أن بعض

---

(١) المقامع ص١٣٤

(٢) الصدوقيون هى فرقة يهودية تنكر كثيراً من العقائد كالبعث واليوم الآخر والملائكة والشياطين، وقيل إن سبب هذه التسمية تأتى من قبل خصومهم على سبيل السخرية لإنكار هذه العقائد

(٣) تناقشت مع أحد اليهود حول اليهود المعترضين على قيام دولة إسرائيل فاعترف لى بوجودهم ، وأخبرنى أنهم يعرفون بين المجتمع اليهودى بالمتطرفين فعجبت

العقول، والنفوس، لا تستطيع أن تتقبل رسولاً معصومًا من بني آدم، ولذلك فحين يأتي المسيح عليه السلام بمعجزاته المعروفة فإن هناك من العقول ما لا يستطيع أن يتقبلها من إنسان فضلاً عن أن يؤمن أيضًا أن هناك رسولاً معصومًا من بني البشر.

ولقد عانى سيدنا محمد ﷺ من هذا الأمر كثيرًا فالنفوس البشرية تتشابه رغم اختلاف الزمان والمكان حيث اعترض قوم على بعثة بشر : ﴿وَقَالُوا مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾(١) ، وكذلك قال تعالى : ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ (٢) .

وحين طلب الكفار من النبي ﷺ أشياء عجيبة كأن يفجر من الأرض ينبوعًا، أو تكون له جنة من نخيل وأعناب ، أو يأتي لهم بالله والملائكة ... إلخ .

جاءت الإجابة لتؤكد وتذكر ببشريته ﷺ : ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ (٣) .

وهكذا نرى أن الخزرجي استطاع دحض عقيدة الألوهية لدى اليهود والنصارى معتمدًا على العقل والنقل معًا ، ويجدر بنا أن نتعرف على موقفه من عقيدة صلب المسيح عليه السلام .

ب) نقد ابن أبي عبيدة لدعوى صلب المسيح عليه السلام :

أثبت الخزرجي بطلان الصلب بأدلة عقلية ، ونقلية ، وتاريخية ، فذكر هذا الشاب بأمانة – ليست غريبة على المجادلين المسلمين – ما أورده القس لتأييد الصلب من أن الله أراد أن ينتقم من آدم ولكن لعلو قدر الله ، وسقوط منزلة العبد انتقم من الإنسان – عيسى عليه السلام – الذي هو إله مثله(٤) .

(١) سورة الفرقان ، آية ٧
(٢) سورة الإسراء ، آية ٩٤
(٣) سورة الإسراء ، آية ٩٣
(٤) المقامع للخزرجي ص١٧٣

وجاء رد ابن أبى عبيدة منطقيًا إذ رأى أن الأوْلَى بالإله أن يعفو عن السيئات فضلاً عن أن يعاقب أحدًا بذنب غيره ، لأن هذا هو غاية الظلم ونهاية الجور[١]، ثم إذا كان الصلب وقع على الناسوت فإلى الآن لم ينتقم الله أو ينتصف من إله مثله كما ذهب هذا القس[٢] .

ويسأل الشاب المسلم القس أن يخبره : هل رأى أحدٌ أن سيدًا غضب على عبده فانتظر حتى يلد السيد ابنًا ثم يقتله لكى يغفر ذنب العبد ؟ . ولا شك – كما يذكر الخزرجى – أن هذا سيزيد من كرب السيد ، ولا يقول بهذا عاقل أو مجنون[٣] .

واستمر الخزرجى فى تتبع دعوى الصلب ؛ ليكشف أن صفات المصلوب تختلف عن صفات المسيح – عليه السلام – كما ورد بالأناجيل :

أ) لأن المصلوب كان يطلب شرابًا ، والمسيح كما تزعم الأناجيل كان يطوى أربعين يومًا وليلة بلا طعام أو شراب[٤] .

ب) اعترض المصلوب على إرادة الله بقوله : إلهى إلهى لم خلقتنى ؟ والمسيح منزه عن ذلك[٥] .

جـ) حين طلب اليهود المسيح خرج إليهم ، وسألهم : من تريدون ؟ فأجابوا يسوع[٦] .

وهذا دليل على أنهم لم يعرفوه ، ويؤكد ذلك أن يهوذا جعل العلامة التى تدل على أنه المسيح هو أن يقبله . واستأنس الخزرجى لتأييد ذلك بالنصوص القرآنية كقوله

(١) المقامع للخزرجى ص١٧٣
(٢) المصدر السابق نفس الصفحة
(٣) المصدر السابق ١٧٤
(٤) المصدر السابق ص١٦٤
(٥) المصدر السابق نفس الصفحة
(٦) يوحنا صح ١٨ عدد ٤ : ٥ قال المسيح قال : (من تطلبون أجابوه يسوع الناصرى) .

تعالى : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ﴾(٢) .

ويتعجب الخزرجي من أن الأناجيل تذكر أن عيسى – عليه السلام – نشأ بين اليهود ، وكان يعلمهم في مواسمهم ، وأعيادهم ، وهياكلهم ، ويناظرهم ، ويعجبون من براعته ومع هذه الشهرة فإنهم حين أرادوا قتله لم يعرفوه حتى أعطوا تلميذه يهوذا ثلاثين درهمًا ؛ ليدلهم عليه وهذا دليل على وقوع الشبه(٣) ، أو رفع المسيح إلى السماء كما رفع أخنوخ النبي(٤) .

ويذكِّر الخزرجي القس بأن النصارى يعتقدون أن (يهوذا الأسخريوطي) قد خان المسيح وسلمه للأعداء ؛ ولذلك يعتقد النصارى أنه سيخلد في جهنم ، مع أنه أحد الحواريين الأثنى عشر ، والنصوص الإنجيلية تصرح أن الحواريين جميعًا سينالون السعادة الأبدية .

وكلام الخزرجي مبني على معرفة عميقة بنصوص الإنجيل ، فقد ورد بإنجيل متى أن المسيح قال للحواريين جميعًا (الحق أقول لكم إنكم أنتم الذين تبعتموني في التجديد متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده تجلسون أنتم أيضًا على أثني عشر كرسيًا تدينون أسباط إسرائيل الاثنى عشر)(٥) .

وأمام هذا التناقض يضع الخزرجي القس أمام أحد اختيارات ثلاثة لا بد من أن يختار أحدها مستخدمًا « دليلاً » جدليًا يعرف بتقسيم الكلام على الخصم :

- إما أن يكون يهوذا لم يدل على المسيح .

---

(١) سورة النساء ، آية ١٥٧ : ١٥٨

(٢) سورة النساء ، آية ١٥٧

(٣) المقامع ص ١٦٦

(٤) أخنوخ بن يارد بن مهللنيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام

(٥) متى صح ١٩ عدد ٢٨

- أو يكون المسيح عليه السلام قد كذب فى قوله بأن الحواريين جميعًا بما فيهم يهوذا سينالون السعادة الأبدية .
- أو يكون الإنجيل قد تحرف وتبدل[١] .

والملاحظ أن أى اختيار من الاختيارات الثلاثة سينقض مذهب النصارى .

ويؤيد الخزرجى دعوى القرآن من أن المسيح لم يقتل ، أو يصلب ، ولكن شبه لهم بما يعتقده النصارى أنفسهم من أن الله تعالى قلب عصا موسى إلى حية فإذا كان جعل نبات أو جماد يشبه حية فمن بال أولى أن يشبه الإنسان إنسانًا آخر مثله[٢] كما لا يستحيل على الله تعالى أن يكون قد صور شيطانًا أو غيره بصورة المسيح فصلبوه، ورفع المسيح إليه[٣] . ويظهر الحس التاريخى لدى الخزرجى من أنه رأى أن من غير المقبول عقليًا أن تبنى العقائد الإيمانية على أحلام ، أو ادعاءات أفراد عاديين وذلك أن ملكًا روميًا يدعى قسطنطين[٤] ادعى أنه انتصر على عدوه بفضل رؤيا منامية أوحت إليه أنه ينتصر على أعدائه بالصليب فقال لقومه : « أوحى إلى فى نومى أنه كان الله تعالى هبط من السماء إلى الأرض فصلبته اليهود»[٥] .

وأخذ هذا الملك فى تحريف النصرانية ، كالقول بالصلب ، والقول بترك الختان؛ لأن الروم لا يختتنوا[٦] .

بعد تعرضنا لأهم قضية من قضايا الخلاف العقائدى بين الإسلام، وكل من اليهودية والنصرانية المتمثلة فى رفض الإسلام لمفهوم الألوهية لديهم، وقولهم بصلب المسيح عليه السلام ، فإنه يجدر بنا أن نتعرض لمظهر آخر من مظاهر الخلاف العقدى بين المسلمين وأهل الكتاب، وهو تحريف كتب اليهود والنصارى؛ لنتعرف على جهود ابن حزم ، وابن أبى عبيدة الخزرجى فى هذا المجال .

---

(١) المقامع ص١٦٨
(٢) المصدر السابق ص ١٦٦
(٣) المصدر السابق ص ١٦٧
(٤) قسطنطين ٢٧٤:٣٧٢م إمبراطور رومانى تولى الحكم ٣٠٦م ولم يعمد إلا على سريره عند الموت
(٥) المقامع : الخزرجى ص١٧١
(٦) المصدر السابق ص١٧٠

ثانيا : أدلة ابن حزم وابن أبى عبيدة على تحريف التوراة والإنجيل

يعجب الناظر فى كتب اليهود ، والنصارى مما فعلته الأيدى الآثمة من تحريف فى التوراة ، والإنجيل ، ويزداد العجب من قبول أحبار أهل الكتاب لما ورد فيها سواء على مستوى الألوهية ، أو القصص النبوى ، أو التشريع والأحكام رغم قلته، فكل ما ورد بهذه الكتب يثبت الأثر البشرى فيها وقد تعددت طرق التبديل فى هذه الكتب كما يلى :

■ **الكتمان :**

مثل محاولة إخفاء حكم الرجم فى عهد النبى ﷺ ويشير القرآن الكريم إلى كتمان أحبار اليهود، والنصارى كلام الله بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤)﴾ (١) .

■ **التحريف :**

بمظاهره المختلفة ، ويشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾(٢) .

وكان ذلك عن طريق الحذف من مواضع ، والزيادة فى مواضع، وورد فى ذلك: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)﴾(٣) .

---

(١) سورة البقرة ، آية ١٧٤

(٢) سورة المائدة ، آية ١٣

(٣) سورة البقرة ، آية ٧٩

■ النسيان :

ويتضح ذلك فى قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾[1] ، وأيضًا : ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾[2] .

وقد أثبت ابن حزم ، وابن أبى عبيدة عن طريق وجوه النقد الخارجى « السند » والداخلى « المتن أو النص » تحريف هذه الكتب بما لا يدع مجالاً للشك ، وهذا ما سنبينه :

١ - أدلة ابن حزم على تحريف التوراة والإنجيل :

قام ابن حزم بدراسة التوراة والإنجيل دراسة تاريخية معمقة ، فقام بدراسة تاريخ بنى إسرائيل لمعرفة كيفية تواتر كتابهم المقدس، وأثر الفتن، والأحداث فى ضياع نصوص التوراة والإنجيل الأصلية، وقام - كذلك - بتحليل نصوص هذه الكتب، ومقارنتها، ليكشف مدى اتساقها واختلافها :

■ النقد الخارجى للتوراة والإنجيل :

قارن ابن حزم كيفية نقل الكتب المقدسة ، وأمور الدين لدى المسلمين من جهة، واليهود والنصارى من جهة أخرى، وذكر ستة أنواع لهذا النقل ثلاثة منها تعتبر ميزة خص الله بها الإسلام دون سائر الملل ، وهى التى ارتضى أبو محمد قبولها فى الدين، وتتمثل فى :

أ) ما ينقله أهل المشرق والمغرب ، عن أمثالهم جيلاً بعد جيل ، لا يختلف فيه مؤمن، ولا كافر منصف غير معاند للمشاهدة، وهو القرآن الكريم، والصلوات الخمس ، وصوم رمضان ، والحج والزكاة، وسائر شرائع القرآن، وآيات نبوته ﷺ[3] .

(١) سورة المائدة ، آية ١٣

(٢) سورة المائدة ، آية ١٤

(٣) الفصل جـ ٢ ص٢٢٠

ب) ما نقله الكافة عن مثلها إلى رسول الله - ﷺ - ككثير من آياته ومعجزاته ﷺ .

جـ) ما نقله الثقة عن الثقة حتى يبلغ ذلك إلى رسول الله ﷺ ، ويتصف أصحاب هذا النقل بالعدالة[1] .

ورأى أبو محمد أن هذه الأنواع الثلاثة من النقل لم تتوفر لنقل الديانتين اليهودية والنصرانية، وذلك لأن أوائل اليهود كفروا بدين موسى عليه السلام ، وعبدوا الأوثان دهوراً طويلة ، وقتلوا الأنبياء ، والداعين لدين الله تعالى، أما النصارى فنقلهم عن خمسة رجال فقط ، ووضح الكذب عليهم[2] .

أما الثلاثة أنواع من النقل الأخرى، التى قد نجد لها أثرًا فى نقل اليهود، والنصارى لدينهم، ويرفضها ابن حزم فهى :

د) ما نقله أهل المشرق والمغرب أو الكافة ، أو الواحد الثقة عن أمثالهم إلى أن يبلغ إلى من ليس بينه ، وبين النبى - ﷺ - إلا واحد فأكثر فلم يعرف من هو .

ويرى ابن حزم أن كثيراً من نقل ايهود من هذا النوع، بل هو أعلى ما عندهم، أما النصارى فليس عندهم من أمثلة هذا النقل سوى تحريم الطلاق على أن مخرجه من كذاب فثبت كذبه[3] .

هـ) ما نقله أهل المشرق والمغرب، أو كافة عن كافة، أو ثقة عن ثقة حتى يبلغ إلى النبى - ﷺ - إلا أن فى الطريق رجلاً مجروحًا يكذب، أو غفله أو مجهول الحال وهذا - كما يذكر ابن حزم - صفة نقل ايهود والنصارى فيما أضافوه لأنبيائهم[4].

---

(١) الفصل جـ ٢ ص٢٢١

(٢) المصدر السابق جـ٢ ص٢٢٠ ، وهو ما يؤكده القاضى عبد الجبار المغنى، إذ يقول عن أصحاب الأناجيل، « وقد علم أن الأربعة يجوز عليهم التغيير ، والتبديل ، والتهمة بالكذب» المغنى جـ٥ ص١٤٣

(٣) الفصل جـ٣ ص٢٢٢

(٤) الفصل جـ ٢ ص ٢٢٢

و) ما نقله أهل المشرق والمغرب، أو الكافة عن الكافة، أو الثقة عن الثقة حتى يبلغ إلى صاحب أو تابع، أو إمام دونهما أنه قال بكذا، أو حكم بكذا غير مضاف ذلك إلى النبى ﷺ .

وهذا الصنف من النقل - كما يذكر ابن حزم - هو صفة جميع نقل اليهود لشرائعهم، التى هم عليها الآن مما ليس فى التوراة ، وهو صفة جميع نقل النصارى عدى تحريم الطلاق .

ثم ينبه ابن حزم إلى أن اليهود لا يمكنهم أن يبلغوا بذلك النقل إلى صاحب نبى، ولا إلى تابع ، وآخر من يقف عنده النصارى فى نقلهم شمعون ، ثم بولس ، ويرى ابن حزم أنهم كاذبون(١) ، كما أن النصارى بمذاهبهم المختلفة مجمعون على أن الأناجيل التى بأيديهم ليست منزلة من عند الله تعالى، وإنما هى أربعة تواريخ ألفها أربعة رجال فى أزمنة مختلفة(٢) .

ولا شك أن ابن حزم طبق شروط التواتر الصحيح، واستفاد من علم الحديث فى دراسة أحوال الرجال، فكما كان نقل النصارى عن كاذبين فكذلك كان فى الكهنة الهارونيين المنوط بهم حفظ التوراة ما فى غيرهم من الكفر ، والفسق ، وعبادة الأوثان(٣) .

ويقرر ابن حزم قاعدة مهمة فيقول : « وبالجملة فكل كتاب وشريعة كانا مقصورين على رجال من أهلها، وكانا محظورين على من سواهما ، فالتبديل، والتحريف مضمون فيهما »(٤) .

---

(١) الفصل جـ ٢ ص٢٢٣

(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ١٣

(٣) المصدر السابق جـ ١ ص٢٩٩

(٤) المصدر السابق جـ ١ ص ١٩٦، ١٩٧ وانظر الرد على ابن النغريلة ص٧٧

وتتبع ابن حزم التاريخ السياسى ، والدينى لليهود مبينًا حال توراتهم خلال هذه الأطوار التاريخية ، إذ يقول : « ونحن نصف إن شاء الله تعالى حال كون التوراة عند بنى إسرائيل من أول دولتهم إثر موت موسى - عليه السلام - إلى انقراض دولتهم إلى رجوعهم إلى بيت المقدس إلى أن كتبها لهم عزرا الوراق بإجماع من كتبهم، واتفاق من علمائهم دون خلاف يوجد من أحد منهم فى ذلك، وما اختلفوا فيه من ذلك نبهنا عليه ، ليتيقن كل ذى فهم أنها محرفة مبدلة»(١) .

والحق أقول أن ابن حزم كان له باع عظيم فى تطبيق منهج النقد التاريخى للأديان ، وسبق به علماء الغرب ، فليس سبينوزا هو مؤسس منهج النقد التاريخى للأديان كما زعم أحد الباحثين(٢) .

وتطبيقًا لهذا المنهج :

أ) استقرأ ابن حزم حال ملوك بنى إسرائيل، وحكامهم، وقضاتهم بين الإيمان والكفر منذ وفاة موسى - عليه السلام - إلى ولاية أول ملك لهم ، حيث أصابتهم سبع ردات ، فيقول ابن حزم : « فاعلموا الآن أنه كان مذ دخلوا الأرض المقدسة إثر موت موسى - عليه السلام - إلى ولاية أول ملك لهم ، وهو « شاول » المذكور سبع ردات ، وأعلنوا عبادة الأصنام(٣) » .

ب) دراسة تاريخ ملوك الأسباط العشرة، يقول ابن حزم : "وأما ملوك الأسباط فلم يكن فيهم مؤمن قط، ولا واحد فما فوقه، بل كانوا كلهم معلنين عبادة الأوثان، مخيفين للأنبياء، ما نعين القصد إلى بيت المقدس، لم يكن فيهم نبى قط، إلا مقتولاً أو هاربًا مخافًا(٤)".

---

(١) الفصل جـ ١ ص ٢٨٧

(٢) د. حسن حنفى: رسالة فى اللاهوت والسياسة لسبيوزا ترجمة د. حسن حنفى ط٢ سنة ١٩٨١م ص ٢٤٣

(٣) الفصل جـ ١ ص ٢٩٠

(٤) المصدر السابق جـ١ ص٢٩٤

ومما يدل على أن آراء المسلمين، وفى مقدمتهم ابن حزم قد كتب لها الشيوع والانتشار، وأثرت فى الفكر اليهودى أن ابن كمونة[١] – القرن السابع الهجرى – حاول الرد على هذا النقد التاريخى دون أن يحدد شخصية من يرد عليه، وإنما يكتفى بالإشارة إلى المسلمين، إذ يقول : "وما ذكروه من كون ملوك اليهود عبدوا الأوثان[٢]"، ورغم أن ابن كمونة يعترف بعبادة ملوك اليهود للأوثان فإنه لا يرى أن هذا كان كفرًا منهم باليهودية، أو بموسى عليه السلام، وإنما للإفادة من الخواص التى تتميز بها تلك الأوثان[٣]!

جـ) دراسة تاريخ ملوك مملكة يهوذا بعد وفاة المسلمين : أثبتت الدراسة التاريخية التى قام بها ابن حزم وقائع خطيرة أصابت التوراه، فتعرضت لكشط أسماء الله – عز وجل – ووضع أسماء الأوثان بدلاً منها، كما تعرضت للحرق[٤] ... إلخ.

ومن علماء المسلمين الذين أشاروا إلى أثر تقلبات الدهر فى تحريف التوراه إمام الحرمين الجوينى (ت٤٧٨هـ) فذكر فتنة "نبوخذ نصر" وما فعله باليهود من قتل، ونصبه صنمًا فى بيت عبادتهم، وإتلافه لما فى أيديهم من كتب حتى كان من يظفر بشىء من أوراقها يقصد المغائر، ويتحيل فى قراءتها خلسة[٥].

وأفاض الشيخ رحمة الله الهندى فى كتابه "إظهار الحق" فى بيان أثر الفتن فى تحريف كتب اليهود والنصارى حتى أنه اعتذر أحد القساوسة[٦] حين طالبه الشيخ

---

(١) سعد بن منصور بن كمونة – القرن السابع الهجرى – صنف كتاب تنقيح الأبحاث للملل الثلاث ببغداد واشتهر أمر هذا الكتاب فثار عوام المسلمين يطلبون ابن كمونة فوضع فى صندوق وهرب.

(٢) تنقيح الأبحاث للملل الثلاث اليهودية – المسيحية – الإسلام لابن كمونة – دار الأنصار ط٢ ص٣٢

(٣) المصدر السابق نفس الصفحة .

(٤) الفصل جـ١ ص٢٩٨

(٥) شفاء الغليل أو العليل فى بيان ما وقع فى التوراه والإنجيل من التبديل لأبى المعابى عبد الملك بن عبد الله الجوينى تحقيق د.أحمد حجازى السقا – ط٣ سنة ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م – ص٤٦

(٦) يدعى القسيس فندر.

رحمة الله بالسند المتصل فى محفل المناظرة معه قائلاً : "إن سبب فقدان السند عندنا وقوع المصائب والفتن على المسيحيين إلى مدة ٣١٣ سنة[١]".

النقد الداخلى للتوراه والانجيل :

إن دراسة النصوص المقدسة لدى أهل الكتاب تكشف للباحث بسهولة تناقضات هذه النصوص مع العلم، والعقل السليم، ونوضح ذلك فيما يلى:

أ) تناقض نصوص التوراه والإنجيل مع العقل :

إن أغلب نصوص التوراه والإنجيل لا تتفق مع أبسط أحكام العقل، وسبق أن تعرضنا لعقائد الألوهية لدى أهل الكتاب – حيث ظهر اضطرابها، وعدم قبولها لدى العقل السليم، وكذلك الحال بالنسبة لمفهوم النبوة، الذى لا يقبله أى فكر سليم، فالأنبياء فى نظر اليهود والنصارى يجوز عليهم الكذب، والزنى، وجميع المعاصى صغائرها وكبائرها.

وكان ابن حزم يستخدم منهجاً يعتمد على ذكر النصوص التى لا تحتمل التأويل أو التخريج بوجه من الوجوه، وقد نص على هذا بقوله: "وأما الإنجيل وكتب النصارى فنحن إن شاء الله موردون من الكذب المنصوص فى أناجيلهم، ومن التناقض الذى فيها أمراً لا يشك كل من رآه فى أنهم لا عقول لهم وأنهم مخذولون جملة[١].

ب) تختلف توراة اليهود مع توراة النصارى فى المتن:

رغم أن اليهود والنصارى يؤمنون بالتوراه فإن توراه الطائفتين تختلفان فى كثير من النصوص، كاختلافهما فى أعمار كثير من الشخصيات فى كل من توراه اليهود،

(١) إظهار الحق للشيخ رحمه الله الهندى – دار الجيل بيروت – ط١ سنة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م جـ١ ص٦٠

والنصارى وتلك أمثلة لاختلاف التواريخ بين توراه اليهود، وتوراه النصارى[١].

توراه اليهود	توراه النصارى
لما عاش شيث ١٠٥ سنة ولد اينوش	لما عاش شيث ٢٠٥ سنة ولد اينوش
حين بلغ اينوش ٩٠ سنة ولد قينان	حين بلغ اينوش ١٩٠ سنة ولد قينان
عندما بلغ قينان ٧٠ سنة ولد مهللال	عندما بلغ قينان ١٧٠ سنة ولد مهللال
لما بلغ مهللال ٦٥ سنة ولد يارد	لما بلغ مهللال ١٦٥ سنة ولد يارد

والذى يراجع "الفصل فى الملل والأهواء والنحل" خاصة الجزء الأول سيجد ابن حزم قد تعرض كثيراً لقصص الأنبياء، كما وردت فى التوراه بالنقد والتمحيص.

جـ) تناقض النص بين إصحاحات الإنجيل الواحد :

أشار ابن حزم إلى أن الإنجيل الواحد قد تتناقض نصوص إصحاحاته مع بعضها البعض مثل ما جاء فى أحد إصحاحات إنجيل يوحنا أن المسيح قال إن شهادته عن نفسه حقًا، وفى إصحاح آخر من نفس إنجيل يوحنا جاء على لسان المسيح أن شهادته عن نفسه ليست حقًا[٢] والنصان هما :

"وإن كنت أشهد لنفسى فشهادتى حق[٣]"

وفى موضع آخر "إن كنت أشهد لنفسى فشهادتى ليست حقًا[٤]"

(١) المصدر السابق جـ٢ ص٢١، ٢٢ سفر التكوين صح٥ عدد ٩: ١٥ (وعاش شيث ١٠٥ سنة وولد أنوش وعاش شيث بعد ما ولد أنوش ٨٠٧ سنة، وولد بنين وبنات .. وعاش أنوش ٩٠سنة، وولد قينان وعاش أنوش بعدما ولد قينان ٨١٥ سنة ... وعاش قينان ٧٠ سنة وولد مهللئيل .. وعاش مهللئيل ٦٥ سنة ولد يارد ...) ومن علماء المسلمين الذين اهتموا ببيان فروق التواريخ والأعمار بين توراه اليهود، وتوراه النصارى الجوينى (ت٤٧٨هـ) فى كتابه "شفاء الغليل" ص٣٨ : ٤٣

(٢) الفصل جـ٢ ص١٨٠

(٣) يوحنا صح ٨ عدد ١٤

(٤) يوحنا صح ٥ عدد ٣١

وعلق ابن حزم على هذه الاختلافات بأن جماعة من أتباع المسيح عليه السلام حين سمعوا منه هذه الأقوال المختلطة، والمتضاربة فارقوه[1].

د) تناقض النص بين إصحاحات الأناجيل المختلفة :

إذا كانت إصحاحات الإنجيل الواحد تتناقض، فإن إصحاحات الأناجيل المختلفة تكون أكثر اختلافًا من باب أولى، وقد ذكر ابن حزم أمثلة كثيرة لهذه الاختلافات، كاختلاف نسب المسيح بين متى ولوقا.

هـ) أخطاء علمية بالتوراه :

إن موسوعية ابن حزم، وتنوع ثقافته التى تذهل القارىء تظهر فى بيانه لتناقض نصوص التوراه مع كثير من فروع العلم، وبذلك يكون ابن حزم: "قد قدم بهذا العمل نموذجًا جيدًا لدارس الوثائق القديمة، الذى ينبغى أن يحتشد لموضوعه معتمدًا على كل العلوم المساعدة فى مجال بحثه[2]".

وقد تنوعت أخطاء التوراه العلمية، كالحساب، والتاريخ، والجغرافيا، وأحكام الطبيعة، وعلم المساحة ... إلخ.

ونحاول تتبع بعض هذه الأخطاء كما ذكرها ابن حزم فيما يلى:

أخطـاء حسابيـة :

إن كثرة الأخطاء الحسابية فى نصوص التوراه، والتى أحصى معظمها ابن حزم تدل على دقته – وأن محرف التوراه كان جاهلاً بالحساب، فأخطأت فيما لا يخطىء فيه صبى يحسن الجمع، والطرح، والقسمة، كما ذكر ابن حزم[3].

ومن الأخطاء الحسابية، التى ذكرها ابن حزم أن نصوص التوراه تذكر أن الطوفان حدث وعمر (سام بن نوح) ١٠٠سنة، وفى نص آخر تذكر التوراة أن (سام

(١) الفصل جـ٢ ص١٨٠

(٢) الفلسفة الإسلامية مدخل وقضايا : د.حامد طاهر – دار الثقافة العربية ص٢٥٢

(٣) الفصل : ابن حزم جـ١ ص ٢١٦

بن نوح) ولد "أرفخشاذ" حصل الطوفان، ويفهم من هذا أن الطوفان حصل وعمر سام ١٠٢ سنة وليس ١٠٠سنة[١].

كذلك من الأخطاء الحسابية التى وقعت فيها نصوص التوراه أنها ذكرت أن أولاد يعقوب خمسة وعشرون، فيكون مجموع أولاد يعقوب هو: ٦ ذكور + ابنه + ٢٥حفيد = ٣٢ ومع ذلك يذكر النص التوراتى أن أبناء يعقوب ٣ (هؤلاء بنوا ليئه، وعدد أولادها، وبناتها ثلاثة وثلاثون[٢]).

أخطاء تاريخية :

اعتمد ابن حزم فى تحققه من صدق روايات التوراة على نصوص التوراة نفسها مما يدل على استيعابه ، وتمثله لتلك النصوص ، كما أن اعتماده على نصوص التوراة، التى تكذب بعضها البعض يقطع على الخصم فرصة الدخول فى مجادلات تاريخية ينقصها الرؤية، والمشاهدة الشخصية أو الذاتية ، فتذكر التوراة حديثًا موجهًا من الله تعالى لإبراهيم عليه السلام جاء فيه :

- سيكون نسلك غريبًا فى بلد ليس له ، ويستعبدونهم ، ويعذبونهم أربعمائة سنة ..إلخ .
- والجيل الرابع من البنين لا يرجعون إلى ها هنا (الشأم)[٣] .

ويعلق أبو محمد على هذا الحديث الإلهى المزعوم بأنه يحتوى على كذبتين فاحشتين شنيعتين منسوبتين إلى الله تعالى ، وحاشا لله من الكذب والخطأ[٤]

(١) الفصل : ابن حزم جـ١ ص٢١٢

(٢) المصدر السابق جـ١ ص٢٤٢ سفر التكوين صح ٤٦ عدد ١٤ : ١٦ (هؤلاء بنو ليئة الذين ولدتهم ليعقوب فى فدان أرام مع دينة ابنته، جميع نفوس بنيه وبناته ثلاثة وثلاثون)

(٣) المصدر السابق جـ ١ ص٢١٣

(٤) المصدر السابق.نفس الصفحة، سفر التكوين صح ١٥ عدد ١٣: ١٦ (فقال لأبرام اعلم يقينًا أن نسلك سيكون غريبًا فى أرض ليست لهم ويستعبدون لهم فيذلونهم أربعمائة سنة ثم الأمة التى يستعبدون لها أنا أدينها ، وبعد ذلك يخرجون بأملاك جزيلة وأما أنت فتمضى إلى آبائك بسلام وتدفن بشيبة صالحة وفى الجيل الرابع ويرجعون إلى ها هنا ...)

يتضح ظهور الكذبة الأولى من أنه لم يعذب أحد من أولاد يعقوب بل كانوا مبرورين ، وهم الجيل الثالث بنص التوراة[1] ، وإنما ابتدأ التعذيب فى الجيل الرابع، وبعملية حسابية أثبت أبو محمد أن مدة بقاء بنى إسرائيل بمصر كانت ٢١٧ سنة، وليس ٤٠٠ سنة[1] .

ومما يؤسف له أن من الأخطاء التاريخية التى رصدها ابن حزم فى التوراة، قول إسحاق ليعقوب : « تخدمك الأمم ، وتخضع لك الشعوب وتكون مولى إخوتك ويسجد لك بنو أبيك»[2] ، وكذب أبو محمد هذا الكلام قائلاً : « والله ما خدمت الأمم قط (يعقوب) ولا بنيه بعده ولا خضعت لهم الشعوب ... بل بنو إسرائيل خدموا الأمم فى كل بلدة، وفى كل أمة، وهم خضعوا للشعوب قديمًا وحديثًا فى أيام دولتهم وبعدها، فإن قالوا سيكون هذا قلنا لهم :

قد حصلتم على الصغار قديمًا   والأمانى بضائع السخفاء
ترجّى ربيع أن ستحيا صغارها   بخير ، وقد أعيا ربيعًا كبارها»[3]

ويحق ليهود زماننا أن يعترضوا على ابن حزم ، فقد خدَمتهم ، وما زالت تخدمهم جميع الأمم بما فيهم المسلمون فى عصرنا الحاضر .

أخطاء جغرافية :

تظهر موسوعية ابن حزم ، وتنوع معارفة فى رصده لكثير من الأخطاء الجغرافية الكثيرة، التى وقعت فيها النصوص التوراتية، ومن أمثلة ذلك نص جاء فيه (... ونهر يخرج من عدن، فيسقى الجنان، ومن ثَم يفترق فيصير أربعة أرؤس اسم أحدها النيل ، وهو محيط بجميع بلاد زويلة ، الذى به الذهب ، وذهب ذلك البلد جيد وبها

(١) الفصل : ابن حزم جـ ١ ص ٢١٥
(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ٢٢٩
(٣) المصدر السابق نفس الصفحة

اللؤلؤ وحجارة البللور ، واسم الثانى جيحان وهو محيط بجميع بلاد الحبشة ، واسم الثالث الدجلة ، وهو السائر شرق الموصل ، واسم الرابع الفرات)[1] .

وهذا النص فى نظر ابن حزم قد وقع فيه صاحبه فى عدة أخطاء نوجزها فيما يلى:

- ذكر أن الأنهار الأربعة مصدرهم أو منبعهم واحد ، وكيف يتأتى هذا ، ومخرج أحدهم وهو النيل من الجنوب خارج المعمور ، فى حين أن الآخرين وهم الدجلة والفرات وجيحان منبعهم من الشمال ، ومخارجهم مختلفة .
- فأما جيحان[2] فيخرج من بلاد الروم ، ويصب فى البحر الشامى .
- ودجلة مخرجه من زعين بقرب خلاط ، ومصبه فى البطائح بقرب البصرة بالعراق.
- وأما الفرات فمخرجه من بلاد الروم ، وينقسم إلى قسمين يقعان فى دجلة .
- قوله إن النيل محيط ببلاد زويلة، وجيحان محيط بالحبشة خطأ جغرافى، فلا يوجد نهر يمر بالسودان والحبشة معًا سوى نهر النيل .

(١) الفصل : ابن حزم جـ ١ ص ٢٠٣ ورد بسفر التكوين صح ٢ عدد ١٠ : ١٤ (وكان نهرًا يخرج من عدن ليسقى الجنة ، ومن هناك ينقسم أربعة أرؤس : اسم الواحد فيشون ، وهو المحيط بجميع أرض الحويلة حيث الذهب، وذهب تلك الأرض جيد هناك المقل وحجر الجزع، واسم النهر الثانى جيجون، وهو المحيط بجميع أرض كوش، واسم النهر الثالث حدَاقل ، وهو الجارى شرقى آشور ، والنهر الرابع الفرات) .

(٢) جيحان بالفتح ثم السكون ، والحاء وألف ونون نهر بالمصيصة بالثغر الشامى ومخرجه من بلاد الروم ويمر حتى يصب بمدينة تعرف بكفر بيًا بإزاء مصيصة، وعليه عند المعصيصة قنطرة من حجارة رومية عجيبة قديمة عريضة فيدخل منها إلى المصيصة، وينفذ منها فيمتد أربعة أميال ثم يصب فى بحر الشمال .

قال أبو الطيب :

سريت إلى جيحان من أرض آمد ثلاثًا لقد أداك ركض وأبعدا

معجم البلدان للشيخ الإمام شهاب الدين بن عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى البغدادى المجلد الثانى دار صادر بيروت باب الجيم والياء وما يليهما ص١٩٦

■ والخطأ الثالث اعتمد ابن حزم في كشفه على ما يعرف في الدراسات المعاصرة بالجغرافيا الاقتصادية[1]، وهي قوله إن زويلة[2] بها اللؤلؤ الجيد، وهذا غير صحيح فما للؤلؤ بها مكان أصلاً .

أخطاء في علم المساحة :

وصف ابن حزم محرف التوراة بأنه كان مقصراً في علم المساحة[3]؛ لأن بعض نصوص التوراة تفترض مساحات خيالية لموائد الطعام ، مثل ما ذكر أنه كان في قصر سليمان عليه السلام كل يوم ١٠٠ مائدة ذهب، على كل مائدة ١٠٠ صحفة ذهب، و٣٠٠ طبق ذهب على كل طبق ٣٠٠ كأس ذهب .

وحاول ابن حزم أن يحدد المساحة التقريبية لهذه المائدة، ووزنها، ومن ثَمّ إمكانية تحريكها من مكان لآخر ، ورأى أبو محمد أنه إذا كان قطر دائرة الصحفة لا يمكن أن يكون أقل من شبر ، والمائدة تحمل ١٠٠ صحفة، فلا بد أن تكون مساحتها لا تقل عن ١٠٠ شبر يضاف لهذه المساحة حاشية المائدة، وأرجلتها .

ومائدة هذه صفتها لا يمكن ألبتة أن يحركها إلا فيل ؛ لأن الذهب – كما يذكر ابن حزم – أوزان الأجسام وأثقلها . يضاف إلى ذلك أن كل مائدة من الموائد تحمل على الأقل ٣٠٠٠ رطل ذهب . وهنا يتساءل ابن حزم : من يرفع هذه المائدة ؟ ومن يضعها ؟ ومن يغسلها ؟ ومن يديرها ؟ ومن أين كل هذا الذهب وتلك الطباق[4] ؟ .

---

(١) الفلسفة الإسلامية مدخل وقضايا : د. حامد طاهر ص٢٥٥

(٢) هناك أكثر من بلد تدعى زويلة منها زويلة السودان مقابل أجد أبية في البر بين بلاد السودان وأفريقيا وزويلة مدينة غير مسورة في وسط الصحراء ، وهي أول حدود بلاد السودان ، ولما فتح عمر برقة بعث عقبة بن نافع حتى بلغ زويلة . وصار ما بين برقة وزويلة للمسلمين ، وزويلة طرابلس بين المغرب والقبلة، وزويلة المهدية وهي مدينة بإفريقيا بناها المهدي عبيد الله
معجم البلدان لشهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت ٦٢٦هـ) سنة ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م . المجلد السابع باب الزاي والواو وما يليهما

(٣) الفصل جـ ١ ص ٣٢٣

(٤) المصدر السابق ص ٣٢٤

ولا ريب أن فى تلك الأرقام مبالغات واضحة، فيذكر ابن حزم أن مثل هذا الكلام يدخل فى حد الكذب، والامتناع فى بنية العالم، وليس لمعترض أن يحتج لتأييد هذا الكلام بما ورد فى القرآن الكريم من أن الله سخر الريح والجن ، والطير لسليمان، وعلمه منطق الطير والنمل؛ لأن هذه المعجزات تأتى بمثلها الأنبياء، وتدخل فى حد الممكن فى بنية العالم[1] . ومن الأخطاء المساحية فى التوراة أنها تتحدث عن مدينة (قوص) فى صعيد مصر بما يفهم منه أن ملايين البشر كان تعيش فيها بكل احتياجاتهم من مسكن ، وملبس ، وطعام، ومواشى، ويذكر ابن حزم أن مساحة (مصر) تضيق عن احتمال هذا العدد (فى ذلك الزمان) ، فكيف تحتمله أرض قوص وحدها[2] ، وهى جزء من مصر .

أخطاء فى قوانين الطبيعة:

يذكر العلامة ابن حزم أنه لا يحيل الطبائع إلا خالقا شهادة لرسلة، وأنبيائه[3]؛ ليظهر الفرق بين مدعى (النبوة) إن كان صادقًا أو كذبه إن كان كاذبًا، ولا يقبل ابن حزم الخبر الوارد عن إحالة قوانين الطبيعة إلا أن يرد بذلك يقين عن الله - عز وجل - فيلزم قبوله[4] .

ورأى أبو محمد أن ما ورد بالتوراة فى قصة قلب الماء دمًا فضائح ظاهرة الكذب، والقصة كما أوردها ابن حزم جاء فيها : « ثم قال السيد لموسى قل لهارون،

---

(١) الفصل جـ ١ ص ٣٢٣

(٢) المصدر السابق جـ ١ ص٢٧٤ وقوص مدينة عظيمة قبة صعيد مصر، بينها وبين الفسطاط ١٢ يوما ، وهى محط التجار القادمين من عدن ، وهى شديدة الحر لقربها من البلاد الجنوبية ، بينها وبين قفط فرسخين وهى شرف النيل بينها وبين اليمن خمسة أو أربعة أيام وطولها من جهة المغرب ٥٥ دقيقة وعرضها ٢٤ درجة وثلاثون دقيقة. معجم البلدان المجلد السابع باب القاف والواو وما يليهما

(٣) الفصل : ابن حزم جـ ١ ص ٢٤٨ ، ٢٤٩

(٤) المصدر السابق ص١٢٥

مدَ يدك بالعصا على مياه مصر ، وأنهارها، وأوديتها، ومروجها، وجنَاتها، لتعود دمًا ، وتصير ماءً فى آنية التراب، والخشب دمًا ففعل موسى، وهارون كل ما أمرهما السيد وصار الماء فى جميع أرض مصر دمًا، ففعل مثل ذلك سحرة مصر برقاهم، واشتد قلب فرعون، ولم يسمع لهما على حال، ثم انصرف فرعون، ودخل بيته، ولم يوجه قلبه إلى هذا أيضًا وحضر جميع المصريين حوالى النهر، ليصبوا الماء منا، لأنهم لا يقدرون على شرب الماء من النهر[1] » .

يكذب ابن حزم أن يكون السحرة لهم القدرة على قلب الماء دمًا، لأننا لو قلنا بذلك لكان باب السحرة، وباب مدعى النبوة واحد[2] . والقصة تكذب نفسها، لأنها تذكر أن جميع أرض مصر قد صار دمًا، ومن ثمَ لا يتبقى ماء للسحرة حتى تقلبه دمًا .

ولو قال اليهود إنهم قلبوا ماء الآبار التى حفرها المصريون حول النهر دمًا يتساءل ابن حزم : كيف عاش الناس بلا ماء أصلاً[3] ؟! .

وحقًا ما ذهب إليه ابن حزم من أن السحرة لا يستطيعون قلب الماء - بل نقطة من الماء - دمًا لأن السحر يخيل للإنسان أشياء غير حقيقية ، فلا قدرة للسحرة على إحالة الطبائع؛ لأن هذا يكون للأنبياء معجزة لهم من الله - تعالى - تدل على صدقهم ودليل ذلك قصة موسى - عليه السلام - مع السحرة الذين جمعهم فرعون

---

(١) الفصل : ابن حزم جـ ١ ص٢٥٠ ورد بسفر الخروج صح عدد ٢٣:٢٠ (ثم قال الرب لموسى قل لهارون خذ عصاك ومدّ يدك على مياه المصريين على أنهارهم، وعلى سواقيهم، على آجامهم، وعلى كل مجتمعات مياههم لتصير دمًا فيكون دمٌ فى كل أرض مصر فى الأخشاب، وفى الأحجار، ففعل هكذا موسى وهارون، كما أمر الرب. رفع العصا وضرب الماء الذى فى النهر أمام عينى فرعون، وأمام عيون عبيده فتحول كل الماء الذى فى النهر دمًا ومات السمك الذى فى النهر، وانتن النهر، فلم يقدر المصريون أن يشربوا ماء النهر، وكان الدم فى كل أرض مصر، وفعل عرافو مصر كل ذلك بسحرهم) .

(٢) المصدر السابق ٢٤٨

(٣) المصدر السابق ص٢٥٠

حيث كان قلب عصيهم ثعابين من باب السحر، فلم تنقلب العصى إلى ثعابين، وإن ظهر للحاضرين أنها أصبحت ثعابين .

وأما قلب عصاة سيدنا موسى - عليه السلام - إلى ثعبان يسعى فكان حقيقة ، وهذا هو السبب فى أن السحرة أسلموا ؛ لأنهم استطاعو أن يفرقوا بين السحر والحقيقة فقال تعالى : ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾[1] .

أما فرعون فلم يفرق بين السحر والحقيقة فظن أن موسى ساحرٌ بل كبير السحرة فذكر القرآن حاكيًا عنه : ﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾[2] .

٢ - أدلة ابن أبى عبيدة على تحريف التوراة والإنجيل :

درس الخزرجى التوراة والإنجيل دراسة متأنية اعتمد فيها على النقد الخارجى، والداخلى، ووصل إلى زيفهما، وانتحالهما حتى أنه اعتبر هذه الكتب ما هى إلا حكايات، وتواريخ، وكلام كهنة، وتلاميذ وغيرهم، وأقسم أن تاريخ الطبرى أصح نقلاً من الإنجيل مع أن التاريخ لا يجوز أن ينبنى عليه شىء من أمور الدين[3] .

ويذهب إلى هذا الرأى الشيخ رحمة الله الهندى[4]؛ إذ يقول : «إن التوراة الأصلى وكذا الإنجيل الأصلى فقدا قبل بعثة محمد ﷺ والموجود الآن بمنزلة كتابين من السير مجموعين من الروايات الصحيحة والكاذبة»[5] .

---

(١) سورة طه ، آية ٧٠

(٢) سورة طه ، آية ٧١

(٣) المقامع للخزرجى ص ١٥٧

(٤) عالم هندى عاش بالهند فى القرن التاسع عشر وعاصر الاحتلال الإنجليزى للهند، وناضل ضد الممارسات التنصيرية للمسلمين، وكان له مع علماء النصرانية مناظرات، ومجادلات خلدت اسمه فى مجال الجدل الدينى لأهل الكتاب

(٥) إظهار الحق للشيخ رحمة الله الهندى ص١٧٦

النقد الخارجي للتوراة والإنجيل :

أثبت الخزرجي أن هذه الكتب قد تعرضت من الناحيتين الزمانية والمكانية للتحريف والتبديل، ونتبين ذلك فيما يلي :

أ) الإنجيل الحقيقى المنزل على عيسى عليه السلام مفقود ، فيتساءل ابن أبى عبيدة : « أين هذا الإنجيل المنزل من عند الله؟ » [(١)] .

أما التوراة فلم يتوفر لها الانتشار لا سيما أنها كانت - كما يذكر ابن أبى عبيدة- طول مدة ملك بنى إسرائيل عند الكاهن الهارونى وحده[(٢)] .

ب) إقرار اليهود على اتفاق سبعين كاهنًا على تبديل ثلاثة عشر حرفًا من التوراة، ويضع الخزرجي قاعدة علمية سليمة قال فيها : « ومن رضى تحريف موضع فى كتاب الله فلا يؤمن منه تحريف الكثير»[(٣)] .

ج) اختلاف نسخ التوراة التى بأيدى اليهود، فيذكر ابن أبى عبيدة الخزرجي، وسبقه ابن حزم[(٤)] أن توراة السامرية تخالف توراة باقى اليهود وكلا الفريقين يتهم الآخر بالتحريف[(٥)] ويعلق القرافى (ت ٦٨٤هـ) على ذلك بأن اليهود بذلك قد كفونا بنفسهم عن أنفسهم[(٦)] .

د) يذكر الخزرجى أن النصارى يتهمون اليهود بتحريف التوراة، ومن أجل ذلك تولد بين تاريخ اليهود، والنصارى زيادة ألف عام ونيف .

---

(١) المقامع للخزرجى ص ١٥٧

(٢) المصدر السابق ص ٢٣٨

(٣) المقامع للخزرجى ص ٢٣٩

(٤) الفصل لابن حزم جـ ١ ص ٢٠٢

(٥) المقامع للخزرجى ص ٢٣٩

(٦) الأجوبة الفاخرة للقرافى ص٢٥٩

والجدير بالذكر أن إمام الحرمين الجوينى (ت ٤٧٨هـ) أشار إلى نفس الفكرة فيقول عن النصارى : « ويزعمون أن اليهود بدلوا ما بأيديهم من نسخ عنادًا، وحذرًا من الاعتراف بإرسال المسيح عليه السلام، واليهود يزعمون أن النصارى بدلوا ما بأيديهم من النسخ»[١] .

وهكذا أفاد الخزرجى من اتهام اليهود للنصارى بالتحريف، وكذلك النصارى لليهود بنفس التهمة؛ كما أن الواقع يشير إلى اختلاف نسخ التوراة بين الطائفتين، بل بين الطوائف المختلفة للديانة الواحدة .

والجدير بالذكر أن ابن كمونة يعترف باختلاف توراة السامرية عن باقى اليهود، وكذلك توراة النصارى التى تختلف عن توراة اليهود، ولكنه كعادته الجدلية اعتذر باعتذارات واهية، فهو يتهم النصارى بتحريف توراتهم لنقلها من لغة العبرانية إلى السريانية، فوقع تحريف نتيجة إهمال النسخ أو النقل من لغة لأخرى[٢] .

أما توراة السامرية فيذكر أن السامريين نقلوا توراتهم من غير ضبط وتحرير[٣] ومن ثم تكون محاولات ابن كمونة قد جاءت تأييدًا لنقد ابن حزم والخزرجى للتوراة حتى أنه يعترف بأن التوراة السبعينية، التى سبق أن أشار إليها ابن حزم تختلف فى التاريخ[٤] .

بعد هذه الدراسة المقارنة لكتب اليهود، والنصارى، المقدسة لديهم فإن الخزرجى درس بعمق نصوص هذه الكتب، ووجه إليها اعتراضات وجيهة وحاسمة :

(١) شفاء الغليل : الجوينى ص ٣٨

(٢) تنقيح الأبحاث لابن كمونة ص ٣١

(٣) المصدر السابق ص٣١

(٤) المصدر السابق ص٣١ ، انظر الفصل : ابن حزم جـ ٢ ص٢٤

النقد الخارجي للتوراة والإنجيل :

أفاض الخزرجي في ذكر الأدلة التي تثبت تناقضات التوراة والإنجيل مع صريح العقل والنقل معًا، ونحاول أن نركز على خلاصة أدلته في النقاط التالية :

أ) تناقضات التوراة مع العقل :

تتبع الخزرجي بعضًا من القصص التوراتية التي تنال من عصمة الأنبياء عليهم السلام، مثل أن نوحًا انكشفت عورته، فضحك ابنه حام من هذا المنظر بينما جاء الابن الآخر سام إلى أبيه مستديرًا بظهره وسائرًا إلى الخلف حتى وصل إلى موضع أبيه فغطى عورته فدعا نوح على حام قائلاً: « سيسود لونك وتكون أولادك عبيدًا لأولاد أخيك»[١] .

وسخر الخزرجي من هذه القصص ، وشبهها بأحاديث العجائز والصبيان[٢]، وهذا يذكرنا بتعليق سبينوزا على تفسيرات علماء أهل الكتاب لمثل هذه الأساطير على أنها أشبه بتقوى العجائز[٣] .

ولا ريب أن مثل هذه النصوص تعطينا فكرة عن أسباب وأبعاد النزعة العنصرية، التي تسيطر على العقلية اليهودية، ودعوتهم بأنهم (شعب الله المختار) تلك الدعوى التي وصفها الفيلسوف المسلم المعاصر رجاء الله « روجيه » جارودي بأنها أشر فكرة في تاريخ الإنسانية فاختار رب متحيز شعبًا مختارًا : « وذلك للتبرير المسبق لجميع أنواع السيطرة والاستعمار والمذابح، كما لو كان تاريخ العبرانيين ، أو التاريخ المقدس هو التاريخ الوحيد في العالم»[٤] .

---

(١) المقامع للخزرجي ص٢٥٣

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة

(٣) رسالة في اللاهوت والسياسة : سبينوزا ص ٢٩٩

(٤) الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية : رجاء جارودي - ترجمة قسم الترجمة بدار الغد العربي - ط١ دار الغد العربي ١٩٩٦ م ص٢٧

ب) تناقض النص بين إصحاحات الإنجيل الواحد :

أشار الخزرجى إلى أن إصحاحات الإنجيل الواحد قد تتناقص، ووقع على نفس النص، الذى ذكره مواطنه ابن حزم من قبل ، وهو تناقض المسيح فى شهادته فمرة يقول : « وإن كنت أشهد لنفسى فشهادتى حق»[١] .

وأخرى يقول : « إن كنت أشهد لنفسى فشهادتى ليست حقًا »[٢] .

جـ) تناقض النص بين إصحاحات الأناجيل المختلفة :

وهذا النوع أكثر فى التناقض والاختلاف من سابقه ، ومن أمثلته التى ذكرها الخزرجى أنه ورد بإنجيل لوقا أن عيسى – عليه السلام – طلب من رجلين من تلاميذه أن يدخلا حصنًا حيث يجدا جحشًا ووردت نفس القصة بإنجيل متى، ولكن المذكور فى القصة أتانًا وجحشًا وليس جحشًا فقط[٣] ، وهاك النصان كما بين أيدينا اليوم :

أولهما : « قال المسيح لاثنين من تلاميذه إذهبا إلى القرية التى أمامكما وحين تدخلانها تجدان جحشًا مربوطًا لم يجلس عليه أحد من الناس قط فحلاه واتيا به»[٤] .

والثانى هو : « اذهبا إلى القرية التى أمامكما فللوقت تجدان أتانا مربوطًا وجحشًا معها فحلاهما ، وأتيانى بهما »[٥] .

ومن التناقضات الإنجيلية أيضًا أن المسيح قال : « لا تحسبوا أنى قدمت لأصلح بين أهل الأرض، لم آت لصلاحهم لكن لألقى المحاربة بينهم وإنما قدمت لأفرق بين

(١) يوحنا صح ٨ عدد ١٤

(٢) يوحنا صح ٥ عدد ٣١

(٣) المقامع للخزرجى ص ١٥٠ ، ١٥١ . قارن شفاء الغليل للجوينى ص ٥٧ ، ٥٨

(٤) لوقا صح ١٩ عدد ٣٠

(٥) متى صح ٢١ عدد ٢

المرء وابنه وبين الابنة وأمها، حتى يصير أعداء المرء أهل بيته»[١] .

وفى نص آخر يذكر المسيح فى موعظته على الجيل كلاماً آخر يتناقض تماماً مع النص السابق إذ يقول : « إنما قدمت لتحيوا وتزدادوا خيراً، وأصلح بين الناس»[٢] .

وكما يقول الخزرجى فإن النص الأول جعل المسيح نفسه نقمة لى العالم، بينما جعل نفسه فى النص الثانى رحمة عليهم[٣] .

د) تناقض النص مع الحقائق التاريخية :

ومما يثبت تحريف التوراة أنها ادعت أن الذبيح هو إسحاق، ولكن الصحيح أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام والدليل على ذلك أن طقوس الحج من الذبح والنحر تتم بمنى موطن إسماعيل وذريته[٤] .

وننتقل إلى المظهر الثالث من مظاهر الخلاف العقائدى بين المسلمين وأهل الكتاب وهو النسخ لنبين جهود ابن حزم والخزرجى فى هذا المجال .

(١) المقامع للخزرجى ص ١٥٣
(٢) المصدر السابق ص ١٥٤
(٣) المصدر السابق نفس الصفحة
(٤) المصدر السابق ص ٢٤٧

ثالثاً : جهود ابن حزم ، وابن أبى عبيدة فى إثبات نسخ القرآن لأحكام التوراة والإنجيل

النسخ لغة يعنى إبطال الشيء وإقامة آخر مقامه ، ونسخ آية بآية إزالتها أو إزالة حكمها ، فقال تعالى : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ [(١)] .

فالآية الثانية ناسخة ، والأولى منسوخة[(٢)] .

والنسخ أيضًا تبديل شيء بشيء غيره ، والنسخ نقل الشيء من مكان لآخر وهو هو[(٣)] .

ويعرف القاضى أبو الوليد الباجى[(٤)] النسخ بقوله : « إزالة الحكم الثابت بشرع متأخر عنه لولاه لكان ثابتًا »[(٥)] .

ويفسر الباجى قوله : « إزالة الحكم الثابت بشرع متأخر عنه » لأن الناسخ من شرطه أن يتأخر عن المنسوخ وقوله : «على وجه لولاه لكان ثابتًا» لأن الناسخ يكون بإزالة الحكم الأول بالحكم الثانى، لا بانقضاء مدته، وورود ما يخالفه بعده[(٦)] .

ولا يخرج تعريف ابن حزم للنسخ عن تعريف الباجى من حيث المعنى ، وإن اختلفت العبارات ، فيعرف ابن حزم النسخ بقوله : « إنه بيان انتهاء زمان الأمر

---

(١) سورة البقرة ، آية ١٠٦

(٢) لسان العرب لابن منصور جمال الدين محمد بن مكرم الأنصارى – الدار المصرية للتأليف والنشر ٦٣٠هـ – ٧١١هـ فصل النون حرف الخاء ص٢٨

(٣) المصدر السابق نفس الصفحة

(٤) أبو الوليد الباجى عالم أندلسى معاصر لابن حزم وكانت له مجادلات مشهورة مع ابن حزم، وكتب ردًا على رسالة تنصيرية من راهب فرنسى إلى المقتدر بالله حاكم سرقسطة سبق أن أشرنا إليها

(٥) رسالة فى الحدود للقاضى أبو الوليد الباجى نشرت بصحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد المجلد الثانى سنة ١٣٧٣هـ ١٩٥٤م ص١٧

(٦) المصدر السابق نفس الصفحة

الأول فيما لا يتكرر»[1] ، فيرى ابن حزم أن الحكم المنسوخ حين صدوره من الله تعالى، يكون معلومًا لديه عز وجل أنه ينتهى العمل به فى زمن معين، ونحن نعلم انتهاء زمن الحكم المنسوخ بنزول الحكم الناسخ .

وينكر اليهود أن تكون أحكام التوراة قد نسختها شرائع أخرى، ويعلل بعضهم هذا الإنكار حتى لا يوجب البداء على الله تعالى، وكأن الله تغير علمه فغير أحكامه تبعًا لهذا التغير الذى طرأ على العلم الإلهى .

وأصحاب هذا الرأى لم يفرقوا بين البداء والنسخ ، وكأنهما من المترادفات اللفظية، أو وجهين لعملة واحدة، والحقيقة غير ذلك حيث إن الفرق الأساسى بينهما أن البداء يعنى تغيير فى العلم، أما النسخ فيعنى تغيير فى المعلوم مع ثبات العلم الإلهى ذاته[2] .

وإذا انتقلنا إلى النصارى فإن موقفهم من النسخ يتسم بالاضطراب، فهم لا يلتزمون بكثير من أحكام التوراة، ويرون أنها غير لازمة لهم، ومع ذلك يرفضون أن تنسخ الأحكام الإلهية بعضها البعض .

وتناول ابن حزم ، وابن أبى عبيدة الخزرجى قضية النسخ فى الشرائع السماوية بالدراسة والتمحيص والإثبات ، ويمكن إرجاع طرق هذين العالمين الجليلين لإثبات نسخ أحكام التوراة والإنجيل إلى ست أدلة رئيسية تتلخص فى :

أ) استقراء أحوال العالم .

ب) تراجع اليهود أنفسهم عن مواقفهم .

جـ) تجويز التوراة البداء على الله تعالى وهو ما لا يليق بذاته العلية .

د) نسخ أحكام التوراة للشرائع السابقة .

---

(١) الإحكام فى أصول الأحكام لابن حزم الأندلسى مجلد ١ ج٤ ص ٤٦٣

(٢) النسخ فى القرآن الكريم دراسة تشريعية تاريخية نقدية : د. أ. مصطفى زيد – دار الدفاع ط٣ سنة ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م ص٢٢

هـ) نسخ التوراة للتوراة .

و) نسخ الإنجيل للتوراة .

ونفصل الحديث عن الأدلة التى استخدمها ابن حزم ، وابن أبى عبيدة على النحو التالى :

١ - أدلة ابن حزم على نسخ القرآن لأحكام التوراة والإنجيل :

ذكر ابن حزم أن اليهود ينقسمون من حيث موقفهم من النسخ إلى قسمين[١] :

قسم أبطل النسخ ، ولم يجعلوه ممكنًا ، وقسم ثان أجازه إلا أنهم قالوا إنه لم يقع[٢] .

وأخذ أبو محمد يناقش حجج اليهود لإبطال النسخ ، ويدحضها بأدلة عقلية، ونقلية على النحو التالى :

أ) استقراء أحوال العالم :

يحتج اليهود عند رفضهم للنسخ بأن الله - عز وجل - يستحيل أن يأمر بالأمر، ثم ينهى عنه، ولو حصل ذلك لعاد الحق باطلاً، والباطل حقًا، ولعادت الطاعة معصية والمعصية طاعة[٣] .

(١) يذكر الدكتور مصطفى زيد فى كتابه (النسخ فى القرآن الكريم) أن اليهود ينقسمون من حيث موقفهم من النسخ إلى ثلاث فرق : الشمعونية نسبة إلى شمعون بن يعقوب تقرر أن النسخ لا يجوز عقلاً، ولم يقع سمعًا والفرقة الثانية تدعى العنانية نسبة إلى عنان بن داود ، ويرى أنه لا بأس من وقوع النسخ إلا أنه لم يقع. أما الفرقة الثالثة وتعرف بالعيسوية نسبة إلى أبى عيسى إسحاق بن يعقوب الأصفهانى، وتذهب إلى أن النسخ جائز فى العقل وقد وقع فعلاً إلا أنها تمنع أن تنسخ شريعة محمد ﷺ شريعة موسى عليه السلام ؛ لأن رسالة محمد ﷺ خاصة بالعرب- النسخ فى القرآن الكريم: د. مصطفى زيد ص ٢٧ ، ٢٨

(٢) الفصل لابن حزم جـ ١ ص ١٧٩

(٣) المصدر السابق جـ ١ ص١٨٠

ورد ابن حزم على هذه الحجة التى وصفها بأنها من أضعف ما يكون من التموية الذى لا يقوم على ساق[1] بأن الذى يتدبر أفعال الله ، وأحكامه وآثاره فى العالم يتيقن بطلان هذه الحجة : « لأن الله تعالى يحيى ثم يميت ثم يحيى، وينقل الدولة من قوم أعزة فيذلهم إلى قوم أذلة فيعزم،..»[2] .

ويقرر ابن حزم قاعدة قرآنية هى أن أفعال الله تعالى تجل عن الحكم عليها، فهو تعالى : ﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣) ﴾[3] .

وليس على الله تعالى شرط أن يعرف عباده بما يريد أن يأمرهم به قبل أن يأمرهم، أو أنه سينهى عن الأمر الذى سينهى عنه بعد ذلك[4] .

ويبدو أن آراء ابن حزم كانت مثارة فى مواجهة الفكر اليهودى من قبل ، فنجد سعديًا الفيومى[5] (ت٣٣١هـ) فى معرض دفاعه عن اليهودية اعتبر أن الله تعالى يحيى ليميت ؛ لأن الموت طريق الانتقال إلى الآخرة، أما إذا شرع لينسخ فلا بد لكل شرع من أن ينسخ فينسخ الأول بالثانى، والثانى بالثالث إلى ما لا نهاية[6] .

وفيما أرى أن الفيومى تجاوز فى حديثه عن النسخ ؛ لأن الله تعالى حين خلقنا علم أننا سنموت لنحيى حياة أبدية، ولم نعتبر هذا تغيير فى أحكام الله تعالى. وكذلك الحال فى التشريع إذا ورد ما ينسخه. أما أن النسخ سيؤدى إلى التسلسل

---

(١) المصدر السابق جـ ١ ص١٨٠

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة

(٣) سورة الأنبياء ، آية ٢٣

(٤) الفصل جـ ١ ص ١٨٠

(٥) سعيد بن يوسف الفيومى الإسرائيلى من أشهر مترجمى ومفسرى العهد القديم من اليهود ولد فى إحدى قرى الفيوم سنة ٨٩٢م وشب فى مصر وتزوج منها ثم هاجر إلى فلسطين، وتتلمذ على أحد علمائها المشاهير، ويدعى ابن كثير ثم هاجر إلى العراق وبعدها إلى سوريا وله مؤلفات لغوية وتفسيرية وجدلية ، وفلسفية ، وتشريعية ، توفى بالعراق سنة ٣٣١هـ

(٦) الأمانات والاعتقادات لسعديا الفيومى نشرة لانداور – ليدن سنة ١٨٨٠ – المقالة الثامنة

إلى ما لا نهاية فهذا منقوض بالشريعة القرآنية الصالحة لكل زمان ومكان وليس بعدها شريعة ناسخة .

والجدير بالذكر أن الفيومى كان يناقش أدلة علماء المسلمين على جواز النسخ دون أن يذكر أسماءهم ، وهناك من علل ذلك بأن الفيومى نشأ فى ظل حضارة يمثل الإسلام أحد مكوناتها الأساسية فآثر الإشارة الضمنية لا التصريح[1] ، وفيما أرى أن عدم ذكر الأسماء يرجع إلى خصائص كثير من المؤلفات والكتابات فى مختلف العصور حتى لو كانت ذات صبغة جدلية .

ومما هو جدير بالإشارة أن ابن حزم كان على معرفة علمية بسعديا الفيومى ووصفه بأنه من أهل الفهم، ولكنه أضل الكثيرين بشبهه وتمويهاته هو ، وغيره من مفكرى اليهود والنصارى[2] .

ب) تراجع اليهود أنفسهم عن مواقفهم :

يسأل ابن حزم اليهود على سبيل الإلزام عن موقفهم من الأمم إذا غزتهم :«أليس دماؤهم لكم حلالاً وقتلهم حقًا وفرضًا ، وطاعة ؟ فلا بد من بلى[3]» ثم إذا حدث تغير فى موقف هذه الأمم ، ودخلوا اليهودية: «أليس قد حرمت دماؤهم، وصار عندكم قتلهم حرامًا وباطلاً ومعصية بعد أن كان فرضًا وحقًا وطاعة؟ فلا بد من بلى»[4] .

ولا ريب أن اليهود بذلك يكونوا قد تراجعوا عن موقفهم طبقًا لتغير الأحوال، ففى البداية كان قتال أعدائهم حلالاً، وبعد ذلك أصبح حرامًا فى نظرهم، ورأى ابن حزم

(١) يحيى ذكرى محمد إسماعيل : سعديا بن يوسف الفيومى (سعديا جاءون) متكلمًا وفيلسوفًا – رسالة ماجستير جامعة القاهرة – كلية الآداب – قسم فلسفة سنة ١٤١٣هـ ١٩٩٣م ص ٣٦

(٢) الفصل لابن حزم جـ ٣ ص ٢٠٧

(٣) الفصل ابن حزم جـ ١ ص ١٨٠

(٤) المصدر السابق نفس الصفحة

أن هذا الموقف المتغير من اليهود يعتبر إنكاراً منهم لما سبق أن قروره من أن الحق يعود باطلاً، والأمر نهيًا ... إلخ .

جـ) تجويز التوراة البداء على الله تعالى :

عجيب أمر اليهود والنصارى ، فهم ينكرون النسخ ، ومع ذلك فإن نصوص التوراة تلزمهم بجواز البداء على الله تعالى، وهو ما لا يليق بذاته العلية . فتروى التوراة قصصًا تصف الله تعالى بالحزن والندم ، كما حدث حين أغرق الله تعالى الأرض بالطوفان فى عهد نوح – عليه السلام – وقال إنه لن يعود لفعل ذلك ثانيًا[١].

وقد ألزم ابن حزم اليهود بتجويزهم البداء على الله عز وجل، الذى يعنى أنه تعالى قد بدا له شيئًا لم يكن يعلمه من قبل ، وهذا من صفات الخلق وليس الخالق ومن الأدلة التى وردت بالتوراة تدل على البداء ، ما تزعمه التوراة من أن الله تعالى أراد أن يهلك بنى إسرائيل ، لكن موسى لم يزل يراجعه ، حتى أثناه عن رأيه[٢] .

د) نسخ التوراة للشرائع السابقة :

لا يختلف أهل الكتاب على أن شريعة يعقوب عليه السلام كانت غير شريعة سيدنا موسى عليه السلام وتحكى التوراة أن يعقوب عليه السلام جمع فى عصمته أختين هما (ليا) و(راحيل) ابنتى لابان، وهذا محرم فى شريعة موسى عليه السلام[٣] كما تذكر التوراة ؛ لأن أم موسى كانت عمة أبيه أخت جده ، أى أنها تزوجت ابن أخيها، وأنجبت موسى عليه السلام[٤] .

---

(١) جاء بسفر التكوين صح ٨ عدد ٢١ : «وقال الرب فى قلبه لا أعود ألعن الأرض من أجل الإنسان، لأن تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثته ، ولا أعود أيضًا أميت كل حى كما فعلت »

(٢) الفصل جـ١ ص١٨١ ، ورد بسفر الخروج صح ٣٢ عدد ١١ و١٢ عن موسى قوله: «لماذا يا رب يحمى غضبك على شعبك ، الذى أخرجته من أرض مصر بقوة عظيمة ويد شديدة ... ارجع عن حمو غضبك واندم على الشر بشعبك»

(٣) الفصل جـ١ ص ١٨١ ، سفر التكوين صح ٢٩

(٤) الفصل جـ ١ ص ١٨١

وقبل أن نترك قضية النسخ فإنه لزامًا علينا أن نوضح أن من أحكام الله تعالى ما هو أحكام خاصة بالكون ، وقوانينه ، وأخرى تكليفية ، فالأحكام التى من النوع الأول لا يدخلها النسخ بحال مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴿٤٣﴾ ﴾ (١) ، وكذلك قوله تعالى :﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴿٢٣﴾ ﴾ (٢) .

وإذا حدث تغير لهذه السنن الكونية ، فلا يكون ذلك من قبيل النسخ ، وإنما من قبيل المعجزات وخوارق العادات ، ويعتبر ذلك من الاستثناء الذى يؤكد القاعدة ، ولا يدخل النسخ كذلك فى القصص ، أو الأمور العقلية القطعية مثل أن صانع العالم موجود ، ولا على الأمور الحسية كضوء النهار وظلمة الليل وكذلك لا يدخل على الأحكام الواجبة لذاتها كالإيمان بالله وعدم الإشراك به تعالى (٣) أما الأحكام التكليفية فهى التى قد يدخلها النسخ بشرط ألا تكون تأبيدية كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ﴾ (٤) ، وكذلك الأحكام المؤقتة ؛ مثل قوله تعالى : ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾(٥) .

هذه هى أهم الأدلة التى برهن من خلالها ابن حزم الأندلسى على وقوع النسخ فى الشرائع السماوية .

---

(١) سورة فاطر ، آية ٤٣

(٢) سورة الفتح ، آية ٢٣

(٣) إظهار الحق لشيخ رحمة الله الهندى ص٣٠٢

(٤) سورة النور ، آية ٤

(٥) سورة البقرة ، آية ١٠٩

٢ - أدلة ابن أبى عبيدة على نسخ القرآن لأحكام التوراة والإنجيل :

ناقش الخزرجى القس الذى كان يجادله فى موضوع النسخ ، وأثبت الخزرجى وقوع النسخ فى التوراة ، والإنجيل بمجموعة من الأدلة نوجزها فيما يلى :

أ) نسخ التوراة للتوراة :

من المعروف أن الشريعة اليهودية شددت فى تحريم العمل يوم السبت، فالسبت كما يذكر ابن أبى عبيدة الخزرجى أكثر فروض التوراة تأكيدًا، وأهم لوازمها، ومع ذلك وقع الخزرجى على نصوص توراتية تنقض هذا التحريم ، مثل ما ورد بالتوراة من حديث موجه لهارون عليه السلام : « ... وفى يوم السبت خروفان حوليان صحيحان ، وعشران من دقيق ملتوت بزيت تقدمه مع سكيبة ... »[(١)] .

والنص كما هو واضح فيه ذبح ، وسلخ ، وعجن دقيق ، وكل هذا فى يوم السبت .

وفى التوراة أيضًا يطلب الله من يسوع محاربة مدينة أريحا ، وأن يتسورها مع الكهنة يوم السبت المحرم العمل فيه ، فورد كما يذكر الخزرجى : « قد دفعت بيدك أريحا، وملكها جبابرة البأس ، تدورون دائرة المدينة جميع رجال الحرب حول المدينة مرة واحدة . هكذا تفعلون ستة أيام ، وسبعة كهنة يحملون أبواق الهتاف السبعة أمام التابوت وفى اليوم السابع تدور دائرة المدينة سبع مرات والكهنة يضربون بالأبواق»[(٢)] .

ب) نسخ الإنجيل للتوراة :

بالرغم من تصريح المسيح عليه السلام ؛ كما تزعم الأناجيل أنه لم يأت لنقض الشرائع السابقة ، ولكن لإتمامها ، وأنه إلى أن تبيد السماء والأرض لا تبيد (يا)

---

(١) المقامع ص٢٦٥ ورد بسفر العدد إصحاح ٢٨ عدد ٩ « وفى يوم السبت خروفان حوليان صحيحان وعشران من دقيق ملتوت بزيت تقدمه مع سكيبة»

(٢) المقامع ص ٢٦٦ يشوع ٦ عدد ٢ : ٤

واحدة ، أو حرف واحد من التوراة ، فإن المسيح قال بأحكام تنقض الأحكام السابقة عليه - كما يذكر ابن حزم والخزرجي - مثل ما ينسبه الإنجيل للمسيح أنه قال : « أما علمتم أنه قيل للقدماء : من فارق امرأته ، فليكتب لها كتاب الطلاق ؟ . وأنا أقول من فارق امرأته منكم فقد جعل لها سبيلاً إلى الزنا، ومن تزوج مطلقة فهو فاسق»[(١)] .

وأيضًا استدل هذان العالمان الجليلان أن المسيح قال : « أما بلغكم أنه قيل للقدماء العين بالعين والسن بالسن ؟ وأنا أقول لكم : لا تكافئوا أحدًا بسيئة ولكن من لطم خدك اليمنى ، فانصب له خدك الأيسر ، ومن أراد مغالبتك ، وانتزاعك قميصك زده أيضًا رداءك»[(٢)] .

ويستدل كذلك الخرجي على نسخ الإنجيل للتوراة ، بما نسب للمسيح عليه السلام أنه قال : « أما علمتم أنه قيل للقدماء : لا تقتلوا ، ومن قتل فقد استوجب القتل ، وأنا أقول : كل من سخط على أخيه فقد استوجب العقوبة[(٣)] » .

وإذا ثبت أن التوراة نسخت الشرائع السابقة لها ، والإنجيل نسخ التوراة، فليس عجيبًا أن يأتى شرع آخر ينسخ أحكام التوراة والإنجيل ، وهو القرآن الكريم .

وأراد القس الذى جادل الخزرجى أن يعقد مقارنة بين أحكام التوراة ، والإنجيل مدعيًا فضل الإنجيل على التوراة، فذكر أن التوراة أتت بحكم« من لطمك فالطمه»[(٤)]

---

(١) المقامع للخزرجى ص ١٥٤ - الفصل لابن حزم جـ ٢ ص٤٥ - إنجيل متى صح ٥ عدد : ٣١-٣٢ «وقيل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق ، وأما أنا فأقول لكم إن من طلق امرأته إلا لعلة الزنا يجعلها تزنى ومن تزوج مطلقة فإنه يزنى »

(٢) المقامع للخزرجى ص ١٥٥ ، الفصل لابن حزم جـ ٢ ص٤٦

(٣) المصدر السابق ص١٥٤ ، وانظر إنجيل متى صح ٥ عدد ٢١ ، ٢٢ « قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تقتل ، ومن قتل يكون مستوجب الحكم . وأما أنا فأقول لكم إن كل من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم »

(٤) المصدر السابق ص ١٨١

والإنجيل أتى بحكم أفضل منه : « من لطم خدك الأيمن فانصب له الأيسر»[1] .

واستثمر الخزرجي هذا الدليل ؛ ليثبت به فساد عقيدة الصلب استثماراً جيداً، فذكر أنه إذا كان الرب كما يزعم النصارى طلب من الإنسان أن يغفر أخطاء أخيه الإنسان لكان الأولى به وهو الإله أن يغفر ذنب آدم حين عصاه ، وأكل من الشجرة التي نهاه عنها[2] .

والقس في نظر ابن أبي عيدة يظهر تناقضه حين يفضل حكم العفو في الوقت الذي ينسب إلى الله عدم التسامح مع آدم عليه السلام[3] .

ويبين ابن أبي عبيدة في صورة مقارنة أن الإسلام يراعي في أحكامه مصالح الناس باختلاف الأحوال، والأزمان . ذلك أن الناس قد يصيبهم حدث لا يصلح فيه الاقتصاص ، والانتقام ، فإذا دعتهم التوراة لذلك لم يكن هذا صالحاً[4] وفي المقابل ربما ينزل بالناس خطب لا يصلح فيه إلا الاقتصاص فإذا اتبعوا حكم الإنجيل جرأ ذلك عدوهم على اقتراف ذنب آخر[5] .

ومن ثم فالشريعة الإسلامية جاءت بحكم القصاص إذا كانت الظروف تستدعي ذلك :﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ (١٢٦) ﴾[1] ويكون العفو أفضل إذا لم تستدع الظروف ذلك ﴿ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ (٢٣٧) ﴾[2]

---

(١) المصدر السابق ص١٨٢ . إنجيل متى صح ٥ عدد ٣٩ « ... من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً »

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة

(٣) المصدر السابق نفس الصفحة

(٤) المقامع ص ١٨٢

(٥) المصدر السابق ص ١٨٣

(٦) سورة النحل آية ١٢٦

(٧) سورة البقرة آية ٢٣٧ .

ويقرر الخزرجى معيارية الأخذ بالقصاص ، أو العفو بقوله : "فكل حكم أخذ به الراعى مما يراه صالحًا لمقامه كان فيه موافقًا للشريعة[١]" .

وعن شمولية الشريعة الإسلامية الإسلامية لأحكام التوراه والإنجيل يذكر ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) أن سيدنا موسى – عليه السلام – جاء بالعدل ، وعيسى عليه السلام جاء بتكميلها بالفضل والإسلام جمع فى شريعته بين العدل ، وعيسى عليه السلام جاء بتكميلها بالفضل والإسلام جمع فى شريعته بين العدل والفضل[٢] ، وعن وسطية الإسلام يضيف ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) أن المسلمين متوسطون بين اليهود والنصارى فى التوحيد ، والنبوات ، والحرام والحلال وغير ذلك[٣] وأما عن حكم المسلمين فى الحدود ، والحقوق ، يذكر ابن تيمية أنه لا يخفى فضله على عاقل حتى أن النصارى فى بعض بلادهم يُنصبون من يقضى بينهم بالشريعة الإسلامية نظرًا لندرة الأحكام الإنجيلية[٤] .

وبعد أن أثبتنا ضرورة نسخ القرآن الكريم للتوراه أود أن أوضح أن هناك نصوصًا توراتية تفيد تأبيد شريعة موسى عليه السلام فما موقف الإسلام منها ؟ لا ريب أن القرآن الكريم يحدثنا عن شريعة موسى التى لم يلحقها تحريف وعن التوراه المنزلة من عند الله تعالى ولا نسلم أن أحكامها تابيدية فما وافق الشريعة الإسلامية

(١) المقامع ص ١٨٣ .

(٢) الجواب الصحيح جـ١ ص ١٧٥ .

(٣) المصدر السابق جـ٤ ص ١١٧ . وما يقوله ابن تيمية هو السبب فى استمرارية الشريعة الإسلامية إلى يوم القيامة ، وعدم نسخها ، ويؤكد هذا أبو الحسن العامرى (ت ٣٨١ هـ) إذ يقول : "إن أحق الأديان بطول البقاء ما وجدت أحواله متوسطة بين الشدة واللين ، ليجد كل من ذوى الطبائع المختلفة ما يصلح به حاله فى معاده ومعاشه ، ويستجمع لدينه خير من دنياه . وكل دين يوجد على هذه الصفة ، بل أسس على مثاله يعود بهلاك الحرث والنسل فمن المحال أن يسمى هينًا فاضلاً ..." الإعلام بمناقب الإسلام لأبى الحسن محمد بن يوسف العامرى (ت ٣٨١ هـ ٩٩٢م) تحقيق ودراسة الدكتور أحمد عبد الحميد .

(٤) الجواب الصحيح : ابن تميمة جـ٤ ص ١١٧ .

أخذنا به ، وما خالفها تركناه والتزمنا القرآن الكريم والسنة النبوية ، ويلزم هذا السؤال النصارى ؛ لأنهم يعتبرون التوراه كلمة الله التى لم يلحقها تحريف ومع ذلك ينقضون أحكامها رغم تصريح التوراة واعتراف المسيح عليه السلام كما يدعى النصارى أن شريعة التوراة أبدية .

ومن الخلافات العقدية التى يختلف فيها المسلمون مع اليهود والنصارى هو الإيمان بنبوة محمد ﴿ ﷺ ﴾ وقد استدل ابن حزم والخزرجي بأدلة التواتر والمعجزات وبعض ما ورد من نصوص توراتية ذكرها كثير من علماء المسلمين ، ونكتفى بالإشارة إلى جهود هذين العلمين فى استخراج البشارة بالنبى ﴿ ﷺ ﴾ لأهميتها فى هذا المجال .

رابعاً : البشارة بالنبى ﴿ ﷺ ﴾

إن من أسباب إنكار أهل الكتاب لوقوع النسخ فى الشرائع السماوية هو رفضهم لنبوة سيدنا ﴿ ﷺ ﴾ وإنكارهم للدين الإسلامى برغم أن تلك النبوة مسطورة فى كتبهم بما لا يدع مجالاً للشك والتأويل حتى أن المتتبع لحركة الاهتداء الدينى لدى علماء أهل الكتاب يسهل عليه معرفة أن من أهم عوامل هدايتهم للإسلام هو وجود صفة النبى ﴿ ﷺ ﴾ وأمته فى تلك الكتب(١) ففى الأندلس نجد بعد خروج المسلمين منها قصة اهتداء عبدالله الترجمان(٢) بعد تعرفه على تفسير كلمة "البارقليط" من معلمه كبير القساوسة(٣) فى ذلك الوقت ، وأنها تعنى محمداً ﴿ ﷺ ﴾ ومن أفضل المناهج الجدلية فى إثبات صحة نبوة سيدنا محمد ﴿ ﷺ ﴾ عند مناقشة اليهود

---

(١) مناهج المهتدين إلى الإسلام من علماء اليهودية والنصرانية فى الجدل الدينى حتى القرن التاسع الهجرى : خالد السيوطى – رسالة ماجستير – كلية بنات عين شمس – ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م ص ٤٠ .

(٢) راجع قصة هداية عبدالله الترجمان بكتابه "تحفة الأريب فى الرد على أهل الصليب" تحقيق د. محمود على حماية – دار الثقافة للطباعة والنشر ط١ ١٩٨٣ م .

(٣) وهذا القسيس كان يخفى إسلامه .

والنصارى هو استخراج البشارة به « ﷺ » من كتبهم التى يقدسونها وهذا أحد المناهج التى اتبعها كل من ابن حزم وابن أبى عبيدة الخزرجي فى هذا المجال وقد تأثر الخزرجي بسلفه الظاهرى . فهناك بشارات اتفق فى ذكرها هذان العالمان الأندلسيان وأخرى زاد بها الخزرجى كما سنوضح وقد اعتمد كل من ابن حزم والخزرجى على استخراج عيون البشارات الواردة بكتب اليهود والنصارى والتى بشرت بمحمد « ﷺ » واهتم علماء المسلمين بإبرازها وإظهارها قديمًا وحديثًا فنرى مثلاً أن معظم البشارات التى ذكراها تناولها الشيخ رحمة الله الهندى فى كتابه "إظهار الحق" وفيما يلى ذكر لبعض البشارات التى اتفق فى ذكرها صاحبانا .

البشارة الأولى :

من البشارات المهمة التى ذكرها ابن حزم والخزرجى ما جاء فى التوراة من حديث إلهى لموسى عليه السلام : "سأقيم لبنى إسرائيل من إخواتهم مثلك"(١) "والمقصود من النص هو سيدنا محمد « ﷺ » وقد ناظر الخزرجى أحد رهبان اليهود بهذه البشارة فأقر اليهودى بصدقها على نبينا « ﷺ » ولكنه أراد ألا يلزم نفسه واليهود بها فأدعى أن تلك النبوة للعرب خاصة فكان من السهل على الخزرجى أن يوضح من واقع الحديث النبوى أنه « ﷺ » بعث إلى الخلق كافة ، فاستدل بكلام للنبى « ﷺ » ذكر فيه أنه أعطى خمسًا لم يعطهن نبى قبله منها قوله : "... وبعثت إلى كل أبيض وأسود ...(٢) وفى رواية "وبعثت إلى الأحمر والأسود(٣)" وعن السائب بن يزيد أن النبى « ﷺ » أخبر أنه فضل على الناس بخمس منها قوله : "وبعثت إلى الناس كافة(٤)" .

(١) المقامع : الخزرجى ص ٢١٥ - قارن الأصول والفروع : ابن حزم ص ١٨٨ .

(٢) مجمع الزوائد ، ومنبع الفوائد : الحافظ نور الدين على بن أبى بكر الهيثمى (ت ٨٠٧ هـ) بتحرير الحافظين الجليلين القرافى وابن حجر - مؤسسة المعارف ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م - ج ٨ - ص ٢٦٢ .

(٣) المصدر السابق - ج ٨ - ص ٢٦١ .

(٤) المصدر السابق - ج ٨ ص ٢٦٢ .

ومن جانبنا نضيف أن القرآن الكريم أشار إلى عموم الإسلام للعالم أجمع فى آيات كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾[١] .

وقد أفاض فى الحديث عن هذه البشارة الشيخ رحمة الله الهندى ، فذكر عشرة أوجه تثبت انطباقها على الرسول « ﷺ » ، وقارن بين موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، وشريعتهما ؛ ليثبت مدى التشابه الكبير بينهما ، ومن الأمثلة التى ساقها الشيخ رحمة الله لهذا التشابه كون محمد عليه الصلاة والسلام :

أ) عبدالله ورسوله .

ب) كونه ذا الوالدين .

جـ) كونه ذا نكاح وأولاد .

د) كون شريعته مشتملة على السياسة المدنية .

هـ) كونه مأموراً بالجهاد .

و) اشتراط الطهارة وقت العبادة .

حـ) اشتراط طهارة الثوب من البول والبراز[٢] .

ط) حرمة غير المذبوح وقرابين الأوثان ... إلخ .

وأشار الشيخ رحمة الله إلى أن علماء يهود أسلموا لكون النبى « ﷺ » مبشراً به ، وإن كان بعضهم بقى فى الكفر رغم تسليمهم أنه مبشرٌ به فى التوراه[٣] .

وهذا النوع الأخير الذى ذكره الشيخ رحمة الله الهندى هو الذى صادف الخزرجي مع اليهودى الذى جادله ؛ حيث اعترف بنبوة سيدنا محمد « ﷺ » ، ولكنه تهرب بأنه لم يبعث إلا إلى العرب – كما ذكرنا – وعطف جانباً ليحدث يهودياً مثله : "نحن قد جرى نشؤنا عن اليهودية ، وبالله لا أدرى كيف نتخلص من هذا

(١) سورة الأنبياء آية ١٠٧ .

(٢) أظهار الحق : الشيخ رحمه الله الهندى – ج ٢ – ص ٢٠٧ .

(٣) المصدر السابق ج ٢ – ص ٢٠٨ .

العربى (وغاية ما أقوله) إن أقل ما يجب علينا أن نأخذ به أنفسنا هو النهى عن ذكره بسوء[١]" .

البشارة الثانية :

من البشارات التى ذكرها ابن حزم والخزرجى ، وتشتهر بين المتتبعين لتلك البشارت فى مؤلفاتهم ما ورد بالتوراه : "جاء الرب من سيناء ، وأشرق من سعير ، وتلألأ من جبال فاران[٢] ، ومعه جماعة من الصالحين[٣]" .

ومما هو معروف أنه إذا ورد بالتوراه مجيء الرب من موضع ما يكون إشارة إلى أمر عظيم حصل بهذا الموضع كوحى نزل به أو عقوبة ، أو ما أشبه ذلك[٤] ، ومن ثم فالأماكن المذكورة تشير إلى نزول الرسالات السماوية الثلاث بها فمجيء الرب من جبل سيناء إشارة إلى أن الله أنزل فيه التوراه ، وكلم عليه موسى عليه السلام ، وإشراقه من جبال سعير إشارة إلى رسالة عيسى عليه السلام ، أما استعلاء الله من جبال فارا فهو رمز إلى أن الله تعالى بعث نبيه محمد ﴿ ﷺ ﴾ من هذه الجبال، وأوحى إليه فيها ، ويذكر الخزرجى أنه لا اختلاف فى أن فاران هى مكة[٥] ويلجأ الخزرجى إلى تأكيد كلامه بمنهج تفسير النص بالنص ، حيث ورد بالتوراه "أن الله أسكن هاجر ، وابنها إسماعيل فاران[٦]" .

---

(١) المقامع : الخزرجى – ص ٢١٦ .

(٢) يذكر المحقق د. محمد شامه أن فى بعض المخطوطات ورد : "واستعلى من جبال فاران" المقامع ص ٢١٧ .

(٣) المصدر السابق ص ٢١٦ ، ٢١٧ ، قارن الأصول والفروع : ابن حزم ص ١٨٨ ، ورد بسفر التثنية صح ٣٣ عدد ٢ : "جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير ، وتلألأ من جبل فاران..." .

(٤) إظهار الحق : الشيخ رحمه الله الهندى ج ٢ ص ٢١٣ .

(٥) المقامع : الخزرجى ص ٢١٧ .

(٦) المصدر السابق ص ٢١٧ .

البشارة الثالثة :

هذه البشارة يؤيدها الواقع التاريخى ، والمعاصر ، فذكرت التوراه كثرة أولاد إسماعيل عليه السلام ، وورد "أجعله أمة عظيمة(١)" فهذه العبارة تشير إلى أمة سيدنا محمد ﴿ ﷺ ﴾ .

البشارة الرابعة :

ساق الخزرجى هذه البشارة التى تنطبق على النبى ﴿ ﷺ ﴾ وأمته ، ودلل عليها فى صورة أسئلة تقريرية متأثراً بابن حزم ، وتتلخص هذه البشارة كما أوردها الخزرجى : "سبحوا الرب تسبيحًا حديثًا سبحوا الذى هيكله الصالحون ؛ ليفرح إسرائيل بخالقه ، وبنات صهيون من أجل أن (الله) اصطفى لهم أمه ، وأعطاهم النصر (وأيد) الصالحين منهم بالكرامة يسبحون الله على مضاجعهم ، ويكبرونه بأصوات مرتفعة ، بأيديهم سيوف ذوات شفرتين ؛ لينتقم الله بهم من الأمم الذين لا يعبدونه ، يوثقون ملوكهم بالقيود ، وأشرافهم بالأغلال(٢)" .

ويسأل ابن أبى عبيدة القسيس تقريريًا : "من الأمة التى سيوفها ذوات شفرتين ينتقم الله بهم من الأمم الذين لا يعبدونه ؟ ومن المبعوث بالسيف من الأنبياء ؟ ومن الذين لا يعبدونه ؟ ومن المبعوث بالسيف من الأنبياء ؟ ومن الذين يكبرون الله بأصوات مرتفعة فى الآذان(٣)" .

ومما لا ريب فيه أن هذه الأوصاف تنطبق على سيدنا محمد ﴿ ﷺ ﴾ ، وأمته ، وجهادهم فى سبيل تمكين دين الله تعالى فى الأرض .

(١) المصدر السابق ص ٢١٧ – قارن الأصول والفروع ابن حزم ص ١٨٧ – ورد بسفر التكوين صح ١٧ عدد ٢٠ أن الله قال عن إسماعيل : "وأجعله أمة كبيرة" وكذلك ورد بسفر التكوين ص ٢١ عدد ١٨" سأجعله أمة عظيمة" .

(٢) المقامع : الخزرجى ص ٢١٨ – قارن الأصول والفروع : ابن حزم ص ١٩٤ ، ١٩٥ .

(٣) المقامع : الخزرجى ص ٢١٨ – قارن الأصول والفروع ص ١٩٥ .

البشارة الخامسة :

من المعروف أن المسلمين هم الذين يعلنون عن الصلاة بالآذان ، ومن ثم تنطبق عليهم البشارة التالية : "ستمتلئ البادية والمدائن من قصور آل قيدار يسبحون الله ومن رؤوس الجبال ينادون ، هم الذين يجعلون لله الكرامة ، ويبثون تسبيحة الله فى البر والبحر(١)" .

وكما يذكر الخزرجى فإن قيدار أحد أبناء أسماعيل(٢) الذين بعث من أصلابهم الرسول « ﷺ » وبنوقيدار هم العرب كما يؤكد ابن حزم(٣) .

وإذا كان الخزرجى اتفق مع مواطنه ابن حزم فى ذكر البشارات الواردة بكتب اليهود والنصارى وأفاد منه فى هذا المجال ، فإنه تفرد بإضافة بشارات لم يوردها ابن حزم ، وأفاض فى هذا المجال ، ومن أهم هذه البشارات ما يلى :

البشارة السادسة :

وهذه البشارة تنطبق أوصافها على النبى « ﷺ » ، وأمته التى ستسود العالم بفضل الإسلام إذ ورد : "ويجوز من البحر إلى البحر ، ومن منقطع الأنهار إلى منقطع الأنهار ، وأنه يخر أهل الجزائر بين يديه على ركبهم ، ويجلس أعداؤه بالتراب، ويأتيه ملوك بالقرابين ، وتسجد له ، وتدين له الأمم بالطاعة والانقياد ؛ لأنه يخلص (المظلوم من الظالم) وينقذ الضعيف الذى لا ناصر له ، ويرأف بالضعفاء والمساكين ، ويدوم أمره إلى آخر الزمان(٤)" .

---

(١) المقامع : الخزرجى ص ٢٢٥ : قارن الأصول والفروع : ابن حزم ص ١٩٣ .

(٢) المقامع : الخزرجى ص ٢٢٥ .

(٣) الأصول والفروع : ابن حزم ص ١٩٣ .

(٤) المقامع : الخزرجى ص ٢١٩ - قارن المزمور الثانى والسبعين من المزامير .

البشارة السابعة :

وهذه البشارة ذكر فيها اسم النبى ﴿ ﷺ ﴾ صراحة : "أن الله أظهر من صهيون إكليلاً محموداً[١]" .

وكما يذكر الخزرجى فإن محمود هو محمد عليه الصلاة والسلام[٢] . والإكليل ضرب مثل للرياسة .

البشارة الثامنة :

وهذه البشارة تدل على أن من أوصاف النبى ﴿ ﷺ ﴾ الكشف عن حقيقة المسيح عليه السلام ، فيقول الله تعالى لداود عليه السلام : "سيولد لك ولداً أدعى له أباً ويدعى لى أبناً ، فقال داود : اللهم ابعث جاعل السنة ؛ كى يعلم الناس أنه بشر[٣]" .

البشارة التاسعة :

وهذه البشارة تأكيد للبشارة السابقة من أن النبى ﴿ ﷺ ﴾ سيكشف حقيقة المسيح "اللهم ابعث الفارقليط ليعلم الناس أن (ابن) الإنسان بشر[٤]" .

البشارة العاشرة :

والمسيح عيسى عليه السلام يبشر فى هذه البشارات بالنبى ﴿ ﷺ ﴾ فيقول : "ومتى جاء المعزى الذى سأرسله أنا إليكم من الآب روح الحق الذى من عند الآب ينبثق فهو يشهد لى ، وتشهدون أنتم أيضاً لأنكم معى من الابتداء[٥]" .

(١) المقامع : الخزرجى ص ٢١٩ .

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة .

(٣) المصدر السابق نفس الصفحة .

(٤) المصدر السابق ٢٢٠ .

(٥) المصدر السابق نفس الصفحة . يوحنا صح ١٥ عدد ٢٦ ، ٢٧ : "ومتى جاء المعزى الذى سأرسله أنا إليكم من الآب روح الحق الذى من عند الآب ينبثق فهو يشهد لى ، وتشهدون أنتم أيضاً لانكم معى من الابتداء .

البشارة الحادية عشر :

يلعب عامل الزمن دوره فى بيان أن المقصود باسم "إيليا" الذى ورد على لسان المسيح عليه السلام هو سيدنا محمد وليس إلياس لأن الأخير كان سابقًا فى الزمان للمسيح ، فمن غير المعقول أن يبشر المسيح بمن سبقه فى الزمان ولذلك فالمبشر به فى هذه البشارة هو سيدنا ﴿ ﷺ ﴾ ؛ إذ يقول المسيح : "الحق أقول لكم لم يقم بين المولودين اعظم من يوحنا المعمدان .... لأن جميع الأنبياء والناموس إلى يوحنا تنبأوا ، وإن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليا المزمع أن يأتى من له أذنان للسمع فليسمع[(١)]" .

البشارة الثانية عشر :

ورد فى صحف أشعيا أنه يقول : "قيل لى : قم ناظرًا فانظر فما ترى ؟ قلت : أرى راكبين مقبلين أحدهما على حمار والآخر على جمل يقول أحدهما لصاحبه : سقطت بابل وأصنامها النخرة[(٢)]" .

ومن المعروف أن النبى ﴿ ﷺ ﴾ مشهور بركوب الجمل ، وهو الذى قضى على عبادة الأوثان بينما لم يستطيع نبى قبله القضاء على عبادة الأوثان .

والحقيقة أن البشارات التى ذكرها الخزرجى موسوعية فى هذا المجال ، وتنم عن عمق قراءته للعهدين القديم والجديد ، وبعد تعرضنا لموقف ابن حزم وابن أبى عبيدة من أهم قضايا الخلاف العقدى بين الإسلام ، وكل من اليهودية والنصرانية ، والتى يظهر من خلالها مدى الجهد الرائد ، الذى بذله هذان العالمان الجليلان فى دحض عقائد أهل الكتاب يجدر بنا أن نتعرف على مظهر آخر من مظاهر هذا الجهد الجدلى ، ويتمثل فى دحضهما لشبهات أهل الكتاب حول الإسلام عقيدة ، وشريعة ، وأثر جهدهما فى حقل الجدل الدينى لليهود والنصارى .

---

(١) المقامع : الخزرجى ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ . قارن متى صح ١١ عدد ١٣ : ١٥ .

(٢) المقامع : الخزرجى ص ٢٢٧ . إشعيا صح ٢١ عدد ٦ : ٩ "لأنه هكذا قال لى السيد اذهب أقم الحارس ليخبر بما يرى فرأى ركاب جمال فأصغى إصغاء شديدًا ، ثم صرخ كأسد أيها السيد أنه قائم على المرصد دائمًا فى النهار وأنا واقف على المحرس كل الليالى ، وهو ذا ركاب من الرجال أزواج من الفرسان فأجاب وقال : سقطت سقطت بابل وجميع تماثيل آلهتها المنحوتة كسرّها إلى الأرض" .

الفصل الخامس

مكانة جهود ابن حزم وابن أبي عبيدة الخزرجي في حقل الجدل الديني لأهل الكتاب

كان لعلماء المسلمين بالأندلس دور عظيم، ومهم في الدفاع عن الإسلام عقيدة ، وشريعة وتعتبر جهود ابن حزم ريادية في حقل الجدل الديني لأهل الكتاب ، وقد أثار نقد ابن حزم لليهودية ، والنصرانية الحقد والغيظ في نفوس بعض مؤرخي العصور الوسطى، فنبذوه ، وتجاهلوه حتى أنه عندما عرض مونك "munk"(١) لفلاسفة العرب في الأندلس مر على اسمه دون أن يعطه حقه ، أو يوفه حظة بوصفة علم من أعلام المسلمين ، ومفكر من أعظم مفكريهم كان من أوائل من أسسوا علم الأديان المقارن(٢) .

---

(١) مونك ١٨٠٥ - ١٨٦٧ ألماني الأصل فرنسي الشهرة والإقامة والوفاة مات أبوه صغيراً فكفله صديق لأبيه ، وتعلم العربية بألمانيا ، وفرنسا ، وكان يتقن الفرنسية، والألمانية ، والعبرية ، والعربية والسنسكريتية ، والفارسية ، وقد زار مصر مع الوزير كريميه فجمع منها مخطوطات كثيرة كتاريخ الهند للبيروني ، وأصيب ببصره فأقام كاتباً له يملي عليه كتبه ، ومقالاته ، وآثاره أكثرها دراسات منها تأثير اللغة العربية وآدابها في اللغة العبرية بعد التوراه - والشعر العربي - ومقامات الحريري ...إلخ .

(٢) د. سهير فضل الله أبو وافية : مقدمة المحققة لكتاب الأصول والفروع لابن حزم ص٦ .

وهذا يدل على أن أبا محمد بن حزم ظلِمَ حيًا، وظلم ميًتا ولكن هذا الظلم لم يكن ليستمر فقد فرضت موسوعية ابن حزم ، وعلمه نفسهما على الدراسين ، فبدأ يتبوأ مكانته اللائقة به ، وبكتاباته خاصة الجدلية منها .

وقد تنوعت جهود الأندلسيين فى مجادلة أهل الكتاب ، فلم يدخروا جهدًا فى الرد على اليهود، والنصارى ، فإنه بالإضافة إلى مؤلفاتهم الجدلية كان لهم مناظرات مع علماء اليهود ، والنصارى فكان ابن أبى عبيدة يرد على اعتراضات أحد قساوسة عصره ، التي ينقلها عوام المسلمين ، وكانوا بدورهم يذهبون بردوده المفحمة إلى هذا القسيس(١) وهذا فيما أرى نوع من المناظرات غير المباشرة التى كان يمارسها الأندلسيون فى الدفاع عن الإسلام .

وقد تضمن كتاب "الفصل فى الملل والأهواء ، والنحل" الكثير من المناظرات الشفهية التى كان يمارسها ابن حزم مع اليهود والنصارى ، وبصفة خاصة مع إسماعيل بن يوسف ابن النغريلة مثال ذلك حين اعترض ابن حزم على ما تنسبه التوراه من كذب لإبراهيم على السلام ، حين قال عن سارة زوجته إنها أخته ، وبذلك يكون اليهود قد نسبوا إلى إبراهيم أنه تزوج أخته(٢) .

أراد ابن النغريلة أن يتهرب من نقد ابن حزم مدعيًا أن لفظة "أخت" تقع فى العبرية على الأخت والقريبة ولكن ابن حزم أفحمه حين ذكر النص الذى يفيد أن إبراهيم عليه السلام كما تزعم التوراه كان يقصد أن سارة أخته وليست قريبته حيث قال عنها : "لكن ليست من أمى ولكن بنت أبى(٣)" .

---

(١) المقامع : الخزرجى ص ٥٣ .

(٢) ورد بسفر التكوين لإصحاح ١٢ عدد ١١ : ١٣ "وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لسارة امرأته إنى قد علمت أنك امرأة حسنة ، المظهر فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته ، فيقتلونى ويستبقونك . قولى إنك أختى ليكون لى خيرًا بسبب وتحيا نفسى من أجلك" .

(٣) الفصل : ابن حزم جـ١ ص ٢٢٥ .

ويصف ابن حزم موقف ابن النغريلة اليهودى أمام هذا النص التوراتى وتلك المناظرة بأنه خلط ولم يأت بشىء[1].

واستعان ابن حزم بالكلمة الشعرية فى الرد على أهل الكتاب فكتب قصيدة شعرية ردًا على قصيدة كتبها أحد ملوك الأرمن[2] يسب الإسلام والمسلمين ويتوعد فيها أنه سيهلك بلاد المسلمين إلى الحرمين الشريفين ونقتبس من قصيدة ابن حزم الأبيات التالية[3] :

أتقرن يا مخذولُ دينا مثلثا ... بعيدًا عن المعقول بادى المآثم
بدين لمخلوق يدين لغيره ... فياك سحقا ليس يخفى لعالم
أنا جيلكم مصنوعة قد تشابهت ... كلام الأولى فيها أتوا بالعظائم
وعود صليب ما تزالون سُجَّدًا ... له يا عقول الهاملات السوائم
تدينون تضلالاً بصلب إلهكم ... بأيدى يهود أرذلين لآثم
إلى ملة الإسلام توحيد ربنا ... فما دين وذى دين لها بمقلوم[4]
وصدق رسالات الذى جاء الهدى ... محمد الآتى برفع المظالم

ويقول أيضًا :

ولم تنهنه قط قوة آسر[5] ... ولامكنت من جسمه يد ظالم
كما يفترى إفكًا وزورًا وضلة ... على وجه عيسى منكم كل لاطم
على أنكم قد قلتم هو ربكم ... فيالضلال فى القيامة عائم
أبى الله أن يدعى له ابن وصاحب ... ستلقى دعاة الكفر حالة نادم
ولكنه عبد نبى رسولٌ مكرّم ... من الناس مخلوق ولاقول زاعم
أيلطم وجه الرب تبأ لدينكم ... لقد فقتم فى قولكم كل ظالم
وكم آية أبدى النبى محمد ... وكم علم أبداه للشرك حاطم

(١) الفصل : ابن حزم جـ١ ص ٢٢٥ .

(٢) بالبحث وجدت أن اسم هذا الملك يدعى النقفور ملك الأرمن .

(٣) البداية والنهاية : ابن كثير أبى الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقى المتوفى ٧٧٤هـ – الجزء الحادى عشر مكتبة المعرفة طه سنة ١٤٠٤هـ سنة ١٩٨٣م أحداث سنة ٣٥٢هـ .

(٤) مقلوم أى ضعيف أنظر الصحاح للجوهرى إسماعيل بن حماد تحقيق أحمد عبدالغفور عطا جـ٥ ط٢ سنة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .

(٥) يقصد سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام .

ويجدر بنا أن نتعرف على جهود ابن حزم ، والخزرجي في الرد على شبهات اليهود ، والنصارى :

أولاً : جهود ابن حزم والخزرجي فى الرد على شبهات اليهود والنصارى

الشبهة لغة تعنى الالتباس ، كأن يلتبس الأمر على المشتبه ، وشبّه عليه خلط عليه الأمر حتى اشتبه بغيره[1] ، وتعنى الشبهة فى الاصطلاح أن يُظن غير الدليل دليلاً[2] فيظن صاحب الشبهة أن كلامه يحتوى على دليل لما يريد أن يدعيه ، وحقيقة الأمر غير ذلك .

وإذا كان علم الكلام الإسلامى جاء وليد الحاجة الملحة للرد على شبهات المبتدعة والمضلين عن العقيدة الإسلامية فإن كتابات الأندلسيين فى الرد على أهل الكتاب تحقق هذا الهدف فكتب أبوالوليد فى الرد على رسالة راهب فرنسا التى يدعو فيها المقتدر بالله إلى التنصر صراحة ، وكتب ابن حزم رداً على هجوم ابن النغريلة اليهودى على القرآن الكريم حيث تعرف على ماكتبه ابن النغريلة فى التطاول على كتاب الله من خلال رد أحد المسلمين على هذا اليهودى ، وكتب أيضاً ابن أبى عبيدة الخزرجى كتابه "مقامع الصلبان" يرد به على رسالة القسيس القوطى إليه ، وكتب القرطبى :"الإعلام بما فى دين النصارى من الفساد والأوهام ، وإظهار محاسن دين الإسلام ، وإثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام" .

ويجدر بنا أن نلقى الضوء على جهود ابن حزم فى الرد على اليهود ثم جهود الخزرجى فى الرد على شبهات النصارى متمثلة فى رسالة القسيس القوطى إليه .

---

(١) لسان العرب : ابن منظور أبى الفضائل جمال الدين محمد بن منظور الأفريقى المصرى . بيروت سنة ١٩٥٦م / ١٣٧٥هـ . المجلد ١٣ص ٥٠٤ "وقيل الفتنة إذا أقبلت شبهت على القوم وأرتهم أنهم على الحق حتى يدخلوا فيها ، ويركبوا منها مالا يحل ، فإذا أدبرت ، وانقضت بأن أمرها، فعلم من دخل فيها أنه كان على خطأ" .

(٢) التعريفات للشريف الجرجانى على بن محمد بن على السيد الزين أبى الحسن الحسينى الجرجانى الحنفى (٧٤٠-٨١٦هـ) شركة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وشركاه بمصر سنة ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨ م باب الشين ص ١١٠ .

(١) جهود ابن خزم فى الرد على شبهات ابن النغريلة اليهودى :

وصف ابن حزم الحالة التى وصل إليها اليهود فى عصره متمثلة فى شخص ابن النغريلة وليس هذا غريبًا على ابن حزم - عالم النفس - الذى يصف النفس الإنسانية فى أدق خلجاتها ، وأعمق خباياها ، فيقف على أسرارها ، ويكشف أغوارها بلغة أدبية راقية ، فهو يكشف أثر ضعف الحس الدينى لأهل الملك على تطاول أهل الشرك على الإسلام ، فيقول : "اللهم إنا نشكو إليك تشاغل أهل الممالك من أهل ملتنا بدنياهم عن إقامة دينهم وبعمارة قصور يتركونها عما قريب عن عمارة شريعتهم اللازمة لهم فى معادهم ودار قرارهم وبجمع أموال ربما كانت سببًا إلى انقراض أعمارهم ، وعونًا لأعدائهم عليهم عن حياطة ملتهم التي بها عزّوا فى عاجلتهم وبها يرجون الفوز فى آجلتهم حتى استشرف لذلك أهل القلة والذمة وانطلقت ألسنة أهل الكفر والشرك[١] ...." .

واستمر ابن حزم يحذر من التهوين فى أمر أعداء الدين خاصة "إن كان العدو من عصابة لا تحسن إلا الخبث مع مهانة الظاهر فيأنس المغتر إلى الضعف البادى ، وتحت ذاك الختل والختر والكيد ، والمكر ، كاليهود الذين لا يحسنون شيئًا من الحيل، ولا آتاهم الله شيئًا من أسباب القوة وإنما شأنهم الغش ، والتخابث ، والسرقة على التطاول والخضوع مع شدة العداوة لله تعالى ولرسول ﴿ ﷺ ﴾[٢] " .

وكلام ابن حزم عن اليهود يكشف عن عمق فهمه للشخصية اليهودية وسبقه فى نظرياته العلمية والنفسية عن الطبيعة اليهودية فإذا قارنا الفقرة السابقة لإبن حزم بما ورد فى كتاب "كيف نفهم اليهود" المنسوب لراهب يسوعى نجد أتفاقًا فى تحليل، وفهم الشخصية اليهودية ، فيقول الراهب : "إن اليهود يجتهدون فى أن يظهروا بمظهر المعذبين ، وها هم أولاء فى القدس[٣]" .

(١) الرد على ابن النغريلة اليهودى لابن حزم ص ٤٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٦.

(٣) كيف نفهم اليهود : د. حسين مؤنس ص١٥ ونقل الدكتور مؤنس هذا الكلام مترجمًا من كتاب "اليهود" لروجية بيريفيت .

ويصف ابن حزم أثر المال على ابن النغريلة اليهودى ، وأهدافه من الطعن فى الإسلام فيقول : "واستشمخت لكثرة الأموال لديه نفسه المهنية ، وأطغى توافر الذهب والفضة عنده همته الحقيرة ، فألف كتابًا قصد فيه بزعمه إلى إبانة تناقض كلام الله عز وجل – اغترارًا بالله تعالى أولاً ثم بملك ضعفه ثانيًا ، واستخفافًا بأهل الدين بدءًا ، ثم بأهل الرياسة فى مجانة عودًا[(١)]" .

وإشارة أبى محمد بن حزم لأثر المال على الطبيعة اليهودية تكشف مدى فهم اليهود المادى للحياة ، فإذا كان الناس يعتقدون أن المال يكسبهم الرفعة والسؤدد جاء اليهود ، وعلموا الناس درسًا جديدًا هو أن المال قوة تقهر النفوس ، وتذل الرجال، فاليهودى يجعل جل همه كسب المال ، فإذا جمعه أسعد نفسه بأيسره، ثم سعى لإتعاب الناس بمعظمه[(٢)] .

وبعد أن ذكر ابن حزم بعضًا من السمات الشخصية لابن النغريلة شرع فى الرد على شبهاته التى نتخير بعض ردوده عليها فيما يلى :

الشبهة الأولى :

كان الكفار يتطيرون بالنبى « ﷺ » ويعتقدون أن ما يصيبهم من شر هو بسبب وجودة « ﷺ » بينهم وروى ذلك القرآن فى قوله تعالى : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ ﴿٧٨﴾[(٣)] ﴾ ونفى الله عز وجل هذا الكذب الفاضح مباشرة فقال : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴿٧٨﴾[(٤)] ﴾.

وظن ابن النغريلة خطأ أن هذه الآية تتناقض مع الآية التالية لها : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴿٧٩﴾ ﴾[(٥)].

(١) الرد على ابن النغريلة ص ٤٦ .

(٢) كيف نفهم اليهود : د. حسين مؤنس ص ٢٤ .

(٣) سورة النساء آية ٧٨ .

(٤) سورة النساء آية ٧٨ .

(٥) سورة النساء آية ٧٩ .

وعلق اليهودى بقوله : "فعاد مصوبًا لقولهم ، ومضادًا لما قدم فى أول الآية[1]" .

أى أن الله تعالى ذكر فى الآية الأولى أن ما يصيب الكفار من حسنة أو شر فمن الله تعالى ، وليس منه ﴿ ﷺ ﴾ كما يدعى الكفار ، ثم عاد فصحح قوله – كما يفترى اليهودى – بأن الذى يصيب الكفار من شر فمن النبى ﴿ ﷺ ﴾ .

والحقيقة أن جهة الخطاب منفكة بين الآيتين ؛ لأن الآية الأولى الخطاب فيها موجه للكفار ، وتبين لهم أنه لا يقع شىء فى الوجود من خير أو شر إلا بإرادته عز وجل أما الآية الثانية فالخطاب موجه إلى النبى ﴿ ﷺ ﴾ وتبين مسئولية الإنسان الفردية عن أفعاله .

وجاء رد ابن حزم على ابن النغريلة جامعًا شاملاً ، ولم يكتف بالرد بل تطرق إلى ما قد يفهم خطأ من هاتين الآيتين فذكر أشياء لم تأت على لسان اليهودى ، وقد كان ابن حزم ينهج منهجًا جدليًا فى جميع ردوده على ابن النغريلة قائمًا على الرد والنقد، أو الدفاع والهجوم فكان بعد أن يرد على ابن النغريلة يشرع فى نقد نصوص التوراه ، وغالبًا ما يكون نقد ابن حزم فيه قلب وإلزام ؛ حيث يقلب المسألة التى يريد ابن النغريلة أن يطعن بها القرآن الكريم ويلزمه بنصوص التوراه أن ما يطعن به القرآن الكريم هو ثابت ولازم للتوراه وليس للقرآن وهو ما سنوضحه ويمكن أن نعتبر أن رد ابن حزم على الشبهة السابقة وضح ثلاثة أبعاد رئيسية :

أ) بيان جهة ورود الحسنات والسيئات التى تصيب الإنسان وسببها .

ب) نفى تعمد النبى ﴿ ﷺ ﴾ للمعصية صغيرها وكبيرها .

جـ) إلزام اليهودى من نصوص التوراه الاعتراض الذى فهمه خطأ من الآيات السابقة .

ذكر ابن حزم أن كفار قريش كانوا ينسبون السيئات التى تصيبهم إلى النبى ﴿ ﷺ ﴾ وبين أنه ﴿ ﷺ ﴾ ليس بدعًا من الرسل فى ذلك ، فمثل هذا الات

(١) الرد على ابن النغريلة ص ٤٧ .

أصاب موسى عليه السلام من قبل ، فقال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ (١٣١) ﴾ (١) .

وبين ابن حزم أن الحسنات التي يصيبها الإنسان هي فضل من الله تعالى ، وأن السيئات التي تصيب الإنسان فبسبب تقصير الإنسان في أداء حق الله عليه فالسبب فيها هو الإنسان ، ولكن لا يقع شيء في ملكوت الله تعالى إلا بإرادته ، ومن ثم كل ما يقع من حسنات وسيئات هو من عند الله تعالى(٢) ، فيقول أبو محمد : "الحسنات السارة هي من عند الله تعالى بفضله على الناس وأن كل سيئة يصيب الله تعالى بها إنسانًا في دنياه فمن قبل نفس المصاب بها بما يجنى على نفسه من تقصيره فيما يلزمه من أداء حق الله تعالى الذي لا يقوم به أحد(٣)" .

ثم يعقب قائلاً : "وكل ذلك من عند الله تعالى جملة(٤)" .

وكلام ابن حزم عن مسئولية الإنسان الفردية عن أفعاله يؤيده القرآن الكريم ، فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (١٥) ﴾(٥) .

ثم خاف ابن حزم أن يفهم من الآية التي تصف أن ما يصيب النبي عليه الصلاة والسلام من سيئات فمن قبل نفسه أن يظن أنه « ﷺ » يمكن أن يقع في المعصية فبين أن النبي معصوم عن المعصية صغيرها وكبيرها(٦) ؛ ولكنه قد يقصر في شكر نعم الله تعالى وهذا مالا يمكن أن يستوفيه ملكٌ فضلاً عن نبي(٧) .

---

(١) سورة الأعراف آية ١٣١ .
(٢) الرد على ابن النغريلة ص ٤٨ .
(٣) المصدر السابق نفس الصفحة .
(٤) الرد على ابن النغريلة لابن حزم ص ٤٨ .
(٥) سورة الإسراء آية ١٥ .
(٦) الرد على ابن النغريلة ص ٤٨ .
(٧) المصدر السابق نفس الصفحة .

وهذا الاستطراد من ابن حزم لم يكن دافعه وصف اليهودى للنبى بوقوع المعصية منه ؛ حيث لم ينسب ذلك ابن حزم لليهودى ولكن جاء كلامه من قبيل ألا يترك مسألة دون أن يوفيها حقها من البحث ، والدراسة ، وحتى لا يدع مجالاً لإثارة أسئلة أو شبهات حول القرآن وآياته الكريمة .

وأخيرًا أتى ابن حزم بنصوص توراتية تقلب المسألة على ابن النغريلة ، وتلزم التوراه بالتناقض ، وتذكر نصًا يفيد ألا يحاسب الإنسان على أفعال غيره ، وهو "لا تقتل الآباء لأجل الأبناء ، ولا الأبناء لأجل الآباء ، ألا كل واحد يُقتل بذنبه(١)" .

ثم ذكر نصوصًا أخرى من التوراه تناقض النص السابق فورد أنه "الذى يعاقب بذنب الوالد الولد فى الدرجة الثانية والرابعة(٢)" . وأيضًا "أن قاين بن آدم عاقبة الله فى السابع من ولده(٣)" .

الشبهة الثانية :

يذكر القرآن الكريم صراحة أن خلق السموات والأرض قد تم فى ستة أيام : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾(٤)

وعند تفصيل قصة الخلق فهم ابن النغريلة أن خلق السموات والأرض استغرق ثمانية أيام ، وليس ستة أيام واحتج ابن النغريلة أن خلق السموات والأرض استغرق ثمانية أيام ، وليس ستة أيام واحتج ابن النغريلة بقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴿٩﴾ ﴾(٥) . ثم ذكر تعالى فى الآية : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ

(١) الرد على ابن النغريلة ص ٥٠ .
(٢) المصدر السابق نفس الصفحة .
(٣) المصدر السابق نفس الصفحة . ورد بسفر التكوين صح ٤ عدد ٢٤ "أنه ينتقم لقايين سبعة أضعاف وأما للامك فسبعة وسبعين" .
(٤) سورة ق آية ٣٨ .
(٥) سورة فصلت آية ٩ .

مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾(١) . واعتبر ابن النغريلة أن خلق الأرض ، وما تبعها من الجبال وتقدير الأقوات قد تم فى ستة أيام ولكنه اعتبر أن خلق السماء تم بعد ذلك فى يومين لقول تعالى : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴿١٢﴾ ﴾(٢) .

وذهب ابن النغريلة أن مجموع الآيات يفيد أن خلق السموات والأرض قد تم فى ثمانية أيام وحين يتعرض ابن حزم للرد على ابن النغريلة فإننا نعلم أنه صاحب عقلية رياضية ، وسبق أن بينا أنه أثبت أخطاء حسابية فى التوراه بما لا يدع مجالا للمناقشة ، والمشكلة التى وقع فيها ابن النغريلة أنه حجم قدرة الله تعالى ، وقاس القدرة الإلهية على الإنسانية تأثرًا بالتوراه .

وجاء رد ابن حزم سهلاً وواضحًا وهو أن الله تعالى خلق الأرض فى يومين ، وقد فيها أقواتها فى أربعة أيام ، واليومان اللذان خلق الله فيهما السموات تمت فى يومين من الأيام الأربعة التى قدر فيها تعالى أقوات الأرض(٣) ، وليس هذا معضلاً لله تعالى ، وبذلك يكون مجموع خلق السموات والأرض ستة أيام ومن المعروف أن اليوم المقصود فى هذه الآيات ليس يومًا مساويًا لليوم المعروف على الأرض ، الذى يقدر بأربعة وعشرين ساعة ، وإنما هو حقبة زمنية لا يعلمها إلا الله خاصة وأن اللع تعالى يقول : ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ ﴾(٤) وفى آية أخرى : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ ﴾(٥) . وهذا يدل على أن المقصود من اليوم معني مجازى فالزمن نسبى يختلف باختلاف الأماكن فى الكون الفسيح .

---

(١) سورة فصلت آية ١٠ .
(٢) سورة فصلت آية ١٢ .
(٣) الرد على ابن النغريلة لابن حزم ص ٥٣ .
(٤) سورة الحج آية ٤٧ .
(٥) سورة المعارج آية ٤ .

وكعادة ابن حزم الجدلية أن يثنى الدفاع بالهجوم ، فبين لنا مصدر قياس الأفعال الإلهية على الإنسانية فى الفكر اليهودى ؛ إذ يقولون : "إن الله تعالى خلق الخلق فى ستة أيام واستراح فى اليوم السابع(1)" وهنا يتساءل ابن حزم مستنكرًا : "وهل تكون الراحة إلا لتعب ونصب(2) ؟" ومن المعروف أن من كمالات الله تعالى فى الإسلام ألا يمسة تعب فيقول تعالى : ﴿لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (35)﴾ (3) .

الشبهة الثالثة :

يوم البعث يوم عظيم وليس فه مشهد واحد بل مشاهد متعددة ، وسجل القرآن الكريم لقطات مختلفة لهذا اليوم ، ونظرًا لقصر فهم ابن النغريلة فإنه لم يدرك تعدد لقطات القصص القرآنى ليوم القيامة ، فظن أنها تتناقض والحق أنها تتكامل ، فاستدل ابن النغريلة بآيات قرآنية توهم أنها متناقضة كقوله تعالى : ﴿هَذَا يَوْمُ لا يَنطِقُونَ (35) وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (36)﴾(4) ثم ذكر قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (111)﴾ (5) .

وأفاض أبو محمد فى الرد على ابن النغريلة معتمدًا على آراء العلماء ، وآرائه الشخصية فذكر أن العلماء قالوا إن المنع فى الآية الأولى يكون فى بعض مواقف يوم القيامة ، وأن الجدل المذكور فى الآية الأخرى يكون فى موقف آخر(6) .

---

(1) الرد على النغريلة ص 54 ورد بسفر التكوين صح 2 عدد 2 "وفرغ الله فى اليوم السابع من عمله الذى عمل فاستراح فى اليوم السابع من جميع عمله الذى عمل" .

(2) الرد على ابن النغريلة ص 54 ، 55 .

(3) سورة فاطر آية 35 .

(4) سورة المرسلات آية 35 ، 36 .

(5) سورة النحل آية 111 .

(6) الرد على ابن النغريلة ص 54 ، 55 .

واعتبر ابن حزم أن اليوم الأول هو يوم الحساب وهو اليوم المذكور فى الآية الكريمة التى تتحدث عن مجادلة النفس ، واليوم التالى لهذا اليوم هو يوم دخول الكفار النار وفى هذا اليوم لا يسمح لهم أن ينطقوا بعذر بعد أن سمح لهم بالجدل فى اليوم الأول ، وليؤكد أبو محمد كلامه ذكر الآيات التى تتحدث عن عدم النطق كاملة لكى يتضح أنها تتحدث عن ساعة دخول الكفار النار بعد إدانتهم ، فيقول عز وجل : ﴿ انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩) انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (٣٠) لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (٣١) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ (٣٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٣٤) هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) ﴾ (١) .

وخرَّج ابن حزم كذلك الآيتين الكريمتين تخريجًا آخر يظهر منه قوة حافظته ، وسعة معرفته بأساليب اللغة العربية فاعتبر أن آية المنع من النطق تكون للكافرين مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) ﴾(٢) .

أما الآية التى تذكر الجدال فإنها تتحدث عن طلب الناس مظالمهم من بعضهم البعض؛ لأن الفعل "جادل" فعل من فعلين "أفعال المشاركة" والله لا يجادل وإنما يجادل الناس بعضهم البعض(٣) ومما هو جدير بالذكر أن كتب التفسير تتفق مع ما ذكره ابن حزم ، فورد فى تفسير آية المنع من النطق عند القرطبى أن يوم القيامة له مواطن ، ومواقيت ، والمنع من النطق يكون فى المواقيت التى لا يؤذن فيها بالنطق ولا يسمح بالاعتذار(٤) ، وأضاف القرطبى تفسيرات ترى أنهم ينطقون حقيقة ولكن لأنهم لا ينطقون بحجة نافعة ، ومن نطق بما لا ينفع ولا يفيد فكأنه ما نطق(٥) .

---

(١) سورة المرسلات آية ٢٩ : ٣٦ .
(٢) سورة يس آية ٦٥ .
(٣) الرد على ابن النغريلة ص ٥٥ ، ٥٦ .
(٤) الجامع لأحكام القرآن لأبى عبدالله ابن أحمد الانصارى القرطبى جـ١٩ تفسير سورة المرسلات آية ٣٥ - دار الكتاب العربى للطباعة والنشر - القاهرة سنة ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م ص ١٦٦ .
(٥) الجامع لإحكام القرآن جـ١٩ تفسير سورة المرسلات آية ٣٥ ص ١٦٦ .

ولم يترك ابن حزم طبقًا لمنهجه الدفاعى الهجومى الرد على هذه الشبهة دون أن يتبعها بإثبات تناقض نصوص التوراه ، ونكتفى بنصين تنسبهما التوراة إلى سليمان عليه السلام يقول فى أولهما : "أن العالم لا أول له[1]" وفى الثانى : "أنا كنت مع الله حين خلق الأرض والسماء[2] " فالعبارة الأولى يفهم منها أن العالم قديم والثانية يذكر فيها سليمان أنه كان مع الله حين خلق السماء والأرض مما يدل على أن العالم مخلوق أى حادث .

الشبهتان الرابعة والخامسة :

من المعروف أن عناصر الطبيعة ذات فوائد للإنسان ، والعجيب أن ابن النغريلة اعترض على فوائد عسل النحل لصحة الإنسان واعترض على قوله عز وجل : ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [1] . وقال :"وكيف هذا ، وهو يؤذى المحمومين وأصحاب الصفراء المحترقة[2] ؟" ونعى ابن حزم على ابن النغريلة عدم فهمه لأساليب اللغة العربية ، فالآية الكريمة لم تذكر أن العسل فيه شفاء لكل علة[3]، وذكر أبو محمد فوائد عسل النحل بما يتناسب مع تقدم الطب فى عصره، فعدد فوائده فى إسخان المبرودين وتقطيع البلغم ، وتقوية الأعضاء حتى صار لا يطبخ أكثر الأشربة إلا به ولا يعجن جميع اللعوقات إلا به[4] .

وذكر ابن حزم على طريقة مجاراة الخصم أن نصوص التوراه التى يؤمن بها ابن النغريلة تحدثت عن أرض القدس بأنها تنبع عسلاً ، ولبنًا على سبيل التشويق لليهود[5]؛ ومن ثم وضع ابن حزم هذا الهودى فى مأزق ، فإذا كان ابن النغريلة يعتقد أنه ليس فى العسل شفاء أصلاً يكون الله قد وعدهم بأرض بها الداء والبلاء[6] .

(١) سورة النحل آية ٦٩ .

(٢) الرد على ابن النغريلة ص٦٢ .

(٣) المصدر السابق نفس الصفحة .

(٤) المصدر السابق نفس الصفحة .

(٥) المصدر السابق ص ٦٣ .

(٦) المصدر السابق نفس الصفحة .

واعترض اليهودى كذلك على قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ ﴾ [1] .

قال : "كيف يكون مباركًا ، وهو يهدم البناء ويهلك كثيرًا من الحيوان[2] ؟"

ورأى أبو محمد أن من عقوبات الله تعالى المعجلة فى الدنيا لابن النغريلة هو قلة فهمه وضعف عقله ، لأن فوائد الماء لا تخفى على أحد ، وأخذ ابن حزم يعدد فوائد الماء التى يتضح منها أن قوام الحياة كلها يعتمد على الماء ، فلو شرب الماء لم يبق فى الأرض حيوان أصلاً ... إلخ .

وفى المقابل ذكر ابن حزم آثار عدم نزول المطر من السماء مما يؤدى إلى انعدام الحياة على الأرض وأشار إلى أن الأرض المقدسة التى يحلم ابن النغريلة بالعودة إليها ذكرت التوراه من صفاتها الحسنة أنها تسقى من ماء السماء [3] ، وبذلك يكون أبو محمد وضع ابن النغريلة بين أمرين لا مفر ممن أن يتخير أحدهما ، فإما أن يكذب نص التوراه أو يعترف بفضل الماء .

بعد أن تخيرنا بعض مطاعن ابن النغريلة فى آيات القرآن الكريم، التى رد عليها ابن حزم فإننا نراه قد ذكر شبهات لأهل الكتاب تجلى من خلال ردوده عليها ثقافته المنطقية فأورد احتجاج اليهود بأن المسلمين يؤمنون بنبوة موسى عليه السلام ، ويقصدون من ذلك أنهم والمسلمين يتفقون على نبوة موسى ويختلفون مع المسلمين فى الإيمان بنبوة محمد ﴿ ﷺ ﴾ .

وأجاب ابن حزم عالم المنطق بأن المسلمين وافقوا على نبوة موسى طبقًا لمقدمات ثبتت لسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، وهى أنه من أتى بمعجزات فهو نبى وموسى أتى بمعجزات فهو نبى ، وهذه المقدمات نفسها تنتج نبوة محمد عليه الصلاة

(١) سورة ق آية ٩ .
(٢) الرد على ابن النغريلة ص ٦٣ .
(٣) المصدر السابق ص ٦٤ .

والسلام فيقول ابن حزم : "كل من أتى بمعجزة فهو نبى ، ومحمد ﴿ ﷺ ﴾ أتى بمعجزات فهو نبى[1]" .

ويمكن أن نضع كلام أبو محمد بن حزم السابق فى هيئة قياس منطقى على النحو التالى :

كل من أتى بمعجزة نبى

محمد ﴿ ﷺ ﴾ أتى بمعجزات

∴ محمد ﴿ ﷺ ﴾ نبى

ولقد عقد ابن قيم الجوزية فى كتابه "إغاثة اللهفان" فصلا عن أنه لا يمكن ليهودى، أو نصرانى أن يؤمن بنبوة موسى أو عيسى إلا إذا آمن بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام ؛ لأن معجزته الكبرى وهى القرآن الكريم عينية مشاهدة ، بينما معجزات هذين النبيين الكريمين سماعية ، فإن لجأ اليهود إلى تقليد الآباء فليس آباء اليهود أصدق من آباء غيرهم فى نقل الأخبار ، وإن ادعى اليهودى أنه آمن بموسى لتواتر الأخبار عنه ، فهذا التواتر ثابت أيضًا عيسى ، ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، فلا يبقى سوى أن النبى عليه الصلاة والسلام تفرد باستمرارية معجزة القرآن الكريم[2] .

بعد أن تعرضنا لجهود ابن حزم الأندلسى فى الرد على شبهات اليهود فإنه يجدر بنا أن نتعرف على جهود ابن أبى عبيدة الخزرجى فى الرد على مظهر آخر من مظاهر هذه المطاعن من الجانب النصرانى .

(١) التقريب لحد المنطق : ابن حزم ص ١٤٤ .

(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان : ابن قيم الجوزية - المكتبة القيمية ١٩٨٣ م جـ٢ ص ٢٥٤ : ٢٥٦ ولا يخفى أن ابن قيم الجوزية نقل هذا الكلام عن السمو أل بن يحى المغربى (ت ٥٧١ هـ) من كتابه بذل المجهود فى رفحام اليهود .

(٢) جهود الخزرجي في الرد على شبهات القسيس القوطي[١] :

سبق أن ذكرنا الدور التنصيري الذي مارسه قساوسة النصارى ضد المسلمين بعد ضعف المسلمين ، وتساقط مدنهم بالأندلس ، وما تعرض له الخزرجي أثناء أسره بطليطلة من محاولات تنصيره ، وعندما عرض عليه عوام المسلمين شبهات القسيس القوطي وأجابهم عليها ، وذهب المسلمون بتلك الإجابات إلى هذا القسيس ، الذي بدوره استفسر منهم عن صاحبها لعلمه بتواضع علمهم ، فأخبروه بأمر الصبي، فما كان من القسيس إلا أن دفعه الغرور أن يبعث برسالة جدلية إلى الخزرجي ، وطلب من المسلمين أن يوصلوها إليه[٢] .

وبدأ القسيس رسالته بتوجيه الحديث إلى الخزرجي ناعتًا إياه بالفتى الإسماعيلي المحمدي مما يدل على أن البعد الجنسي والعرقي كان مسيطرًا على تفكيره ، وأن محاولة اختزال الإسلام لدى المستشرقين في شخص النبي عليه الصلاة والسلام هي محاولة قديمة لها بعد نفسي وعقائدي تهدف من خلاله إلى محاولة صد القارئ عن الإسلام عقيدة وشريعة ، وإلغاء دور الوحي[٣] ، وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾[٤] وذكر دعوى التجسد والصلب والفداء ، ثم شبهاته حول الإسلام ، كما ذكر هذا القس خدع النصارى في كنائسهم محتجًا بأنها معجزات تدل على صحة النصرانية ، وفي نهاية الرسالة اعترف القسيس بذكاء الخزرجي ، واعتبر أن هذا الذكاء هو سبب إرساله كتابه التنصيري إليه[٥] .

---

(١) القوط : قبائل أوروبية سيطرت على الأندلس وعاشت فيها قبل الفتح الإسلامي وكان آخر ملوكهم رودريك "رذريق" الذي هزمه طارق بن زياد عام ٩٢هـ ٧١١م .

(٢) المقامع للخزرجي ص ٥٣ .

(٣) أنظر الإسلام – دراسة في تاريخ الأديان : د. محمد خليفة حسن – مقال بمجلة كلية الآداب جامعة القاهرة – المجلد ٥٦ – عدد ٢ أبريل ١٩٩٦ م ص ٧٧ ، ٧٨ .

(٤) سورة الحج آية ٧٨ .

(٥) المصدر السابق ص ١١٩ .

ويلاحظ تشابه رسالة القسيس القوطى إلى الخزرجى مع رسالة راهب فرنسا إلى المقتدر بالله(١) من حيث شرح رسالة الراهب لأهم عقائد النصرانية ، وأن سبب كتابة الرسالة هو ما وقف عليه الراهب من أمر المقتدر بالله ، وبصيرته فى أحوال الدنيا(٢) .

وقد أظهرت رد ود الخزرجى على شبهات القسيس حضور بديهته ، وسعة معرفته وهو ما سيتضح فيما يلى :

الشبهة الأولى :

ذكر القسيس أن كثيراً من الأساقفة قد ألفوا كتبًا تطعن فى الإسلام ، ونبينا ﴿ ﷺ ﴾ ورأى الخزرجى أن طعن القساوسة فى نبينا عليه الصلاة والسلام ليس غريبًا على مثل هؤلاء ، فقد سبق وفعلوا مثل ذلك مثل ذلك مع الخالق سبحانه وتعالى ، وذكر الخزرجى بأمانة ليست غريبة على علماء المسلمين أهم مطاعن الأساقفة فى الإسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام ووصفها بأنها أكاذيب(٣) .

ومن هذه الأكاذيب أنهم :

* ادعو أن محمداً ﴿ ﷺ ﴾ كان يقول لقومه إنه لن يموت ، ولكنه سيرفع إلى السماء وبلغ الحقد والحسد فى قلوبهم أن قالوا إنه حين مات تركه قومه حتى نتن ثم دفنوه(٤) .
* نفوا معظم معجزات النبى ﴿ ﷺ ﴾ ، وعلى رأس ذلك الطعن فى نظم القرآن الكريم وإعجازه .
* ادعو أنهم رأوا لمسيلمة الكذاب كتابًا تحدى به العرب لو رآه المسلمون لارتدوا عن الإسلام إعجابًا بنظمه(٥) .

---

(١) هو أبو جعفر أحمد الملقب بالمقتدر بالله ت ٤٧٤هـ / ١٠٨١ م وحكم سرقسطة لمدة خمسا وثلاثين سنة .

(٢) رسالة راهب فرنسا : أبو الوليد الباجى ص ٤٩ .

(٣) المقامع للخزرجى ص ٧٨ .

(٤) المصدر السابق ص ١٨٨ .

(٥) المصدر السابق ص ١٨٩ .

ووجه ابن أبى عبيدة كلامه للقسيس قائلاً : "وأنا أذكر لك الآن ما يوضح لك كذبهم على سيد الأولين والآخرين ، وأكتفى بذكر القليل عن التطويل(١)" .

أ) ورد الخزرجى على زعم النصارى بأن النبى ﴿ ﷺ ﴾ ادعى بأنه لن يموت بأدلة قرآنية ونبوية تؤكد أن جميع البشر بما فيهم النبى ﴿ ﷺ ﴾ سيموتون فقال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) ﴾(٢). وأيضًا : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ﴾ (٣) . ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا (١٤٤) ﴾ (٤) .

وقال النبى ﴿ ﷺ ﴾ : "بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة(٥)" . وكان ينهى قومه عن أن يتخذوا قبره مسجداً حتى لا يؤدى بهم ذلك إلى الفتنة ، كما فعلت النصارى فى عبادة عيسى بن مريم(٦) ، وكان عليه السلام يستعيذ بالله من عذاب القبر(٧) .

ويجمع المسلمون على أن الرسول ﴿ ﷺ ﴾ حين مات فاضت منه رائحة المسك وكان الخليفتان أبو بكر وعلى ابن أبى طالب يقولان : "بأبى أنت وأمى طبت حيًّا وميتًّا(٨)" .

---

(١) المقامع للخزرجى ص ١٨٩ .
(٢) سورة الأنبياء آية ٣٤ .
(٣) سورة الزمر آية ٣٠ .
(٤) سورة آل عمران آية ١٤٤ .
(٥) صحيح البخارى كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة طبع دار الجيل بيروت جـ ١٩ ص ١٢٩ ورواه الحديث هم عمر بن على بن عبدالرحمن بن مهدى عن مالك بن حبيب عن حفص بن عاصم عن أبى هريرة عن الرسول ﴿ ﷺ ﴾ .
(٦) المقامع للخزرجى ص ١٩٠ .
(٧) المصدر السابق نفس الصفحة .
(٨) المصدر السابق نفس الصفحة .

ب) أما زعم الأساقفة بأنهم قد رأوا كتاباً لمسليمة لو رآه العرب لارتدوا عن الإسلام إعجاباً بنظمه ، فذكر ابن أبى عبيدة سؤالين إنكاريين ينسفون هذا الزعم نسفًا هما : "كيف ترقبتم أحوال مسيلمة ، وجهلها العرب ؟ وكيف قرأتم كتابه على بعدكم ، وعميت عنه العرب[1] ؟!" . والمصدر الذى قد يكون عرف الأساقفة من خلاله أخبار مسيلمة كما يرى الخزرجى ليس إلا المسلمون؛ لأنهم لا يغادروا من حوادثهم صغيرة ، أو كبيرة إلا أحصوها ونقل الخزرجى كلام مسيلمة الذى يثير الضحك ، مثل "يا ضفدع نق ما تنقين أعلاك فى السماء وأسفلك فى الطين ، لا الشارب تمنعين ، ولا الماء تكدرين[2] " كذلك قول مسليمة" والشمس وضحاها فى ضوئها ومتجلاها ، والليل إذا عداها يطلبها ليغشاها ، فأدركها حتى أتاها ، فأطفا نورها ومحاها[3] .

جـ) والشبهة المتعلقة بنفى معجزاته ﴿ ﷺ ﴾ من السهل الإجابة عليها ؛ لأنه على رأسها معجزة مازالت مستمرة إلى اليوم ، وإلى ما شاء الله ولا يستطيع أن ينكرها أحد وهى القرآن الكريم ، الذى تحدى الله به الإنس والجن : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) ﴾[4] ثم ورد ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ (١٣) ﴾[5] ثم تدرج التحدى إلى سورة واحدة : ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ (٢٣) ﴾[6] .

(١) المصدر السابق ص ١٩١ .
(٢) المصدر السابق ص ١٩٢ .
(٣) المصدر السابق نفس الصفحة .
(٤) سورة الإسراء آية ٨٨ .
(٥) سورة هود آية ١٣ .
(٦) سورة البقرة آية ٢٣ .

ونفى القرآن قدرتهم على ذلك نفيًا أبديًا فى قوله تعالى : ﴿ ولَن تَفْعَلُوا (٢٤) ﴾ [١]

. ويرجع الخزرجى إعجاز القرآن إلى عاملين :

أولهما : أن العرب عجزوا بالفعل عن معارضة القرآن[٢] .

الثانى : أنهم قد يكونوا قدروا على أن يعارضوه ولكن منعهم الله من ذلك[٣] وهو ما يعرف بالإعجاز بالصرفة .

ونحن نوافق الخزرجى على العامل الأول المتعلق بأن العرب لم يستطيعوا بالفعل أن يعارضوا القرآن لإعجاز القرآن بذاته عن أن يأتى أحد ولو بأصغر سورة من سوره .

أما العامل الثانى المتعلق بأن الله منع العرب أن يأتوا بمثل القرآن الكريم ، ولو لم يمنعهم لقدروا على أن يأتوا بمثله فنحن لا نوافق عليه ؛ لأنه يجرد القرآن من الإعجاز ؛ حيث يجعل العرب يستطيعون أن يأتوا بمثل القرآن ، ولكن الله منعهم من ذلك ، فالإعجاز يرجع إلى القدرة الإلهية على إعجاز العرب ، وليس إلى القرآن ذاته .

ويستشهد الخزرجى على إعجاز القرآن بموقف صناديد قريش أنفسهم حين سأل الوليد بن المغيرة[٤] قريشًا عن رأيهم فى النبى ﴿ ﷺ ﴾ .

فقالوا : "نقول شاعر

قال : إذن يكذبوكم لقد رأينا الشعر كله ، هزجه وزجزه وقريضه ومبسوطه فما قوله بالشعر

قالوا : هو ساحر .

قال : إذن يكذبوكم لقد رأينا السحرة وسحرهم فما هو بعقد السحر ولا نفثه .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٤ .

(٢) المقامع ص ١٩٤ .

(٣) المصدر السابق ص ١٩٤ .

(٤) الوليد بن المغيرة هو والد البطل المسلم خالد بن الوليد وكان من أثرياء قريش ، ووجهاء القوم .

قالوا : فهو مجنون .

قال : إذن يكذبوكم لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا بخالجه ولا وسوسته .

قالوا : فما تقول أنت ؟

فأطال فكرته ثم دخل منزله وأغلق الباب دونهم فصاحوا به وهموا برجمه فتطلع عليهم ، فقال بعد فكرة طويلة : "هو بساحر جاء بسحر يلقى إليه من نحو بابل يفرق بين المرء وقلبه وما أنتم بعالمين من هذا شيئًا إلا علم أنه باطل[1]" .

ونزل فى ذلك قوله تعالى عن الوليد : ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾﴾[2] .

ومن أدلة إعجاز القرآن الكريم إخباره بالغيب وما سيحدث فى المستقبل ! فمثلا الحرب التى هزم الفرس فيها الروم توقع القرآن بأن النصر سيكون حليفًا للروم بعد ذلك ، بل أكثر من ذلك فقد حدد القرآن الزمن الذى ستقوم فيه الحرب وينتصر الروم وهو بضع سنين[3] قال تعالى : ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴿٦﴾﴾[4] .

وأيضًا توقع القرآن أن المسلمين الذين هاجروا من مكة إلى المدينة سيعودون إليها منتصرين ، ويدخلون المسجد الحرام فقال تعالى : ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴿٢٧﴾﴾[5] .

(١) المقامع للخزرجى ص ١٩٥ ، ١٩٦ .

(٢) سورة المدثر آية ١٨ : ٢٤ .

(٣) البضع يطلق على العدد من ٣ : ٩ .

(٤) سورة الروم آية من ١ : ٦ .

(٥) سورة الفتح آية ٢٧ .

وبالفعل تم فتح مكة ودخل المسلمون المسجد الحرام ووعد الله تعالى المسلمين بالفتح القريب وهو دخول خيبر فقال تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴿٥٥﴾ ﴾ (١) .

تلك بعض الأمثلة من الآيات القرآنية الكريمة التى تخبر عن المستقبل وليس حصراً لها فالقرآن ملىء بالآيات التى تخبر عما سيحدث .

ومن المعجزات النبوية أن النبى ﴿ ﷺ ﴾ سقى أصحابه فى غزوة تبوك وهم عشرة آلاف رجل ، ومن معهم من غيرهم من قدح صغير، وكذلك نبع الماء من بين أصابعه ، وانفجار الماء من الأصابع أعجب من انفجاره من الحجر لموسى عليه السلام(٢) وقبض الرسول عليه الصلاة والسلام يوم بدر على تراب ، ورمى به وجوه الكفار من قريش قائلاً : "شاهت الوجوه(٣)" فأصيبت أعينهم بالأمراض ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ (٤) .

وقد كان بعض العرب قصدوه يومًا ليؤذوه ، وهو يصلى إلى جانب الحرم ، وكانوا يسمعون قراءته ، ولا يرون شخصه ، وفى ذلك نزل قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (٥) .

ومن تلك المعجزات النبوية – كذلك – حين أراد أبو جهل بن هشام أن يلقى حجراً على النبى عليه الصلاة والسلام وهو ساجد ، ثم تراجع مسرعًا فلما سئل عن تراجعه قال : "قمت لأفعل ما قلت لكم فلما قربت منه عرض لى دونه فحل من الأبل ، لا والله ما رأيت مثل هامته ولا قفزته ، ولا أنيابه بفحل قط فهم أن يأكلنى(٦)" .

---

(١) سورة النور آية ٥٥ .
(٢) المقامع للخزرجى ص ١٩٩ : ٢٠٠ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٠٢ .
(٤) سورة الأنفال آية ١٧ .
(٥) سورة يس آية ٩ .
(٦) المقامع للخزرجى ص ٢٠٤ .

وذكر أيضًا ابن أبى عبيدة الهجرة النبوية ، وما صاحبها من معجزات ؛ مثل عدم رؤية الكفار للنبى « ﷺ » – فى الغار ونسج العنكبوت[1] ، وأصيبت عين أحد الصحابة[2] فمسح بيده الكريمة عليها فعادت سليمة[3] . وسبح الحصى فى يده الكريمة ، وجاءت الريح المرسلة إلى أعداء المسلمين فى غزوة الخندق فاضطرتهم إلى ترك المدينة فنزل قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩)﴾[4] .

تلك أيضًا بعض معجزات الرسول وليس حصرًا لها ومن الجدير بالذكر أن منهج الخزرجى فى ذكر المعجزات النبوية كان يقوم على الاختصار الذى لا يقصر عن البيان[5] .

الشبهة الثانية :

اعترض القسيس على ما يعتقده المسلمون من أن فى الجنة أكلاً وشربًا إلى غير ذلك من اللذات الجسمانية ، وهذه الشبهة تشتهر فى كتابات النصارى الجدلية ، ومن ثم يكثر علماء المسلمين بأمانتهم المعهودة من إيرادها فى مؤلفاتهم والرد عليها .

---

(١) المقامع للخزرجى ص ٢٠٤ : ٢٠٥ .

(٢) يدعى هذا الصحابى الجليل (قتادة) وسمى بقتادة العينى بعد هذه الحادثة التى حدثت يوم أحد .

(٣) المقامع للخزرجى ص ٢٠٦ .

(٤) سورة الأحزاب آية ٩ .

(٥) المقامع للخزرجى ص ٢٠٦ .

وقد جاء رد ابن أبى عبيدة الخزرجي معتمداً على أمرين :

١ـ النصوص المقدسة لدى اليهود والنصارى تثبت تناول الطعام والشراب فى الجنة ! مثل ما ورد أن آدم وزوجته أكلا من الجنة وطردا بسبب ذلك[١] ، وفى الإنجيل ورد أن المسيح قال لتلاميذه : "لتأكلوا وتشربوا على مائدتى فى ملكوتى ، وتجلسوا على كراسى تدينون أسباط آسرائيل الاثنى عشر[٢]" .

٢- إن الأنبياء أخبروا العالم بالبعث ، وحشر الأجساد ، فلاشك فى التذاد الأجسام التى ستحشر مع نفوسها الأول[٣] ، لأن الله تعالى سيجمع أنفسنا ، والأجسام المركبة لها ويعيدها كما كان الحال أول مرة .

وإذا كان إنكار النصارى للملاذ الحسية فى الجنة يرجع إلى زعمهم أن المسيح قال : "إذا قام الناس لا يتزوجون ، ولا يتناكحون ، لكنهم كانون كأمثال ملائكة الله تعالى فى السماء[٤] .

فإن ابن حزم يكذب هذا النص بما ورد فى التوراه التى يصدق بها النصارى من أن الملائكة أكلت عند لوط ، وإبراهيم - عليهما الصلاة والسلام - الفطائر واللحم واللبن والسمن[٥] ، فإذا كانت الملائكة تأكل - وهذا من ابن حزم على طريقة مجاراة الخصم - والناس فى الجنة مثلهم ، فبلاشك أن الناس فى الجنة يأكلون ويشربون[٦] .

---

(١) المقامع للخزرجي ص ٢٨٢ .
(٢) إنجيل لوقا إصحاح ٢٢ العدد ٣٠ .
(٣) المقامع : الخزرجي ص ٢٨٠ .
(٤) الفصل لابن حزم جـ٢ ص ١٠٩ .
(٥) المصدر السابق جـ ٢ ص ١١٠ .
(٦) المصدر السابق نفس الصفحة .

وينبغى أن نشير إلى أن كلام ابن حزم على سبيل الإلزام فقط ؛ لأنه لم يرد نص دينى يذكر أن الملائكة تأكل ، فقال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (٢٨) ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) ﴾(٢) . ويتعجب ابن حزم من أن النصارى يجعلون ربهم يأكل ، ويشرب ويتخذ ولداً من امرأة اصطفاها ، ورغم ذلك ينكرون اتخاذ الناس للنساء فى الجنة (٣) .

وأشار الشيخ رحمة الله الهندى إلى أن الإنسان يتكون من جوهر لطيف علوى ، وكثيف سفلى جسمانى ، والنصارى يعترفون بالحشر الجسمانى فلابد من عموم اللذات الجسمانية والروحانية للإنسان فى الجنة خاصة أن اللذات الجسمانية ليست مانعة من اللذات الروحانية(٤) .

وإذا كان النصارى يعتقدون أن الأكل ، والشرب ، يستلزم الفضلات فإن هذا يلزم المسلمين ؛ لأنهم يرون أن الملاذ الجسمانية لا تستلزم متاعب ، فالأكل والشرب فى الجنة لا يكون نتيجة جوع ، وعطش ولا يتبعه فضلات كما يذكر القرافى فى أجوبته الفاخرة(٥) .

---

(١) سورة الذاريات آية ٢٤ : ٢٨ .
(٢) سورة هود آية ٦٩ ، ٧٠ .
(٣) الفصل لابن حزم جـ٢ ص ١١٠ .
(٤) إظهار الحق للشيخ رحمة الله الهندى جـ٢ ص ٨٧ ، ٨٨ .
(٥) الأجوبة الفاخرة : القرافى ص ٢٢٩ .

ويعجبني في هذا المقام تلك اللفتة الذكية التي أشار إليها القرطبي صاحب الإعلام من أنه حتى لو افترضنا جدلاً وجود فضلات للطعام والشراب في الجنة ، فلا يلزم من ذلك أن تكون هذه الفضلات مستقذرة – بل تكون فضلات طيبة ، مثل المسك الذي يكونه ، وينتجه بعض الحيوانات ، وكذلك عسل النحل(١) .

ويؤيد ذلك أن طعام وشرابْ أهل الجنة ليس هو طعام ، وشراب الدنيا فالجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

الشبهة الثالثة :

تتعلق هذه الشبهة بمسألة انتشار الدين بين الإسلام والنصرانية ، فادعى القسيس في رسالته لابن أبي عبيدة الخزرجي أن النصرانية انتشرت دون السيف عكس الإسلام الذي انتشر بالسيف(٢) .

وهذه الشبهة من أشهر الشبه التي يرددها أعداء الإسلام خاصة بين المستشرقين في عصرنا ، وطبيعي أن يتعرض كثير من علماء الإسلام الذين جادلوا النصارى ، النصارى ، وحتى الذين لم يجادلوهم لتفنيد هذه الشبهة .

وقد فند هذه الشبهة ابن أبي عبيدة تفنيداً دقيقًا يمكن إجماله في النقاط التالية :

١ـ اضطر المسلمون لاستخدام السيف لضرورة الدفاع عن العقيدة ، ونصر دين الله في الأرض بعد أن جحد الكفار معجزات النبي ﴿ ﷺ ﴾ وعلى رأسها القرآن الكريم وتعرضه – عليه السلام – للإيذاء ، وتعرض أصحاب للضرب "الموجع" والنفي والعذاب والتفتة عن دينهم (٣) .

---

(١) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ، وإظهار محاسن دين الإسلام وإثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام : القرطبي ص ٤٣٤ .

(٢) المقامع للخزرجي ص ١١٥ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٨٨ .

وإذا كان القتال سنة الله – تعالى – لأهل الحق من أهل الضلال فالمسلمون على تلك السنة سالكون ، وبها عاملون ، فيكون ذلك من مناقبهم لامن مثالبهم ، ومن حسناتهم لامن مثالبهم[1] .

٢- كما أن الأنبياء قبل الإسلام استعملوا السيف ؛ مثل : "موسى بن عمران ، ويوشع ابن نون ، ومن قبلهما ومن بعدهما من الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – فإنهم حاربوا الأمم الطاغية ببلادهم ، وسبوا الذرارى وناوشوا الأعداء فى ديارهم ، كما هو مكتوب فى التوراه وفى سائر الكتب لديكم ، وبينته فى قتال داود عليه السلام مع جالوت ، وسليمان – عليه السلام – مع طوائف الكفر ، ولم يقدح ذلك فى صحة أديانهم وإذا كان القتال سنة الله لأهل الحق مع أهل الضلال ، فنحن على تلك السنة سالكون وبها عاملون فيكون من مناقبنا لا من مثالبنا ومن حسناتنا لامن سيئاتنا[2]" .

ويكاد يكون القرافى (ت ٦٨٤ هـ) قد نقل فى أجوبته الفاخرة معظم ما قاله ابن أبى عبيدة الخزرجى عن هذه الشبهة فنراه يقول : "إن الكتب التى بايديهم شاهدة بقتال الأنبياء – عليهم السلام – مع طوائف من الطاغية كداود – عليه السلام – مع جالوت ، وسليمان مع طوائف من أهل الكفر ولم يقدح ذلك فى صحة أديانهم ، وإذا كان القتال سنة الله تعالى وعادته لأهل الحق مع أهل الضلال ، فنحن على تلك السنة سالكون ، وبها عاملون فتكون من مناقبنا لا من مثالبنا ومن حسناتنا لا من سيئاتنا ....[3]" .

---

(١) المقامع للخزرجى ص ٢٨٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ . ويؤكد هذا الكلام ابن قيم الجوزية فيقول : "والنصاري تعيب من يقاتل الكفار بالسيف ، وفيهم من يجعل هذا من أسباب التنفير عن محمد – ﴿ ﷺ ﴾ ولجهلهم وضلالهم لا يعلمون أن موسى قاتل الكفار ، وبعده يوشع بن نون ، وبعده داود وسليمان ، وغيرهم من الأنبياء وقبلهم إبراهيم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين" .

(٣) الأجوبة الفاخرة للقرافى ص ٢٦٧ .

ويقول الخزرجي أيضًا "فلو التزمتم" "أي المسيحيين" ما أوجبته عليكم شريعتكم المسالمة لما قامت لكم قائمة وما بقى منكم بقية ولكنكم .... التزمتم القتل والقتال .. ومازلتم إلى الآن على خلاف ما أمركم به إنجيلكم تعملون[1]" .

٣- ويستثمر الخزرجي هذه الشبهة ليثبت منها نبوة محمد ﴿ ﷺ ﴾ فمن جملة أوصافه إخبار إشعياء عن النبي﴿ ﷺ ﴾ أنه يأتي بالسيف ، ويهزم مشركي العرب ، فقال : "يدوسون الأمم كدوس البيادر ، وينزل البلاء بمشركي العرب، وينهزمون من أيدٍ بها سيوف مسلولة وقسي موتورة من شدة الملحمة[2]" .

أما بالنسبة للشق الثاني من الشبهة ، والمتعلق بأن النصرانية لم تنتشر بالسيف فكان من السهل على ابن أبي عبيدة إثبات عدم صحة هذا القول لأن الواقع التاريخي يكذبه فيقول ابن أبي عبيدة للقسيس : "فكأنك قد غفلت عما كتبه مؤرخوكم، وغيرهم من أن ابتداء دينكم إنما كان بأسباب القتال مع اليهود ، وكنتم تحرقونهم بالنيران ، وتغرقونهم في البحار ، وتعملون فيهم أسباب الذل والهوان[3]".

ويتابع القرافي (ت ٦٨٤ هـ) النقل عن الخزرجي في رده على هذه الشبهة فيقول: "إن المسيحي وغيره من مؤرخيهم نقلوا أن ابتداء دينهم إنما كان بسبب القتال مع اليهود وأنهم كانوا يحرقونهم بالنيران ، ويغرقونهم في السفن في البحار، وعملوا في اليهود كل أنواع الأذى[4]" .

ويستمر ابن أبي عبيدة في تفنيد هذه الشبهة ، فيشير إلى دور قسطنطين في نشر النصرانية بالقهر[5] ، ويذكر أن هذا المنهج الذي اتخذه النصارى في نشر النصرانية لا يتفق مع دعوى الإنجيل إلى التسامح[6] . ويخلص إلى نتيجة مؤداها

(١) المقامع : الخزرجي ص ٢٨٥ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٨٩ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٨٥ .
(٤) الأجوبة الفاخرة للقرافي ص ٢٦٤ .
(٥) المقاطع ص ٢٩٠ .
(٦) المصدر السابق ص ٢٨٦ .

أن شبهه انتشار الدين بالسيف تنقلب على النصرانية لا على الإسلام ، إذ يقول : "ومن هنا تعلم أن تعييبك لنا قد انعكس عليك ، فياليتك لم تقله[1]" .

والجدير بالذكر أن ابن حزم عمد كالخزرجى إلى قلب شبهه انتشار الدين بالسيف لتلزم النصارى فذكر دور قسطنطين فى نشر النصرانية بالقهر ، واستخدامه لأسلوب الترهيب والترغيب لفرض النصرانية على الناس بالسيف ؛ إذ يقول عن قسطنطين : "ثم أجبر الناس على النصرانية بالسيف والعطاء ، وكان من عهوده المحفوظة ألا يولى ولاية إلا من تنصر[2] ...." .

والحروب الصليبية فى الشرق الأوسط تشهد على ما نقول من أن المسيحيين حاولوا نشر دينهم بحد السيف وبالقوة ويبدو أن أسلوب الترهيب والترغيب كان سنة مسيحية عبر التاريخ لنشر النصرانية ، فينقل الشيخ رحمة الله من كتاب ذكر أن اسمه "كشف الآثار فى قصص أنبياء بنى اسرائيل[3]" منهج الكاثوليك بفرنسا مع اليهود ، وإصدار رجال الدين النصرانى عدة أحكام منها :

- من حمى يهوديًا ضد مسيحى يكون مخطئًا ، وخارجًا عن الملة .
- لا يعطى يهودى منصبًا فى دولة من الدول .

---

(١) المقامع ص ٢٨٦ .

(٢) الفصل جـ٢ ص ٢٢٨ وهناك أكثر من مجادل مسلم أشار إلى دور قسطنطين الإرهابى فى نشر النصرانية كابن تيمية الذى يقول : "ويقال النصارى أنتم مازلتم مقهورين مغلوبين مهددين فى الأرض ، حتى ظهر قسطنطين ، وأقام دين النصرانية بالسيف ، وقتل من خالفه من المشركين واليهود ، ولكن أظهر دينًا مبدلاً متغيرًا ليس هو دين المسيح عليه السلام" الجواب الصحيح ج٣ ص ٢٤٨ .

ويقول ابن قيم الجوزية عن موقف قسطنطين من الأساقفة الذين أيدهم فى مجمع نيقية "فعقد الملك لهؤلاء ال ٣١٨ مجلسًا خاصًا وجلس فى وسطه ، وأخذ خاتمه وسيفه وقضيبه ، فدفعها إليهم ، وقال لهم : قد سلطتكم على المملكة ، فاصنعوا ما بدالكم مما فيه قوام دينكم ، وصلاح أمتكم ، فباركوا عليه ، وقلدوه سيفه ، وقالوا له : أظهر دين النصرانية وذب عنه ، ودفعوا إليه الأمانة التى اتفقوا على وضعها ، فلابد يكون عندهم نصرانى من لم يقربها ..." إغاثة اللهفان جـ٢ ص ٢٠٠ .

(٣) إظهار الحق للشيخ رحمة الله الهندى ج٢ ص ٢٩٠ .

- لا يأكل أحد مع اليهودى ولا يعامله .
- ينزع أولاد اليهود من آبائهم ، ويربون على النصرانية .

ولسنا فى حاجة إلى الإشارة لما يفعله الصرب فى عصرنا هذا بالمسلمين فى "البوسنة والهرسك" واستخدامهم لأبشع صور التطهير الدينى ضد المسلمين ، وهتك الأعراض ، ودفن المسلمين فى مقابر جماعية ... إلخ .

ويحدث كل ذلك بمباركة العالم المسيحى ، ووسط خذلان العالم الإسلامى ، الذى لا يخفى ضعفه ، على أحد والحق أن ما يفعله الصرب فى "البلقان" هو عار فى جبين الإنسانية المتحضرة وحقوق الإنسان المزعومة .

بعد تعرضنا فى الفصل السابق لموقف ابن حزم ، وابن أبى عبيدة الخزرجى من أهم قضايا الخلاف الكبرى مع أهل الكتاب ، وتعرضنا فى هذا الفصل لنماذج من جهودهم فى الرد على اليهود والنصارى ، فإنه يجدر بنا أن نتساءل :

هل كان لهذه المواقف وتلك الجهود أثر فى حقل الجدل الدينى لأهل الكتاب ؟

والإجابة على هذا السؤال المهم والضرورى هى موضوع الدراسة التالية .

ثانيا : أثر جهود ابن حزم ، والخزرجى فى حقل الجدل الدينى لأهل الكتاب

كان للوجود الإسلامى فى الأندلس أثره الكبير على اليهود والنصارى فى مختلف مظاهر الحياة كالعادات ، والتقاليد ذات الصبغة الدينية(١) ، مثل حجاب المرأة ، وطقوس غسل الموتى(٢) ، ووُصِفَ إيمان نصارى الأندلس المتميز بأنه رد بطولى على إيمان آخر معاد(٣) .

(١) الأثر الإسلامى فى الفكر الدينى اليهودى : د. عبدالرازق أحمد قنديل - دار التراث بالقاهرة بالاشتراك مع مركز بحوث الشرق الأوسط سنة ١٩٨٤م / ١٤٠٤ هـ ص ٤٤١ ، ٤٤٢ .

(٢) الأثر الإسلامى فى الفكر الدينى اليهودى ص ٤٤١ - الإسلام فى عالم البحر المتوسط فرانشيسكو غابريلى - ترجمة د. محمد زهير السمهورى - عالم المعرفة - تراث الإسلام - القسم الأول - الفصل الثانى ص ١٣٩ .

(٣) الإسلام فى عالم البحر المتوسط - عالم المعرفة تراث الإسلام القسم الأول الفصل الثانى ص ١٤١ .

وحدث تطور فى الفكر الدينى اليهودى فزاد اهتمامهم بالمنهج اللغوى فى التفسير، ولا ريب أن نقد علماء المسلمين بالأندلس وفى مقدمتهم ابن حزم لنصوص التوراه كان له أثره فى اهتمام اليهود بالتفسير اللغوى(١) .

وتعتبر جهود علماء المسلمين فى مجادلة اليهود والنصارى سلسلة متصلة الحلقات فمن الطبيعى أن يتعرف المجادل المسلم على جهود سلفه ومعاصريه فى الرد على أهل الكتاب فيتمثلها ، ويضيف إليها ابتكاراته الذاتية فى هذا المجال .

وقد كانت جهود ابن حزم ، وابن أبى عبيدة الخزرجى إحدى حلقات جهود المسلمين فى الرد على أهل الكتاب ، التى يجدر التعرف على دورها وأثرها فى مجال الجدل الدينى :

١- أثر ابن حزم الأندلسى فى حقل الجدل الإسلامى لأهل الكتاب :

تعتبر موسوعة ابن حزم "الفصل فى الملل والأهواء والنحل "بالإضافة لرده على ابن النغريلة ، وكذلك مؤلفاته الأخرى "كالأصول ، والفروع" جهود جادة من جانب أبو محمد ، ومساهمة عظيمة فى إرساء وتأسيس علم مقارنة الأديان COMPARATIVE RELIGION وهناك من نسب إلى سبينوزا(٢) أنه مؤسس منهج النقد التاريخى للأديان القائم على النقد الداخلى والخارجى(٣) ، والحق أن ابن حزم هو صاحب الريادة فى هذا المنهج ، وسبق أن أشرنا إلى جهوده فى هذا المجال ، ويكفى أن نشير إلى أن بعضًا من النقد الذى وجهه ابن حزم للتوراه قد ردده فيما بعد سيبنوزا ، فيكون لابن حزم فضل السبق فى هذا المجال ، ولنضرب

---

(١) الأثر الإسلامى فى الفكر الدينى اليهودى ص ٤٣٩ ، ٤٤٠ .

(٢) باروخ سبيبنوزا "Spinoza" فيلسوف يهودى عاش فى القرن السابع عشر سنة ١٦٣٢م / ١٦٧٧م .

(٣) د. حسن حنفى : رسالة فى اللاهوت والسياسة لسبينوزا تقديم ترجمة د. حسن حنفى مكتبة الأنجلو ط٢ سنة ١٩٨١م حاشية ص ٢٤٣ .

مثلاً لذلك : تعرض ابن حزم لما ورد فى التوراه من حديث عن وفاة موسى عليه السلام وعدم معرفة موضع قبره ، وأنه لم يخلفه نبى مثله .

والنص كما أورده ابن حزم نقلاً عن التوراه هو "فتوفى موسى عبدالله بذلك الموضع فى أرض "موآب" مقابل بيت فغور ولم يعرف آدمى موضع قبره إلى اليوم .. ولم يخلف موسى فى بنى اسرائيل نبى مثله[١] ..." .

وبالطبع رأى ابن حزم أن هذا الكلام لا يمكن أن ينسب لسيدنا موسى ؛ لأنه من المفترض أن يكون موسى عليه السلام قد توفى قبل وقوع هذه الأحداث .

وجاء سبينوزا فوقع على نفس النص الذى وقع عليه ابن حزم ، فنقل عن التوراه "فمات موسى خادم الله ، ولم يقم من بعد نبى كموسى[٢]" وأيضًا نقل "ولم يعرف أحد قبره إلى يومنا هذا[٣]" وذهب سبينوزا مثل ابن حزم إلى أن هذا الكلام لا يمكن أن ينسب لموسى عليه السلام[٤] .

وقد اعتبر أحد الباحثين[٥] أن سبينوزا الإسبانى الأصل ، والهولندى الدار لابد أن يكون قد اطلع على آراء ابن حزم ، الذى نعته بأنه إمام الجدل الدينى ، ويحدد باحث آخر[٦] مصدر تأثير ابن حزم فى سبينوزا عن طريق ابن عزرا الغرناطى ، الذى اعتبره القنطرة التى انتقلت بواسطتها فكر ابن حزم النقدى إلى سبينوزا ، وحركة نقد الكتاب المقدس الحديثة فى الغرب[٧] .

(١) الفصل لابن حزم جـ١ ص ٢٨٤ ، ٢٨٥ .
(٢) رسالة فى اللاهوت والسياسة لسبينوزا ص ٢٦٩ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٦٩ .
(٤) المرجع السابق نفس الصفحة .
(٥) د. أحمد بكير محمود مقال بالنشرة العلمية للكلية الزيتونة للشريعة وأصول الدين السنة الثانية والثالثة عدد ٢ ، ٣ سنة ١٩٧٤م ، ١٩٧٥م .
(٦) د. محمد عبدالله الشرقاوى : فى مقارنة الأديان بحوث ودراسات ص ١١٠ .
(٧) فى مقارنة الأديان ص ١١٠ .

ومما تجدر الإشارة إليه أن كلاً من القرافى (ت ٦٨٤ هـ) والقرطبى تعرضا لنفس النص الذى يتحدث عن وفاة سيدنا موسى وعدم معرفة موضع قبره ، ويصلا إلى نفس نتائج أبى محمد بن حزم من أن هذا الكلام يدل على أنه تاريخ مؤلف ، وليس منزلاً من الله تعالى[١] .

وعن أصالة ابن حزم ، واسبقية نتائجه فى مجال النقد التاريخى للأديان يقول الدكتور زكريا إبراهيم : "وقد كان ابن حزم أسبق من الكثير من علماء الأديان ، ورجال النقد التاريخى إلى دراسة التوراه والإنجيل بروح الفيلسوف المتعمق ، والمؤرخ الفاحص المدقق حتى أننا نجد فى تضاعيف كتبه الكثير من الآراء ، التى سوف يرددها من بعد خصوم المسيحية من أمثال : دافيد شتراوس ، وبرنوباور ، ورينان ، وغيرهم ، وقد يكون من الطريف أن يعمد الباحث إلى القيام بدراسة مقارنة لكتب ابن حزم فى نقد الديانتين اليهودية ، والمسيحية ، وأنصار الفكر الحر من رجالات المدرسة الإنجليزية المعاصرة ، فإنه واجد بلاشك لدى فيلسوفنا العربى الكثير من الآراء المطابقة لما انتهى إليه أولئك المفكرون الأحرار[٢]" .

ويذكر آسين بلاثيوس[٣] أن عزو ابن حزم تحريف النصرانية إلى رجال الدين

---

(١) الأجوبة الفاخرة للقرافى ص ٢٥٦، الأعلام بما فى دين النصارى من الفساد والأوهام م١ ج٢ ص١٨٨ .

(٢) سلسلة أعلام العرب(٥٦) ابن حزم الأندلسى – المفكر الظاهرى الموسوعى الدكتور زكريا إبراهيم – الدار المصرية للتأليف والترجمة مكتبة مصر ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

(٣) آسن بلاسيوس (١٨٧١م / ١٩٩٤م) Asinpalacios ولد فى سرقسطة وتخرج فى معهدها الدينى ونال الدكتوراه من جامعة مدريد ١٩٠٣ ، وألقى خطاب انضمامه إلى مجمع العلوم الأخلاقية ولاسياسية فى مدريد عن ابن مسره ١٩١٢م ، وإلى المجمع اللغوى فى مدريد عن المصادر الإسلامية فى الكوميديا الإلهية لدانتى ١٩١٩م وإلى مجمع التاريخ فى مدريد عن دراسة الفصل لابن حزم ١٩٢٣م . وعين رئيساً للمجمع اللغوى ١٩٤٣ ، وحرر مجلة الأندلس وعين عضواً فى مجامع علمية عديدة كالمجمع العلمى العربى بدمشق ، واشتهر آسين بلاثيوس بدراسته حركة التفاعل الثقافى بين النصرانية والإسلام ، وتخصص فى الفلسفة والتصوف ، وتنوعت آثاره ونكتفى بذكر بعضها : العقيدة والأخلاق ، والتصوف لدى الغزالى ، ومذهب ابن رشد ، ولاهوت توما الأكوينى ، ونشر رسالة القدس لابن عربى ، وصنف كتاباً عن ابن حزم ، ونشر له (الفصل فى الملل والأهواء والنحل) متناً وترجمة إسبانية مع تحليل لأفكاره الدينية فى خمسة أجزاء . ومصنف فى الغزالى والنصرانية فى جزأين وكتب مقارنة بين توما الأكوينى وتورميدا وبسكال ويوحنا الصليبى .

المسيحى يوضح أنه كان يناقش المسيحية بالطريقة التى اتبعها الفولتيريون ، كما أنه حين أشار إلى مسئولية بولس فى تحريف النصرانية كان أول محرك للمدرسة الحديثة الحرة التى ينتمى إليها هارناك وهاش ، وهولتسمان(١) ، فهم يتهمونه أيضاً بأنه أول مشوه لإنجيل عيسى عليه السلام(٢) .

ويشير أحد شباب الباحثين(٣) إلى تميز جهود ابن حزم فى نقض نصوص التوراه عن كنط لاستخدام ابن حزم منهج النقد التاريخى بينما اقتصرت جهود كنط على تحليل المفاهيم والتصورات للنص ، الذى بين أيدينا اليوم ، وهذه التحليلات تظل ناقصة دون الارتكاز على منهج النقد التاريخى .

وكان لكتابات أبى محمد بن حزم أثرها فى مجال التأريخ للعقائد خاصة نقله لعقائد اليهود والنصارى ، التى كانت مصدراً لكثير من أعلام المسلمين الذين تعرضوا للرد على اليهود ، والنصارى ، ويأتى فى مقدمة أعلام المسلمين الذين أفادوا من ابن حزم العلامة ابن خلدون الذى أفاد من جهود ابن حزم التاريخية بوجه عام ، واستدل بنصوصه أكثر من مرة عند تعرضه لتاريخ اليهود(٤) . وكذلك ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) حيث صدَّر تاريخه لفرقة الصدوقية اليهودية بقوله : "قال أبومحمد ابن حزم : والصدوقية طائفة من اليهود نسبوا إلى رجل يقال له صدوق وهم يقولون من بين سائر اليهود أن العزير بن الله وكانوا بجهة اليمن(٥)" .

(١) ثلاثة من النقاد الألمان من أهل القرن التاسع عشر ، وكانوا من البروتستانتيين الأحرار .

(٢) هل أثر ابن حزم فى الفكر المسيحى : د. محمد إبراهيم الكتانى -- مجلة البينه المغربية – السنة الأولى العدد الثانى ذو الحجة ١٣٨١هـ / ١٩٦٠م ص ٧٤ ، ٧٥ .

(٣) د. محمد عثمان الخشت – فلسفة الدين فى ضوء تأويل جديد للنقدية الكنطية – دار غريب للطباعة والنشر سنة ١٩٩٤م ص ١٤٢ .

(٤) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، وهو تاريخ وحيد عصره العلامة عبدالرحمن بن خلدون المغربى – المجلد الثانى القسم الأول – ٣ – دار الكتاب اللبنانى ، ومكتبة المدرسة ١٩٨٣م ص ٤٥ و ١٧٢ و ١٨٢ .

(٥) الجواب الصحيح : ابن تيمية ج٣ ص ١٨٥ ، ١٨٦ .

ونقل كذلك ابن تيمية كلام ابن حزم عن فرق النصارى ، وتأثر كذلك ابن أبى عبيدة الخزرجى بمواطنه ابن حزم الأندلسى ، ونقل عنه بعضًا من ردوده على النصارى ، فحين يذهب ابن حزم إلى أن هناك من الأمم من يرى أن نعيم الآخرة حسى وليس معنويًا كما يدعى النصارى ، فيقول : "... قدماء الهند قد ذكروا فى كلامهم فى الأفلاك والبروج ووجوه المطالع أنه يطلع مع كل وجه من وجوه البروج صورًا وصفوها ، وذكروا أنه ليس فى هذا العالم صورة إلا وهى فى العالم الأعلى . قال أبو محمد : وهذا إيجاب منهم أن هنالك ملابس ومشارب ومطاعم ، ووطءًا وأنهارًا وأشجارًا وغير ذلك(١)" .

وينقل الخزرجى كلام ابن حزم السابق ؛ إذ يقول : "إن قدماء الهند ذكروا فى كتبهم أن فى الأفلاك والبروج ، ووجوه المطالع صورًا وصفوها وذكروا أنه ليس فى العالم الأدنى صورة إلا وهى فى العالم الأعلى ، وهذا إيجاب من تلك الطائفة بأن هنالك ملابس ، وأكلاً ، وشربًا وأنهارًا ، وأشجارًا ، وغير ذلك(٢)" .

ويبين ابن حزم الارتباط العضوى بين النفس والجسد ، فيقول : "إن الله عز وجل خلق أنفسنا ، ورتب جواهرها ، وطباعها الذاتية رتبة لا تستحيل على التذاذ المطاعم، والمشارب ، والروائح الطيبة ، والمناظر الحسنة ، والأصوات المطربة والملابس المعجبة على حسب موافقة كل ذلك لجواهر أنفسنا ... وتلك الأجساد لا كدر فيها ولا دم ولا أذى وتلك النفوس لا رذيلة فيها من غل ولا حسد ولا حرص قال الله عز وجل : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا ﴾ (٣)" .

وينقل ابن أبى عبيدة كلام ابن حزم السابق ؛ حيث يقول : "إن الله خلق أنفسنا

(١) الفصل : ابن حزم جـ٢ ص ٢٦١ .
(٢) المقامع ص ٢٨٢ .
(٣) الفصل جـ٢ ص ٢٥٩ ، ٢٦٠ - سورة الحجر آية ٤٧ .

ورتب جواهرها ، وطبائعها الذاتية ، لا يستحيل معها ألبتة أن تتلذذ بالمطاعم ، والمشارب ، وسائر اللذات على حسب موافقة تلك الجواهر وهى أنفسنا ... وكما أن تلك الأجساد لا كدر فيها ، ولا خلط ، ولا دم ، ولا أذى ، فكذلك تلك النفوس لا رذيلة فيها من غلّ ولا من حسد ولا من حرص ولا غير ذلك من أمراض نفوس هذه الدار الفانية ، كما أخبرا الخالق سبحانه بقوله : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٧) ﴾ (١) " .

وإذا كان ابن أبى عبيدة الخزرجى قد تأثر بابن حزم الأندلسى ، فإن جهود الخزرجى فى الرد على النصارى قد تركت - كذلك - أثراً كبيراً فى حقل الجدل الإسلامى لأهل الكتاب حتى أن معظم ردوده - إن لم تكن كلها - قد نقلها كثير من العلماء الذين تعرضوا للرد على النصارى كالقرطبى ، والقرافى (ت ٦٨٤هـ) مما يدل على أهمية وأثر كتاب الخزرجى فى الرد على النصارى خاصة بين من تعرض للرد على أهل الكتاب من علماء المسلمين .

ويحسن بنا أن نتعرف على العلاقة التأثيرية التى ربطت الخزرجى بهؤلاء العلماء.

٢ - أثر جهود الخزرجى فى حقل الجدل الدينى لأهل الكتاب :

رغم صغر سن ابن أبى عبيدة حين ألف كتابه « مقامع الصلبان » فإن ردوده المتميزة على القس النصرانى قد لفتت أنظار علماء المسلمين ، الذين تعرضوا للرد على اليهود والنصارى فتأثروا بها ونقلوا منها ، وهو ما سنوضحه فيما يلى :

أ) أثر ابن أبى عبيدة الخزرجى فى القرطبى :

مما لا ريب فيه أن القرطبى قد اطلع على رسالة القس ، الذى جادل الخزرجى ، فهو يذكر هذا القس صراحة وينقل كلامه عن الصلب(٢) .

(١) سورة الحجر آية ٤٧ . أنظر المقامع : الخزرجى ص ٢٨١ ، ٢٨٢ .

(٢) الإعلام بما فى دين النصارى من الفساد للقرطبى جـ ٢ ص٢٥٠ ، ٢٥١ .

وقد تأثر القرطبى بالخزرجى فى عدة قضايا رئيسية هى :

- تناقضات الإنجيل .
- إثبات تحريف التوراة وسبق أن أشرنا إلى بعض من النصوص التى نقلها القرطبى من الخزرجى فى هذا المجال .
- إبطال صلب المسيح .
- إظهار حقيقة ما يدعيه النصارى من المعجزات .

وسنقتصر على نماذج لما نقله القرطبى من ابن أبى عبيدة فى ردوده على النصارى:

ففى إثبات الخزرجى تناقضات الإنجيل ذكر نصين متناقضين :

جاء على لسان المسيح عليه السلام أنه قال : « إن كنت أشهد لنفسى فشهادتى غير مقبولة وغيرى يشهد لى»(١) .

ثم فى موضع آخر من الإنجيل قال : « إن كنت أشهد لنفسى فشهادتى حق ؛ لأنى أعلم من أين أتيت ، وإلى أين أذهب»(٢) .

وعلق ابن أبى عبيدة على هذا التناقض الظاهر موجهًا كلامه للقس : « أخبرنى كيف تكون شهادته حقًا ، وباطلاً ، ومقبولة ، وغير مقبولة ؟! وكيف يجمع بين هذين فى كتاب منسوب إلى الله تعالى؟!»(٣) .

ثم يأتى القرطبى ، ويذكر نفس النصين السابقين ، ويكاد ينقل نفس تعليق الخزرجى؛ إذ يقول : « فكيف تكون شهادته حقًا، وباطلاً، ومقبولة، وغير مقبولة؟! وكيف يجمع بين هذين فى كتاب ينسب إلى الله؟!»(٤) .

ويذكر الخزرجى نصين متناقضين منسوبين إلى المسيح أيضًا : أحدهما أنه عليه

---

(١) المقامع ص ١٤٦ يوحنا ٥ : ٣١ . (إن كنت أشهد لنفسى فشاهدتى ليست حقًا)

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة – يوحنا ٨ : ١٤ (وإن كنت أشهد لنفسى فشهادتى حق)

(٣) المصدر السابق نفس الصفحة

(٤) الإعلام للقرطبى جـ ٢ ص ٢٠٦

الصلاة والسلام – حين شعر بوثوب اليهود عليه كما يزعم النصارى قال : « قد جزعت نفسى ، فماذا أقول يا أبتاه ؛ فسلمنى من هذا الوقت ، وإنه حين رفع فى الخشبة صاح صياحًا عظيمًا وقال ... ما ترجمته إلهى إلهى لم أسلمتنى؟»[١] ، وفى نص آخر : « من أحب أن يقفو أثرى فليوهب نفسه»[٢] .

وعلق الخزرجى على هذا التناقض قائلاً : « فحرص على إتلاف النفوس ، فكيف ، يجزع – هو – مما حرص عليه قبل ؟! أم كيف يكون إلهًا وتجزع نفسه ؟! أم كيف يكون ابنًا لله يدعوه أن يخلصه من ذلك الوقت ، فلم يستجب له»[٣] .

ويأتى القرطبى فيقع على نفس هذين النصين وينقل تعليق الخزرجى عليهما ؛ إذ يقول : « فحرص على إتلاف النفوس ، فكيف يجزع مما يحرض عليه قبل ؟! أم كيف يكون إلهًا وتجزع نفسه ؟ أم كيف يكون ابن الله ؟ ثم يدعوه أن يخلص نفسه فى ذلك الوقت فلم يستجب له»[٤] .

وتأثر القرطبى بإبطال الخزرجى لأكذوبة صلب المسيح ، فيرى الخزرجى أن موقف المسيح من يهوذا كما تذكر الأناجيل يدل على أنه لم يخن المسيح، فيقول الخزرجى متحدثًا عن يهوذا : « ويحتمل أن يكون قد كذب فى قوله لليهود ويدل على وقوع ذلك منه ، ظهور الندم منه بعد ذلك وقول المسيح عليه السلام : يا صديق ويا صاحب لم أقبلت ؟ ولو كان مصرًا على الفساد ما سماه صديقًا»[٥] .

ويتخذ القرطبى نفس موقف الخزرجى السابق فينقل عنه قائلاً : « ... فيحتمل أن يكون يهوذا إنما أشار إلى غيره ؛ لأنه كان ندم على بيعه ، كما تقدم نصه فى كتبكم

---

(١) المقامع ص١٤٧ ، وجاء فى إنجيل متى ٢٧ : ٤٦ (ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلاً إيلى إيلى لما شبقتنى أى إلهى إلهى لماذا تركتنى) .

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة

(٣) المصدر السابق نفس الصفحة

(٤) الإعلام للقرطبى – جـ٢ – ص ٢٠٧

(٥) المقامع ص ١٦٨

ويدل على أنه تاب من ذلك ، وندم عليه وحسنت توبته قول عيسى له فيما زعمتم حين سلم عليه : يا صديق لم أقبلت ؟ ولو كان مصراً على الدل عليه وعلى ما كان همَّ به ، لما كان يحل لعيسى أن يقول له : يا صديق ...»[١] .

ويذهب الخزرجى إلى أنه ما شهد به المسيح للتلاميذ الاثنى عشر بالفساد يجعل موقف النصارى من يهوذا لا يخرج عن ثلاثة أمور لازمة لهم : « إما أن يكون يهوذا لم يدل عليه أو يكون المسيح عليه السلام ما نطق بالصدق، أو يكون كتابكم قد تحرف وتبدل ، فاختاروا لكم واحدة من هذه الثلاث»[٢] .

ويذهب القرطبى إلى أن قول عيسى عليه السلام كما يزعم النصارى ليهوذا يا صديق يجعل النصارى بين ثلاثة أمور : « إما أن يكون يهوذا تاب ... أو يكون عيسى كاذباً فيما قاله ؛ حيث أخبر أنه صديق وعيسى عليه السلام منزه عن الكذب، أو يكون كتابكم باطلاً ومحرفاً فاختاروا من هذه الثلاث واحدة»[٣] .

أما عن المعجزات التى يدعيها النصارى والتى أثارت سخرية ابن أبى عبيدة وكشف بها فضائحهم ، فقد نقل القرطبى - كذلك - عنه فى هذا المجال : يقص ابن أبى عبيدة إحدى طرائف هذه المعجزات الخادعة قائلاً : « حكى لى من أثق بصدقه وقريحته ، أن رجلاً من اليهود كان قد حظى عند أحد رؤسائكم بالأندلس بوصلة كانت بينهما ، يرعاها الرئيس له ، فكان قد رغبه فى الخروج عن دين اليهودية إلى دينه. وقال له : ألا ترى هذه الأعجوبة ظهور يد الله لنا فى يوم معلوم من السنة؟.

فقال له اليهودى : يا مولاى أنا قد رضيت فى هذا الأمر بشهادتك، وصدقتك فيما سوف تروى لى ، فأبحث عنه فإن كان ما يزعم هؤلاء القسيسون حقًا صبوت إلى دينك .

(١) الإعلام للقرطبى - جـ ٤ - ص ٤١٤
(٢) المقامع ص ١٦٨
(٣) الإعلام : القرطبى - جـ ٤ - ص ٤١٤

فخالط الرئيس حينئذ الشك فلما دنا ذلك اليوم الذى تظهر فيه اليد سافر بحملته نحو المشهد وأخذ معه مالاً يهديه هناك ، فبرز إليه الأساقفة ، وقربوه لتقبيل اليد ، فلما ظهرت اليد له من وراء الستر وضع يده فيها ومسكها مسكًا شديدًا وقال : والله لا أترك هذه حتى أوى يد صاحبها .

فصاحوا يقولون : اتق الله ! الآن تخسف بك الأرض . الآن تقع عليك السماء الآن ترسل عليك الصواعق .

فقال : دعوا عنكم هذا كله فإن هذه اليد لا أحل يدى عنها ، حتى أعلم أحقًا ما تصفون أم باطلاً ! فلما رأوا إلحاحه لم يبق معه منهم إلا اثنان أسرًّا إليه القول وقالا: ما تبغى فى ذلك أرجعت عن دين آبائك .

قال : لا .

قالوا : أتريد أن تحل ربطًا ربط منذ ألف سنة أو نحوها .

قال : لا ، ومعاذ الله !! ولكنى أحب الوقوف على سر هذه اليد .

قالوا : هى يد أسقف واقف دون هذا الستر .

قال : أحب أن أراه .

قالوا : أنت وذاك فكشفوا عن قس مجرود الخدين واقف وراء الستر ، فلما عاينه الرئيس أرسل يده وخرج إلى عسكره .

فقال اليهودى : يا مولاى ما تأمرنى به فى دينى .

فقال له : أنت ورأيك خرجت منه أو بقيت عليه ، فأنت المخير .

ففهم اليهودى وسكت ومن ذلك الوقت بطلت هذه الحيلة»(١) .

وينقل القرطبى كلام الخزرجى عن هذه الخدعة مقتبسًا نص الخزرجى دون مراعاة منهجية التأليف ، إذ يبدو أنه كان يضع كلام الخزرجى كما هو فى مؤلفه الإعلام فيقول :

---

(١) المقامع للخزرجى ص٢٦٨ ، ٢٦٩

« وقد حكى لنا من يوثق بحديثه أن رجلاً من اليهود كان قد حظى عند أحد رؤسائكم بوصلة كانت بينهما ، فرام الرئيس أن يخرج اليهودى عن دينه ويدخله فى دين النصرانية وقال له : ألا ترى هذه الأعجوبة ؟ ظهور يد الله المسيح لنا فى يوم معلوم من السنة ؟ فقال له اليهودى : أنا قد رضيت من هذا الأمر بشهادتك ... » (١) .

ويستمر القرطبى فى النقل عن الخزرجى وكما أشرنا أنه حين ينقل من الخزرجى لا يتصرف فى النص المنقول ؛ ليتناسب مع ما يدل على أن القرطبى سينقل من غيره.

بعد أن بينا بعض أوجه تأثر القرطبى بالخزرجى نحاول أن نتعرف على تأثير ابن أبى عبيدة الخزرجى فى عالم آخر هو شهاب الدين بن إدريس القرافى (ت ٦٨٤هـ).

ب) أثر ابن أبى عبيدة الخزرجى فى القرافى :

إن تأثر القرافى (ت ٦٨٤هـ) بالخزرجى (ت ٥٨٢هـ) يلقى الضوء على طبيعة القضايا المثارة فى الجدل الدينى بين الأندلس والمشرق العربى ، وتشابه هذه القضايا فى كل منهما وكذلك العلاقات الثقافية التى كانت قائمة بين الأندلس والمشرق الإسلامى ، وإذا كان الخزرجى عاش فى القرن السادس الهجرى ، بينما عاش القرافى فى القرن السابع الهجرى فإن الدراسة المقارنة بينهما تلقى ضوءاً أيضًا على تطور الفكر الجدلى بين الإسلام والنصرانية عبر التاريخ .

وقد تأثر القرافى بالخزرجى فى حكم الأخير على هذه الأناجيل الموجودة بين يدى النصارى ، حيث يقول الخزرجى للقس : « ومن طالع كتبكم ، وأناجيلكم وجد فيها من العجائب ما يقضى له بأن شرائعكم ، وأحكامكم ونقولكم قد تفرقت تفرق أيدى سبأ ، وأنكم لا تلزمون مذهبًا ، وليس هذا بغريب ، فأناجيلكم ما هى إلا حكايات ، وتواريخ ، وكلام كهنة ، وتلاميذ ، وغيرهم . حتى أنى أحلف بالذى لا إله إلا هو أن تاريخ الطبرى عندنا أصح نقلاً من الإنجيل ، ويعتمد عليه العاقل أكثر ، مع أن

---

(١) الإعلام : القرطبى جـ ٣ ص ٣٨٤

التاريخ عندنا لا يجوز أن ينبنى عليه شىء من أمور الدين ، وإنما هو فكاهات فى المجالس ... » [1] .

ويأتى القرافى بعد قرابة قرن من الزمان؛ ليردد نفس الكلام تقريبًا قائلاً : « ومن طالع كتبهم وأناجيلهم وجد فيها من العجائب ما يقضى له بأن القوم تفرقت شرائعهم وأحكامهم ونقولهم تفرق أيدى سبأ ، وأن القوم لا يلتزمون مذهبًا والعجب أن أناجيلهم حكايات وتواريخ وكلام كفرة وكهنة وتلاميذ وغيرهم حتى أنى أحلف بالله الذى لا إله إلا هو أن تاريخ الطبرى عند المسلمين أصح نقلاً من الإنجيل ويعتمد العاقل عليه أكثر مع أن التاريخ لا يجوز أن يبنى عليه شىء من أمور الدين ، وإنما هو حكايات فى المجالس .. » [2] .

ويمكن أن نلخص أهم القضايا التى تأثر بها القرافى من الخزرجى فى أربع قضايا رئيسة هى :

- الصلب .
- كشف خدع النصارى .
- كيفية انتشار الإسلام .
- البشارة بمحمد عليه الصلاة والسلام .

ونكتفى بذكر نماذج مختصرة لما نقله القرافى من الخزرجى عند معالجة هذه القضايا:

الصلب :

افترض الخزرجى أن القس الذى يرد عليه قد يعترض على ما يذهب إليه المسلمون من أن المصلوب قد يكون شبهًا لعيسى عليه السلام ؛ لأن هذا القول قد يفضى إلى السفسطة والشك فى الحقائق[3] .

(١) المقامع للخزرجى ص ١٥٧ ، ١٥٨

(٢) الأجوبة الفاخرة : القرافى ص ١٢١ ، ١٢٢

(٣) المقامع : الخزرجى ص ١٦٤

ورد الخزرجى على هذا الاعتراض قائلاً : « إن قولك هذا تهويل ليس عليه تعويل؛ لأن البراهين القاطعة ، والأدلة الساطعة قائمة على أن الله خلق الإنسان ، وجملة أجزاء العالم ، وأن حكم الشىء حكم مثله ، فما من شىء خلقه الله تعالى فى العالم إلا وهو قادر على خلق مثله ... فجميع صفات جسد عيسى – عليه السلام – لها أمثال فى حيز الإمكان فى العدم ، يمكن خلقها فى محل آخر غير جسد عسى – عليه السلام – فيحصل الشبه قطعًا ، والقول بالشبه قول بأمر ممكن لا بما هو خلاف الضرورة ، ويؤيد ذلك أن التوراة مصرحة بأن الله تعالى خلق جميع ما للحية فى عصاة موسى عليه السلام ، وهو أعظم من الشبه فإن جعل حيوان يشبه حيوانًا أقرب من جعل نبات يشبه حيوانًا ، وقلب العصا حية تسعى مما أجمع عليه اليهود والنصارى، كما أجمعوا على جعل النار لإبراهيم عليه السلام بردًا وسلامًا وعلى قلب الماء خمراً ، فإذا جوزتم مثل هذا جوزتم أيضًا إلقاء الشبه من غير استحالة»(١) .

ويكرر القرافى نفس كلام الخزرجى ؛ إذ يقول : « أن هذا تهويل ليس عليه تعويل بل البراهين القاطعة ، والأدلة الساطعة قائمة على أن الله تعالى خلق الإنسان ، وجملة أجزاء العالم وأن حكم الشىء حكم مثله ... »(٢) .

كشف خدع النصارى :

يعلل الخزرجى سبب ادعاء النصارى ظهور المعجزات فى كنائسهم بقوله للقس : «إن حذاقكم ، وعقلاءكم لما علموا أن دينهم ليست له قاعدة يبنى عليها ، ولا أصل يرجع إليه جمعوا عقول العامة بتخيلات موهمة ، وأباطيل مزخرفة وضعوها فى الكنائس والمزارات»(٣) .

---

(١) المقامع : الخزرجى ص ١٦٥ : ١٦٦

(٢) الأجوبة الفاخرة : القرافى ص ١٩٠ ، ١٩١

(٣) المقامع : الخزرجى ص ٢٦٧

وينقل القرافى نفس تعليل الخزرجى السابق ، فيقول : « ولما علم حذاقهم أن دينهم ليس له قاعدة تبنى عليه ولا أصل يرجع إليه جمعوا عقول العامة بتخييلات موهمة وأباطيل مزخرفة وضعوها فى الكنائس والمزارات»[(١)] .

ويستمر القرافى فى نقل تفنيد وكشف الخزرجى لحقيقة هذه الألاعيب ، فمثلاً يقول ابن أبى عبيدة عن النصارى : « إنهم وضعوا صورًا من الحجارة ، إذا قرئ الإنجيل عندها تبكى ، وتجرى دموعها يشاهدها الخاص والعام ، فيعتقدون أن ذلك لما علمته من أمر الإنجيل»[(٢)] .

ويكشف الخزرجى هذه الخدعة فيقول عن هذه التماثيل : « وحقيقة الأمر أن لها مجارى دقاق فى أجوافها متصلة من ورائها بزق مملوء ماء يعصره بعض الشمامسة، فيندفع الماء فى تلك المجارى وتخرج من عيون تلك الأصنام على هيئة دموع[(٣)]» .

ويكرر القرافى كلام الخزرجى السابق ، فيقول عن النصارى أيضًا : « إنهم وضعوا صورًا من الحجارة إذا قرئ أمامها الإنجيل تبكى ...[(٤)] » .

ويكشف القرافى هذه الخدعة بقوله عن هذه الأصنام : « ويكون لها مجارى رقاق فى أجوافها من ورائها متصلة بزق ممتلئة من الماء ، يعصره الشمامسة فيفر الماء فى المجارى ويتصل بعيون الأصنام»[(٥)] .

---

(١) الأجوبة الفاخرة : القرافى ص ٦١

(٢) المقامع : الخزرجى ص ٢٦٩

(٣) المصدر السابق نفس الصفحة

(٤) الأجوبة الفاخرة : القرافى ص ٦١ ، ٦٢

(٥) المصدر السابق ص ٦٣ . ومما هو جدير بالذكر أن هذه الرواية أرجعت ذاكرتى إلى مرحلة الطفولة ، حيث كان فى بلدتى (جرجا بمحافظة سوهاج) منزل لعائلة نصرانية تقوم بنفس الخدعة، فأشيع بين الناس أن صورة يدعى النصارى أنها للعذراء مريم موجودة فى هذا البيت ، وهى تبكى وينزل من عيونها زيت .

انتشار الإسلام :

عند معالجة القرافى (ت ٦٨٤هـ) لقضية كيفية انتشار الإسلام تأثر بأفكار الخزرجى فى هذا المجال وتوسع فى النقل عنه ، فيصف ابن أبى عبيدة حال النصارى، الذى يخالف الإنجيل ؛ لأنه يطالب بالبعد عن القتال ، فيقول : « فإنا نراكم أشد الناس تكالبا ، وحرصًا على القتل والقتال ، وبسط الأيدى بالاعتساف فى أقطار الأرض ، تقتلون النفوس وتسلبون الأموال ، وتعتقدون أن ذلك من أوثق أسباب السعادات ، وأعظم المقربات إلى الله تعالى ...[1] » .

ويبين الخزرجى للقس كيفية انتشار النصرانية قائلاً : « ولكنكم أقمتم دينكم برفض معالمه ونصرتموه بمحو آثاره ، والتزمتم القتل والقتال ، فعصيتم فى الأول ، وما زتلم إلى ا لآن على خلاف ما أمركم به إنجيلكم تعملون»[2] .

ويكرر القرافى نفس الكلام السابق ، فيصف أحوال النصارى قائلاً : « ومع ذلك فهم من أشد الناس تكالبًا ، وحرصًا على القتال والقتل ، وبسط الأيدى بالأذى فى أقطار الأرض بسلب النفوس ، والأموال مستبيحين لذلك . يعتقدونه من أعظم القربات، وأوثق السعادات...»[3] .

ويقول القرافى عن انتشار النصرانية : « ... لكن أقاموا دينهم برفض معالمه وبضرورة محو آثاره والتزموا القتل والعسف ... »[4] .

واستمر القرافى فى النقل عن الخزرجى فأشار كلاهما إلى أن الأنبياء السابقين للإسلام أضطروا إلى القتال ، وأن هذه سنة الله فى أرضه والمسلمون على تلك السنة سائرون فهذا من مناقب الإسلام(٥) .

---

(١) المقامع ص ٢٨٦ ، ٢٨٧

(٢) المصدر السابق ص ٢٨٥

(٣) الأجوبة الفاخرة : للقرافى ص ٢٦٤

(٤) الأجوبة الفاخرة للقرافى ص ٢٦٥

(٥) قارن المقامع ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ - الأجوبة الفاخرة ص ٢٦٧

البشارة بمحمد ﷺ :

يكاد يكون القرافى نقل معظم البشارات التى ذكرها الخزرجي من كتب اليهود والنصارى المقدسة لديهم ؛ مثل ما ورد من قول الله لموسى عليه السلام : « إنى أقيم لبنى إسرائيل من إخوتهم نبيًا مثلك أجعل كلامى على فيه، فمن عصاه انتقمت منه » (١) .

بقى أن نشير إلى أن هناك تشابهًا فى بعض النصوص المذكورة فى كتابات الخزرجي وابن قيم الجوزية ولا نستطيع أن نثبت علاقة تأثير بينهما ، فقد يكون كلاهما نقل من مصدر واحد ، أو حتى مصدرين مختلفين ؛ حيث يذكر كلاهما كلامًا لأفلاطون – رئيس سدنة الهياكل بمصر – وهو غير أفلاطون الفيلسوف المشهور – ينعى فيه أحد العلماء غلو النصارى فى المسيح عليه السلام بينما كان أجدر بهم أن يعبدوا الله تعالى ويعظموه ؛ لأنهم بعبادتهم للمسيح يكونون كمن مدح القلم ، بما ينبغى أن يمدح به الكاتب لأن حركة القلم بالكاتب .

وهكذا نجد أن جهود علماء الأندلس لعبت دورًا عظيمًا فى حقل مقارنة الأديان وانتقلت هذه الجهود إلى الشرق ، والغرب ؛ لتعبر عن أصالتها ، وابتكارها ، ورغم هذا فإن جهودهم كأى عمل بشرى تعرضت للنقد، وهو ما سنحاول دراسته فيما يلى :

ثالثًا : تحليل للدراسات النقدية لجهود ابن حزم والخزرجى الجدلية

يمكن أن نقسم دراسات الباحثين إذا تعرضوا لدراسة الأعمال العلمية للعلماء إلى ثلاث طوائف رئيسية :

١ – طائفة وهى الأكثر تذوب فى الشخصية المدروسة ، فيتقبلون كل ما تأتى به هذه الشخصية بلا تمحيص ، ويكثرون من الثناء عليها ، وإصدار الأحكام

---

(١) قارن المقامع ص ٢١٤ – الأجوبة الفاخرة ص ٤٢٠ النص فى سفر التثنية ١٨ : ١٨ « أقيم لهم نبيًا من وسط إخوتهم مثلك ، وأجعل كلامى فى فمه ، فيكلمهم بكل ما أوصيه به »

التعميمية ، التى تضفى على العلم المدروس الأصالة ، والأسبقية ، وأنه أتى بما لم يأت به الأوائل .

٢ - طائفة ثانية تقف على النقيض من الطائفة السابقة ؛ حيث يعتقدون أنهم لكى يثبتوا ذاتيتهم المستقلة ، فعليهم أن ينقدوا الشخصية المدروسة ربما فى أغلب ما تأتى به بلا تريث ، أو تدقيق ، أو حتى امتلاك لأدوات البحث العلمى، التى تمكنهم لمثل هذا النقد ، وعلى رأسها فهم اللغة العربية وأسرارها .

٣ - أما الطائفة الثالثة من الباحثين - ومما يؤسف له أنها قليلة نسبيًا - فهى التى تتميز بنفس طويل فى البحث العلمى ، وقراءة متأنية ومن ثمَّ فإن دراساتها تتسم بالموضوعية والتجرد من الهوى فتصدر أحكامها بدقة وتنقد بموضوعية إذا كان ثمة مجال للنقد .

وقد تعرض ابن حزم ، وابن أبى عبيدة الخزرجى لنقد إحدى الباحثات(١) ، فتستدرك الباحثة على بعض أحكام ابن حزم التنزيهية لله تعالى كنفيه أن يكون الله تعالى محدودًا أو مركبًا ، فتقول : « ولكن لى مأخذ على ابن حزم فى قوله إن كل ما كان محدودًا فهو مركب ؛ لأن هناك فرقًا بين التركيب المادى والتركيب الذهنى، فليس كل محدود مركبًا تركيبًا ماديًا ؛ حيث إن الجنس والفصل تركيب ذهنى معنوى وليس ماديًا ، فنحن نقول مثلاً فى تعريف واجب الوجود : « هو الموجود الذى وجوده من ذاته ، فيشتمل على الجنس ، والفصل . ومع ذلك فليس فيه تركيب مادى»(٢) .

وما تنفيه الباحثة من أنه ليس كل محدود مركبًا تركيبًا ماديًا لم يقل به ابن حزم، كما لم يكن غائبًا عنه ، والحق أن ابن حزم ينفى أن يكون الله محدودًا ، أو مركبًا تركيبًا ماديًا ، أو ذهنيًا معنويًا .

(١) د. عزة محمد حسن : نقد المسلمين لأهل الكتاب فى العقيدة فى ضوء القرآن الكريم ، والسنة المشرفة - رسالة دكتوراه بكلية البنات الإسلامية - جامعة الأزهر سنة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م

(٢) المرجع السابق ص ١٦١

وما تراه الباحثة من أن وجود الله يشتمل على الجنس والفصل غير صحيح ؛ لأن وجود الله تعالى هو عين ذاته ، فالله سبحانه ليس كمثله شيء فإذا كانت المخلوقات تتكون من جنس وفصل فالله ليس على شاكلتها .

ويرى ابن حزم أن كل ما وقع تحت الجنس والنوع فهو محدود[1] ، فيقول عن الله تعالى : « موجود ، وحق ، ومثبت ، فإذا أوقعته تحت الأجناس، فقد جعلته محدوداً ضرورة إذ كل ما وقع تحت الأجناس فمحدود تعالى الله عن ذلك»[2] .

وتستمر الباحثة في الفهم الخاطئ ، أو التأويل غير الصحيح لكلام أبي محمد بن حزم ومن ثم النقد غير الموضوعي لآرائه ، فتستدرك على رده على النصارى في عقيدة التثليث ومحاولته البرهنة عليها من أنهم جعلوا البارى تعالى ثلاثة : معللين ذلك بأنهم رأوا الثلاثة تجمع الزوج والفرد ، وهذا أكمل الأعداد فوجب أن يكون البارى تعالى كذلك ؛ لأنه في غاية الكمال[3] .

وقد اعترض ابن حزم على رأيهم هذا بعدة أدلة من أهمها أن الله تعالى لا يصح أن يوصف بالكمال والتمام ؛ لأنهما من باب الإضافة ومن ثم لا يقعان إلا فيما فيه النقص وهو ما ينزه ابن حزم الله تعالى عنه[4] .

وتعترض الباحثة على كلام ابن حزم السابق عن التثليث قائلة : « ولي مأخذ على ابن حزم ... فمما لا شك فيه أن الله تعالى يوصف بالكمال نعم هو لا يوصف بالتمام ؛ لأن التمام يقتضي أنه كان هناك نقص ثم تم ؛ لكنه يوصف بالكمال ؛ لأن كماله من ذاته فلا يقتضي أنه تكمَّل بعد نقص»[5] .

(١) الأصول والفروع : ابن حزم ص ٢٨٤
(٢) التقريب لحد المنطق : ابن حزم ص ٢٥
(٣) الفصل ابن حزم جـ ١ ص ١١٥
(٤) المصدر السابق نفس الصفحة
(٥) نقد المسلمين : د. عزة محمد حسن ص ٢٦٢

ولست فى حاجة إلى تكرار أن الباحثة تحَمِّل ابن حزم ما لم يقله ، فلم تفرق بين الكمال بالإضافة والكمال المطلق ، فالذى ينفيه ابن حزم عن الله تعالى هو الكمال بالإضافة وليس الكمال المطلق ، فحين يقيس النصارى صفاته تعالى على أنواع الأعداد ، فإنهم يتحدثون عن الكمال بالإضافة الذى ينكره ابن حزم بالنسبة لله تعالى وهناك نص أبى محمد حتى يتضح صدق كلامنا : « إن البارى تعالى لا يوصف بكمال ولا تمام ؛ لأن الكمال والتمام من باب الإضافة ؛ لأن التمام والكمال لا يقعان ألبتة إلا فيما فيه النقص ؛ لأن معناهما إنما هو إضافة شىء إلى شىء به كملت صفاته ولولاه لكان ناقصاً »(١) .

كما نقدت الباحثة ابن أبى عبيدة الخزرجى حين رأى أن ذهاب اليهود مع يهوذا الإسخريوطى للقبض على المسيح - كما يزعم النصارى - يدل على أن اليهود لم تكن تعرفه وتذهب الباحثة إلى أن الذين ذهبوا للقبض على عيسى عليه السلام - كما يدعى النصارى - ليسوا اليهود بل جنود الرومان والشرطة ، ومن ثم من الجائز جداً ألا يكونوا يعرفونه(٢) .

وفيما أرى أن الباحثة قد خانها التوفيق ، نظراً لتضارب الروايات المتناقضة حول رواية الصلب المزعومة ، فقد يكون الخزرجى رجع إلى مصدر لم تقع عليه الباحثة يذكر أن اليهود قد ذهبوا للقبض على المسيح .

ونجد فى إنجيل متى أن الذين ذهبوا للقبض على المسيح - عليه السلام - جمع كثير من يهوذا الإسخريوطى ومن غير المستبعد بل من الأقرب أن يكون هذا الجمع الكثير فيه يهود فور فى إنجيل متى « وفيما هو يتكلم إذا يهوذا أحد الاثنى عشر قد جاء ومعه جمع كثير بسيوف وعصى من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب »(٣) .

---

(١) الفصل : ابن حزم ج١ ص ١١٥

(٢) نقد المسلمين لأهل الكتاب د. عزة محمد حسن ١٩٧

(٣) متى صح ٢٦ عدد ٤٧

كما أن ابن أبى عبيدة لا ينكر وجود أعوان يتهمهم بأنهم قد يكونوا قبلوا رشوة للادعاء أن المسيح صلب ، وهذا غير مستبعد خاصة أن يهوذا وهو حوارى قبل رشوة ليدل على المسيح[١] .

وتحمل الباحثة الخزرجى مواقف وآراء لم يقطع بها ، فقد رأى الخزرجى أنه من المحتمل أن يكون يهوذا قد أدركته الندامة ، فلم يدل على المسيح ، وإنما دل على غيره من التلاميذ فسارع من أشار إليه ففدى المسيح عليه السلام[٢] .

وتعقب الباحثة قائلة : « ولكنى أعقب على أبى عبيدة فأقول : إن دليله هذا ظنى ، وليس قطعى ، فكون يهوذا قد ندم قبل تسليمه المسيح ، وأعطى الأمارة على شخص آخر هو ظن واحتمال من أبى عبيدة ليس له دليل عليه»[٣] .

وأنا بدورى أعقب على الباحثة وأتساءل : وهل قال الخزرجى إن دليله هذا قطعى؟! .

إنه يقول بالنص عن شهادة يهوذا : « ويحتمل أن يكون قد كذب فى قوله لليهود ويدل وقوع ذلك منه ظهور الندم منه بعد ذلك»[٤] .

ويقول أيضًا : « والدليل على قيام هذا الاحتمال أنه فى نص الإنجيل الذى بأيديكم أن يهوذا الإسخريوطى أدركته الندامة حينئذ ، وأعادلهم الثلاثين درهمًا »[٥] .

فها هو الخزرجى يصرح أن دليله احتمالى وليس قطعى، ومن جانبى أرى أن دليل الخزرجى وارد ، وليس عليه غبار ؛ لأن ظهور الندم على يهوذا قد يكون قبل تسليم شبيه المسيح عيسى عليه السلام هذا إن كان هناك من قبض عليه بالفعل كما أن الندم قد يكون حصل بعد القبض على شبيه المسيح كما تظن الباحثة[٦] .

---

(١) نقد المسلمين د. عزة محمد حسن ص ١٦٩

(٢) المقامع : الخزرجى ص ١٦١

(٣) نقد المسلمين : د. عزة محمد حسن ص ١٩٥

(٤) المقامع : الخزرجى ص ١٦٨

(٥) المصدر السابق ص ١٦١

(٦) نقد المسلمين لأهل الكتاب د. عزة محمد حسن ص ١٩٥

وننتقل إلى باحث آخر(١) قارن بين كتابى « الفصل فى الملل والأهواء والنحل» لابن حزم وكتاب «الملل والنحل» للشهرستانى .

ويذهب الباحث إلى أن منهج التفنيد والدحض الذى اتبعه ابن حزم أفضل من الاقتصار على التوضيح ، والتقرير(٢) الموجود فى « الملل والنحل» للشهرستانى .

بداية أرى أن المقارنة بين الكتابين فى غير موضوعها لاختلاف الغاية ، والهدف ومن ثم المنهج بين الكتابين ، فكتاب ابن حزم كما يتضح من عنوانه ، ومادته أنه نقد للعقائد الفاسدة ، وبيان العقيدة الصحيحة المتمثلة فى الإسلام ، ومن ثم يصنف كتاب « الفصل فى الملل والأهواء ، والنحل » فى علم تاريخ الجدل الدينى . أما كتاب الشهرستانى فيصنف ضمن علم « الفرق » أو « الملل والنحل » ولم يستخدم الشهرستانى فى كتابه منهج التقرير بل كان يسوق العقائد الضالة فى صيغة الاستنكار ، وأحيانًا ينقض بعض هذه العقائد .

وحين رأى ابن حزم أنه من الحمق والكذب العظيم أن يكون لله أولاد ينكحون بنات آدم فهى مصاهرة تعالى الله عنها(٣) ، فإن الباحث قد رفض رأى ابن حزم ورأى أنه أخذ عبارة أولاد الله على ظاهرها، وذهب الباحث إلى تفسير أولاد الله مجازيًا بأبناء شيث .

والذى نراه أن نقد ابن حزم السابق فى موضعه ؛ لأن العبارات التى فى النصوص السابقة فيها مقابلة بين أولاد الله وبنات آدم(٤) ، ومثل هذه المقابلة تمنع

(١) د. محمود على صحابة « ابن حزم ومنهجه فى دراسة الأديان» دار المعارف ط١ سنة ١٩٨٣ ص ١٤٧:١٤٩

(٢) لفظة التقرير قد يفهم منها الموافقة والتأييد ، وفيما أظن أن هذا غير مقصود من عبارة الدكتور حماية فى وصف منهج الشهرستانى

(٣) الفصل : ابن حزم جـ ١ ص ٢٠٩

(٤) ورد بسفر التكوين صح ٦ عدد ٢ (أن أبناء الله رأو بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا)

التأويل والمجاز ، فلو كانت العبارات ورد فيها أن أولاد الله تزوجوا بنات الله لكان من الممكن قبول التخريج المجازى ويؤكد منع هذا التخريج المجازى تكرار المقابلة بين أولاد الله وبنات آدم .

أما ما يوافق عليه الباحث من قبول تفسير أبناء الله بأبناء شيث ، فمثل هذه التفاسير لم تكن غائبة عن ابن حزم ، فذكر أن بعض أسلاف اليهود قالوا إن المقصود من مثل هذه النصوص « الملائكة » واعتبر كلامهم كذبًا[١] مما يدل على أن النص فى نظر ابن حزم يمنع المجاز وهذا صحيح .

ولا يوافق الباحث - كذلك - ابن حزم فى رفضه واستنكاره لرواية التوراة التى تذكر أن سارة زوجة إبراهيم - عليه السلام - قد فتنت ملك الخلص وهى قد جاوزت التسعين عامًا[٢] .

ويعتبر الباحث كعادته فى نقد ابن حزم أنه يأخذ الأمور على ظواهرها وأن زمن إبراهيم عليه السلام - كان يعتبر هذا العمر - يعنى تجاوز التسعين عامًا - شبابًا[٣] .

والحقيقة أن هذا السن كان يعتبر سن شيخوخة وليس شبابًا كما ذهب الباحث بدليل أن سارة كانت عاقرًا حين ولدت إسحاق ، والنص هو مصدر التفسير عند ابن حزم ؛ إذ ورد : « وذكر أن ملك الخلص أخذها بعد أن ودت إسحاق وهى عجوز منه بإقرارها بلسانها إذ بشرت بإسحاق فكيف بعد أن ولدته ، وقد جاوزت تسعين عامًا ، ومن المحال أن تكون فى هذه السن تفتن ملكًا »[٤] .

(١) الفصل : ابن حزم جـ ١ ص ٢٠٩
(٢) المصدر السابق ج١ ص ٢٢٥
(٣) ابن حزم ومنهجه فى دراسة الأديان ص ١٨١ ، ١٨٢
(٤) الفصل جـ ١ ص ٢٢٥

ولو كانت التسعين عامًا، بل تجاوزها سن الشباب لما كان هناك إعجاز فى ولادة إسحاق عليه السلام .

أما ما يراه الباحث أنه قد يكون ملك الخلص عشق سارة على حد قول الشاعر :

تعشقها شَمْطَاء شَابَ وليدُها ... وللناسِ فيما يَعْشَقُونَ مَذاهِبِ(١)

فمن المعروف لدى دارسى البلاغة العربية، والشعر العربى أن أعذب الشعر أكذبه وابن حزم نفسه يؤكد هذا المعنى فنقل عن بعض الحكماء قولهم : « كل شيء يزينه الصدق إلا الساعى والشاعر فإن الصدق يشينهما »(٢) .

وننتقل إلى باحث غربى يدعى فيرناندو دى لاجرانخا(٣) قام بدراسة روايات الخزرجى لمعجزات إدعاها النصارى لكنائسهم وقديسيهم وغالبًا ما ينتهى من تلك الدراسة إلى محاولة إتهام من نقل عنهم الخزرجى بتلفيق هذه المعجزة، أو جعل الخزرجى نفسه هو المسئول عن اختلاق هذه المعجزات .

والحق أن المتتبع لتاريخ النصرانية يسهل عليه أن يصل إلى نتيجة مؤداها أن المسيحية هى ديانة المعجزات ، فالقديسون يقومون بمعجزات لا حصر لها ، وتفوق ماتنسبه الأناجيل للمسيح نفسه ، والسبب فى هذا يفسره الخزرجى للقسيس الذى كان يرد عليه قائلاً : « إن حذاقكم ، وعقلاءكم لما علموا أن دينهم ليست له قاعدة

---

(١) ابن حزم ومنهجه فى دراسة الأديان : د. محمود حماية ص ١٨٢

(٢) التقريب (كتاب الشعر) : ابن حزم ص٢٠٦

(٣) فيرناندو دى لاجرانخا أستاذ كرسى اللغة العبرية وآدابها فى كلية الآداب والفلسفة بجامعة مدريد المركزية، وعمل مديرًا لمدرسة الدراسات العربية فى مدريد ، ورئيسًا لتحرير مجلة الأندلس، ووقف الأستاذ جرانخا حياته على دراسة الفكر الأندلسى تاريخًا، وأدبًا، وبخاصة الجانب النثرى من هذا الأدب، وهو تلميذ المستشرق غرثيه غمث، وللأستاذ جرانخا بحوث عميقة فى ميدان الأندلسيات، وفى تحقيق التراث ، ومن منتجاته العلمية « مقامات ورسائل أندلسية – نصوص ودراسات » وقام بترجمتها أستاذنا الدكتور عبد اللطيف عبد الحليم أستاذ الأدب بدار العلوم جامعة القاهرة – نشر دار الثقافة العربية بالقاهرة ١٩٨٥م

ينبنى عليها ، ولا أصل يرجع إليه جمعوا العامة بتخيلات موهمة ، وأباطيل مزخرفة وضعوها فى الكنائس والمزارات[١] » .

ومن المعجزات التى يرويها الخزرجى ما سبق أن أشرنا إليه من ظهور اليد الإلهية فى إحدى الكنائس فى يوم معلوم من السنة ، ومحاولة أحد رؤساء النصارى أن يدعو يهودياً إلى الدخول فى النصرانية مستدلاً بهذه المعجزة على صحة النصرانية .

ويعلق فيرناندو على هذه الرواية بأنها اختراع ، أو تلفيق من جانب اليهودى الذى ينقل عنه الخزرجى هذه القصة دون أن يذكر أدلة على ذلك[٢] .

ولعل الذى دفع فيرناندو لعدم قبول هذه المعجزة هو أنها غير مقبولة عقلاً، وتحتوى على تشبيه وتجسم للذات الإلهية، وغنى عن البيان أن الخزرجى ينقل القصة وهو غير مصدق لها بل يستخدمها كحجة تثبت مدى تلاعب الكنيسة بعقول العوام.

وفيما أرى فإنى لا أجد ما يدفعنى للظن بأن هذه القصة ملفقة من اليهودى ، خاصة أن كل الروايات التى أوردها الخزرجى من هذا القبيل قد نجد ما يشبهها ويقابلها فى تاريخ النصرانية بل فى واقعنا المعيش ، فالقصة السابقة التى ذكرها الخزرجى سنجد ما يشبهه فى سيرة حياة « مينا » حيث ورد أن تاجراً غنياً كان يريد أن يزور قبر هذا القديس وفى رحلته نزل بالإسكندرية لدى رجل ، وأودعه ألف دينار ذهب ، على أن يأخذها من الرجل فى الغد ولكن الرجل سبقى التاجر خمراً ،

(١) المقامع : الخزرجى ص ٢٦٧

(2) AL- ANDALUS- REVISTA DE LAS ESCUELAS DE ESTUDIOS ARABES DE MADRID Y GRANADA FERNANDO DE LA GRANJA "MILAGROS ESPANOLES EN UNA OBRA POLEMICA MUSULMANA (EL" KITAB MAQAMI AL-SULAN" DEL JAZRAYI) SEPARATA 1968- P. 335-336.

وقتله وقطع أعضاء جسمه أشلاء ، واحتفظ بالرأس وهنا بدأت تظهر معجزات مينا حيث قام من القبر ، وظهر للرجل القاتل وطلب منه الرأس ، فرفض هذا القاتل ولكن مينا أستطاع الحصول على الرأس ، ونظر إلى باقى الجسد الممزق أشلاء ، ثم حول وجهه إلى السماء ، وصلى إلى الله ، وهنا حدثت المعجزة ، فعلى الفور نزلت من السماء يد نورانية ، وألصقت أعضاء الجسد كل منها فى مكانه وقام الرجل حيًا[١]

وهكذا نرى أن نزول يد سماوية ليس شيئًا غريبًا على تاريخ المعجزات فى النصرانية.

ومن المعجزات النصرانية التى ذكرها الخزرجى تعليق النصارى لصليب فى الهواء بين السماء والأرض بلا حامل ، فيتعجب الناس ، ويظنون أن ذلك بسبب بركة المكان ، ولكن كشف يهودى هذه الخدعة لأحد رؤساء النصارى ، مبينًا أن الصليب تمسكه أحجار مغناطيسية من جهاته الست ، فأمر الرئيس أن لا يدخل معه أحد هذا المكان ، ثم أمر بحفر جانب واحد من الحائط فاستخرج منه حجرًا مغناطيسيًا فمال الصليب ، واستخرج مغناطيسًا من الجانب الثانى ، فاضطرب الصليب ، ففهم الرئيس الخدعة وترك المكان ولم يعد إليه ثانية ، وبالطبع كان نصيب هذه الرواية من فيرناندو أنها مختلفة ولكنه أضاف اتهامًا للخزرجى بأنه المسئول عن اختلاقها وحاول أن يثبت أن الخزرجى استفاد هذه القصة من مؤلفات إسلامية سابقة بهدف أن يوجد لدى المسلمين شعورًا حيًا بالبغضاء نحو الدين الذى يهاجمه .

والذى أراه أن الخزرجى لم يكن فى حاجة إلى اختلاق هذه الأساطير خاصة أن القس الذى كان يجادله هو الذى دفعه للحديث عن هذه المعجزات المدعاة ، وتاريخ

(1) ABAND LUNGEN-DEUTSH EN ARCHAOLOGISHEN ISLAMIS-CHE-REIHE.
BAND 7 - FELICITAS - JARITZ
DIE ARABISH EN - QU ELLEN - ZUM - HEILLGEN - MENAS-HEIDELBERGER- QRIENTVERLAG 1993.

النصرانية يجعل مثل هذه المعجزة لا تساوى شيئًا أمام معجزات من نفس نوعها أو أغرب منها ، فورد فى سيرة مينا السابق الذكر أن لصوصًا أرادوا سرقة أمتعة كنيسته ، فصعد أحدهم سور الكنيسة وحين سمع الحراس مستيقظين خاف وأراد الهبوط من أعلى الحائط فإذا بالقديس مينا يمسك هذا اللص ويلصقه بالحائط ، فبقى مسمرًا لا يستطيع الحركة وتخلفت الجاذبية الأرضية عن أداء دورها – تمامًا كما حدث فى الصليب المعلق فى الهواء – فلم يستطيع اللص الهبوط من أعلى سور الكنيسة وأجاب أصدقاؤه من اللصوص حين دعوه للهبوط فأخبرهم بأنه لا يقدر ، فحاولوا أن ينقذوه فلم يستطيعوا ، فتركوه وفى الصباح قبض عليه وقدم للوالى بالقاهرة فسجنه(1) .

والمعجزة الثالثة التى يذكرها الخزرجى تتشابه مع معجزة الصليب السابقة ؛ حيث إنها تذكر أن ثريا تقف معلقة فى الهواء بكنيسة تدعى الغراب، وينزل منها نور يضىء فى يوم من السنة .

ويذكر دى لاجرانخا أن هذه الأسطوة يرويها علماء مسلمون كالجاحظ فى «البيان والتبيين» والمسعودى فى « التنبيه والإشراف » وينسبونها إلى كنيسة القيامة أو القمامة فى بيت المقدس . وأن الخزرجى قد نقل القصة بحذافيرها إلى كنيسة الغراب، ومن ثم فالخزرجى فى نظر دى لاجرانخا هو المسئول عن إشاعة هذه الأسطوة فى عصره .

ومن جانبى أتساءل : ما هى دوافع الخزرجى لإسقاط تلك الأسطورة على الأندلس، وكنيسة محددة بها وفى إمكان القسيس أن يرفضها خاصة أنه من الأندلس؟.

والأفضل بالنسبة للخزرجى أن ينسب هذه الأسطورة إلى كنيسة القيامة كما ذكر ذلك علماء المسلمين . وأقرب إلى الذهن هو أن كنيسة القيامة ببيت المقدس يزورها

(1) ABAND LUNGEN - DEUTSH EN ARCHAOLOGISHEN ISLAMISCHE-REIHE- BAND 7

النصارى كل عام ؛ لأن هذه الأماكن لها صفة القداسة لديهم وتجرى أحداث هذه الأسطوة أمامهم ومن ثم نقل الأسبان فكرة هذه الخدعة إلى كنيسة الغراب بالأندلس وكشف الخزرجي زيفها .

أما الأسطورة الرابعة وتتمثل فى نزول العذراء على دون أذفونش المطران بكنيسة طليطلة حيث تكسيه بثياب «مزينة» ورأسه بتحلية(١) ، فيبدو أن دى لاجرانخا لم يجد ما يدعو إلى إتهام الخزرجي باختلاقها لشهرة نزول العذراء من السماء لدى النصارى عبر العصور ، وكأنها متخصصة فى هذا النزول وحتى لا نذهب بعيداً ففى مصر فى أواخر الستينات من هذا القرن ادعى الأساقفة والقساوسة أن العذراء تظهر فى كنيسة باسمها فى ضاحية الزيتون الواقعة بمدينة القاهرة ، وتظهر فى مواضع مختلفة وأشكال متعددة ، وأحد هذه المناظر كانت تنظر نحو صليب مثبت فوق القبة الكبرى لكنيسة العذراء والصليب يضىء ويشع نوراً مع أنه جسم معتم(٢) وهذا يذكرنا بالصليب المعلق بكنيسة الغراب فى الأندلس .

وهكذا نجد أن الجدل الإسلامى لأهل الكتاب بالأندلس يمثل حلقة مهمة من تاريخ الجدل الدينى بين الأديان الثلاثة (اليهودية والنصرانية - والإسلام) وقد تعددت مظاهر هذا الجدل بين مناظرات ومراسلات ، ومؤلفات جدلية تعرضت لشتى الاختلافات العقائدية بين الإسلام وكل من اليهودية والنصرانية، وكان القرآن الكريم والتوراة والإنجيل محل بحث ودراسة من علمين كبيرين يمثلان قمة النضج الفكرى لدى الأندلسيين وهما ابن حزم الأندلسى وأحمد بن عبد الصمد الخزرجى اللذان أثرا التراث الإسلامى بعديد من المؤلفات التى عكست تنوع ثقافتهما ، وجاءت كتاباتهما انعكاساً لحياتهما وترك هذان العالمان أثراً فيمن عاصرهما ومن جاء بعدهما .

---

(١) المقامع : الخزرجى ص ٢٧١

(٢) العذراء فى الزيتون وضعه الأنبا غريغوريوس أسقف عام الدراسات العليا والثقافة القبطية والبحث العلمى بأمر من الأنبا كيرلس السادس - القاهرة سنة ١٩٦٩م ص٧٨

الخاتمة

تعتبر دراسة الجدل الديني في الأندلس من الدراسات المهمة في تاريخ الحوار العقائدي بين الأديان ، وألقت الدراسة الضوء على جهود عالمين جليلين من علماء مقارنة الأديان هما : أبو محمد على بن حزم الظاهري ، وأحمد بن عبد الصمد الخزرجي ، وحاولت في الدراسة أن أظهر جهودهما في صورة مقارنة ؛ لبيان مدى الإضافات التي أضافها هذان العلمان في حقل الجدل الديني لأهل الكتاب ، وكذلك تأثيراتهما العلمية في هذا المجال .

ونستطيع أن نلخص أهم النتائج التي خرجنا بها من هذه الدراسة في النقاط التالية :

١ - ناقش ابن حزم عقيدة الألوهية لدى اليهود ، وتعجب أن تشبه التوراة الإله بالإنسان الأحمق فيصارع البشر ، كما يلحقه التعب والإرهاق فيطلب الراحة بعد اليوم السادس من خلق العالم ، ويتعقب ابن حزم القصص التوراتية التي تصف الإله بالبكاء والأنين والدعاء بالويل على نفسه وجواز الكذب. أما الخزرجي فكشف أن التوراة تجعل الإله أشبه بإنسان شرير يلجأ للغش والمداهنة والخداع والجشع حتى أنه يطلب من اليهودي أن يتعامل بالربا مع غير اليهودي .

٢ - أثبت ابن حزم أن عقيدة التثليث النصرانية هي في حقيقتها قول بتعدد الآلهة فالإله الآب غير الإله الابن ، وكلاهما غير الروح القدس ، وأكد الخزرجي كلام ابن حزم فتساءل مستنكراً : لماذا سمي المسيح ابنًا ولم يقال عنه الآب ؟ ! .

٣ – أثبت ابن حزم أكذوبة دعوى صلب المسيح عليه السلام ، فلم يتوفر للنصارى التواتر فى النقل ، وأصحاب الأناجيل ليس قولهم حجة وقد نقلوا التثليث، كما أن أقوالهم فى أحداث الصلب المزعوم متناقضة ومتعارضة .

٤ – تعجب الخزرجي من أن ينسب لله تعالى بأنه سمح بصلب ابنه تكفيرًا لذنوب البشر فالأولى بالإله أن يعفو عن السيئات فضلاً عن أن يعاقب أحدًا بذنب غيره، والنصوص الإنجيلية تثبت أن المصلوب ليس المسيح ؛ حيث كان يطلب شرابًا ويعترض على صلبه ، أما المسيح فتصفه الأناجيل بأنه كان يطوى أربعين ليلة بلا طعام أو شراب وهو منزه عن أن يعترض على إرادة الله بصلبه ، وتضيف الأناجيل أن المسيح سأل اليهود حين أرادوا صلبه : من تريدون ؟ فأجابوا يسوع مما يدل على أنهم لم يعرفوه .

٥ – أثبت ابن حزم بما لا يدع مجالاً للشك أن كتب اليهود ، والنصارى التى يقدسونها قد لحقها التحريف ؛ حيث لم يتوفر التواتر الكافى لنقلها ، واستخدم ابن حزم منهج النقد التاريخى متتبعًا تاريخ بنى إسرائيل السياسى والدينى مبينًا أثر الحروب والفتن فى إختفاء التوراة ، وعدم تداولها بين أفراد الشعب منتهيًا إلى نتيجة منطقية تتمثل فى أن كل كتاب، وشريعة كانا مقصورين على رجال من أهلها ، ومحظورين على من سواهما فالتبديل والتحريف مضمون فيهما .

٦ – أثبت الخزرجي تحريف التوراة والإنجيل مستخدمًا النقد الخارجى ، والداخلى لنصوص هذين الكتابين فالتوراة تختلف بين طوائف اليهود ، كما تختلف توراة اليهود عن توراة النصارى ، ونصوص الأناجيل تختلف عن بعضها ؛ بل نصوص الإنجيل الواحد متعارضة ومتناقضة .

٧ – كشفت الدراسة عن جانب مهم من جوانب الحياة الدينية ، والاجتماعية التى كان يحياها المسلمون واليهود والنصارى فى الأندلس ، والعلاقات التى كانت قائمة بينهم فى المجال العقائدى .

٨ – كان الجدل الإسلامى لليهود فى الأندلس أكثر وضوحًا عنه فى المشرق نظرًا لأن الوجود الثقافى لليهود بالأندلس كان أكثر ثراء ، فكتابات ابن النغريلة ، ويهودا اللاوى ، وغيرهم من علماء اليهود خير ممثل لهذا الاحتكاك الجدلى الذى كان قائمًا بين المسلمين واليهود فى الأندلس .

٩ – كان ابن حزم الأندلسى من أكثر علماء المسلمين مناظرة لليهود ، فالذى يقرأ كتاب « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » يطالع العديد من المناظرات الشفهية ، التى كانت تدور بين أبى محمد بن حزم ، واليهود .

١٠– بعض النصوص التى ذكرها ابن حزم قد لا يوجد لها مقابل فى التوراة التى بين أيدينا ، وليس فى هذا تشكيك فى أمانة ابن حزم ؛ لأنه كان ينقل من التوراة مباشرة دون الاعتماد على الذاكرة، أو أى مصدر آخر ، وقد كان يصف التوراة التى ينقل منها وصفًا دقيقًا .

ونفسر عدم وجود بعض هذه النصوص فى التوراة التى بين أيدينا اليوم بأن النقد، الذى وجهه علماء المسلمين لكتب اليهود والنصارى دفعهم إلى محاولة التصرف فى هذه النصوص ؛ لكى يدفعوا عن أنفسهم نقد المسلمين لهم ، وقد أشار ابن حزم إلى تعرضه لمثل هذا أثناء مناظرته لأحبار اليهود ، فقد كانوا يلجأون إلى الكذب للتخلص من إلزامهم ، وإفحامهم فى مجلس المناظرة .

١١– أفاد ابن أبى عبيدة الخزرجى من جهود ابن حزم فى مجال رده على أهل الكتاب، ونقل منه بعض النصوص أثناء رده على القسيس الذى كان يجادله .

١٢- كان للجدل الدائر بالأندلس انعكاسه على المشرق ، وأفاد المشرقيون من مؤلفات ابن حزم ، والخزرجي في ردودهم على اليهود والنصارى .

١٣- نجح ابن حزم في تطبيق المنهج الذى اختطه لنفسه ، ويتمثل في ألا يذكر من النصوص المقدسة لدى اليهود والنصارى ما يحتمل أكثر من وجه ولو كانت هذه الوجوه دقيقة ، وبعيدة فكان يقتصر على ذكر ما هو قطعى الدلالة على مراده من هذه النصوص حتى يكون نقده سليمًا ، وقطعيًا ، وغير قابل للمراجعة .

١٤- جاءت ردود ابن أبى عبيدة الخزرجي على شبهات القسيس القوطى ، منطقية ومفحمة ولم تخرج عن موضوعها ، أو تتجاهل أى شبهة ذكرها القسيس ، وعكست هذه الردود سعة عقلية الخزرجي وتنوع ثقافته ونضجه المبكر .

١٥- يعتبر ابن حزم الظاهرى من أوائل العلماء الذين طبقوا منهج النقد التاريخى لكتب اليهود والنصارى المقدسة ، وكان على معرفة مبكرة بالتلمود.

١٦- تعتبر الأخطاء العلمية التى ذكرها ابن حزم ريادية في مجال نقد « الكتاب المقدس » وسبق بها كثيرًا من علماء الغرب كاسبينوزا وغيره ممن كشفوا تناقض هذه الكتب مع العلم والعقل .

١٧- كان ابن حزم على دراية بمؤلفات من سبقه من علماء اليهودية والنصرانية، وذكر أسماءهم كسعديا الفيومى من اليهود ، وأبى رائطة التكريتى من النصارى وأشار إلى استدلالات النصارى على التثليث في بعض كتبهم ، وأثبتت الدراسة أمانة ابن حزم في نقل هذه الاستدلالات .

بعد ذكر أهم النتائج التى خرجت بها من الدراسة فإن هناك مجموعة من التوصيات الجديرة بالأخذ فى الاعتبار وتتمثل فى :

١ - زيادة الاهتمام بتاريخ المسلمين فى الأندلس ، والكشف عن بعض الفترات التاريخية التى ما زالت تحتاج إلى مزيد من إلقاء الضوء عليها خاصة تاريخ المورسكيين أو بقايا المسلمين المنصرين ، ولا ريب أن تاريخ المسلمين فى الأندلس سيكشف لنا أبعاداً كثيرة عن مشكلاتنا السياسية والاجتماعية ، والدينية والفكرية المعاصرة من حيث أسبابها ، ودوافعها ، وكذلك أهدافها ، ومخاطرها .

٢ - البحث فى التراث الأندلسى عن كنوز المسلمين الجدلية لأهل الكتاب ، فما زالت مؤلفات المسلمين عامة والجدلية خاصة بالأندلس تحتاج إلى مزيد من العناية ، وليس أدل على ذلك من أن هجوم ابن النغريلة على القرآن توصل إليه ابن حزم من خلال رد أحد المسلمين عليه ، ونحن لا نعرف من هو هذا المسلم ؟ وما اسم كتابه إن كان له اسم ؟ .

٣ - ضرورة القيام بدراسة تهتم بالملل ، والعقائد ، التى تنتشر فى العالم الإسلامى المعاصر أو عمل أطلس عقائدى للديانات ، والملل ، والنحل المعاصرة حتى تصبح أعمالنا تكميلية لأعمال سلفنا من المسلمين كابن حزم والشهرستانى وغيرهم .

٤ - ضرورة جمع مخطوطات ابن حزم - خاصة الجدلية - وإعادة تحقيقها حتى تكون متكاملة بين يدى القارئ ، ومن ثم تعطى معرفة أوضح ، وأشمل عن فكر ابن حزم وليس أدل على ذلك من أن تحقيق الدكتور محمود حماية للجزء

الأول من « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » لابن حزم يزيد عشرات الصفحات عن نفس الجزء المنشور فى مصر لرجوع الدكتور حماية لمخطوطات – استعار بعضها من أستاذتنا الأستاذة الدكتورة سهير فضل الله أبو وافية – لم يرجع إليها ناشروا كتاب الفصل .

٥ – يجب على المنظمات والمؤسسات الإسلامية التى تهتم بالحوار بين الأديان أن تجعل من يمثلها فى هذه المجالات من المتخصصين ذوى الدراية ، والمعرفة بالأديان غير الإسلامية فضلاً عن المعرفة العميقة بالإسلام .

٦ – ضرورة الاهتمام بعلم مقارنة الأديان فى ظل ما يسود العصر من الدعوى إلى الحوار بين الأديان ، والحقيقة أن الغرب يهتم حاليًا بهذا العلم – رغم أنه إسلامى النشأة – حتى أننا نجد أقسامًا متخصصة لدراسة هذا العلم فى الجامعات الغربية[1] .

٧ – ضرورة تدريس تاريخ المسلمين بالأندلس فى مراحل التعليم الأساسية ؛ ليتعرف التلاميذ على أمجاد أسلافهم وعلى حضارة الإسلام فى الأندلس ، تلك الحضارة التى كانت مركزًا للإشعاع الثقافى فى الغرب .

(١) سبق أن ذكرنا هذا الكلام فى سمنار عقدناه بكلية بنات عين شمس فى أواخر عام ١٩٩٥م

الملخص

جهود ابن حزم وابن أبي عبيدة الخزرجي في مجادلة أهل الكتاب بالأندلس

تتناول هذه الدراسة جهود علمين من أعلام حقل الجدل الدينى ومقارنة الأديان فى الأندلس:

أولهما : ابن حزم (ت٤٥٦هـ) .

والثانى : أحمد بن عبد الصمد الخزرجي (ت٥٨٢هـ) .

وتهدف الدراسة إلى معرفة الأثر الحضارى الذى تركه المسلمون بالأندلس خاصة فى مجال علم مقارنة الأديان ، والكشف عن جانب مهم من جوانب حضارة المسلمين ، وتفاعلهم الفكرى مع أصحاب الديانات الكتابية على أرض الأندلس .

وقد جاءت هذه الرسالة فى مقدمة وخمسة فصول وخاتمة ، وتعرضت فى الفصل الأول لسيرة كل من ابن حزم ، والخزرجي ومصنفاتهما .

وتناولت فى الفصل الثانى تاريخ الجدل الدينى بالأندلس وأهمية دراسته، ثم تحدثت فى الفصل الثالث عن الأسباب التى دفعت ابن حزم، والخزرجي للجدل مع اليهود والنصارى، والمصادر التى اعتمدا عليها فى هذا المجال ، ثم معرفة آداب الجدل التى وضعها ابن حزم ومدى التزامه بالآداب الجدلية الإسلامية .

أما الفصل الرابع فقد تعرضت فيه لموقف

ابن حزم والخزرجي من أهم قضايا الخلاف العقائدي بين المسلمين وأهل الكتاب كالألوهية وتحريف كتابهم المقدس ، والنسخ ، والبشارة بالنبي ﷺ .

وتناولت في الفصل الخامس مكانة جهود هذين العلمين في مجال الجدل الديني لأهل الكتاب ، مثل الرد على شبهات اليهود والنصارى ، وأثر تلك الجهود فيمن تعرض للرد على أهل الكتاب من علماء المسلمين ، ثم قمت بتحليل للدراسات النقدية التي تناولت جنود كل من ابن حزم والخزرجي .

وقد انتهجت في هذه الدراسة منهجًا تحليليًا مقارنًا ، وانتهت هذه الدراسة إلى مجموعة من النتائج والتوصيات من أهمها أن ابن حزم والخزرجي استطاعا أن يثبتا بمنهج علمي فساد عقائد أهل الكتاب ، وأن كتبهم المقدسة لديهم قد نالتها يد التحريف، وكان ابن حزم رائد علم « مقارنة الأديان» وترك تأثيراً كبيراً في علماء المسلمين وعلماء الغرب الذين تعرضوا لدراسة تاريخ المسيحية من حيث نشأتها ، وتطورها ، ونقد عقائدها .

ومن التوصيات التي طالبت الدراسة بالعمل على تحقيقها هي زيادة الاهتمام بتاريخ المسلمين في الأندلس خاصة بعض الفترات التاريخية التي ما زالت تحتاج إلى مزيد من الكشف عنها ، كتاريخ المورسكيين ، وهم بقايا المسلمين الذين استمروا بالأندلس بعد سقوط غرناطة آخر أراضي المسلمين التي سقطت ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م ، فقد تعرضت هذه الطائفة لأبشع صور التطهير العرقي ، والتنصير القسري .

وكذلك طالبت الدراسة بالكشف عن مصنفات المسلمين الجدلية التي ما زالت مجهولة خاصة مؤلفات ابن حزم ، ومخطوطاته التي وصلنا اسمها ولا نعرف شيئًا عنها، وكذلك دعت الدراسة إلى العمل على الاهتمام بعلم مقارنة الأديان في ظل ما يسود العصر من احتكاك الثقافات وطالبت الدراسة الباحثين المتخصصين أن يهتموا بعمل أطلس عقائدي للملل والديانات التي تنتشر في العالم الإسلامي على الأقل حتى تكون أعمالنا تكميلية لعلماء مسلمين سبقونا في هذا المجال كالشهرستاني وابن حزم .

Summary

The efforts of Ibn-Hazm and Ibn-Abi ubaridah Al-khazragi in the argumentation with the people of the Book (People of the Bible) in Andalus.

This study explains the efforts of two scholars who involve in the religious dialectic field and the comparative religions in Andalus.

The first scholar was Ibn-Hazm who died in 456H and the second was Ahmad Ibn -Abd Al-Samd Al-khazragi who died in 582 H.

The objective of study is to know the effects of civilization which was left by Muslims in Andalus particularly in the field of comparative religions. Its also intend to expose the important aspects of Muslims civilization and their reactions towards other religions in Andalus.

The thesis consists of an introduction, five chapters and it would be followed by a conclusion.

In the first chapter the writer has explains about the life of Ibn Hazm and Al-khazragi and therir literatures. In the second chapter, it highlights the history of religious dialectic and its significance.

The third chapter presents the reasons which urged Ibn Hazm and Al-khzragi to have a dialectic with Jews and christians and the references used by both of them in this field. It would be followed by a discussion concerning to the art of dialectic according to Ibn Hazm and how far his adherence to the art of Islamic dialectic.

The fourth chapter, the study highlights the stand or opinion of the both scholars pertaining to som important issues related to the doctrinal differences between Muslims and the people of the book such as the problem of godhood, the changing of therir holy book, the scripting and the prediction of the prophet.

In the last chapter, it provides the position and efforts of these two scholars in the religious dialectic with the people of the book for instance their efforts in responding to the suspicion made by Jews and christians. The section also provides a critical concerning to their efforts.

In this study, the writer used a comparative analytical methods. Findly, the writer ended this study with some findings and suggestions.

The most important finding are Ibn Hazm and Al-khazragi could prove the invalidity of the doctrine of the people of the book and their scriptures had undergone a great changes and alterations.

Ibn Hazm was a pioneer of the study of comparative religions and he has left a great impact on Muslim and western Scholars who studied the history of christianity with regard to its growth and development and the invalidation of their doctrine.

Som suggestions from this study is that more emphosis should be given to the history of Muslims in Andalus particularly some histirical period which need to be exposed like the history Morsek-

eyyen because they are the only Muslims who are still living in Andalus after the falling of Gharnata in 897 H- 1492M.

The Study also calls for more exposure to the literatures of the Muslims dialectics which are still unknown especically the writings of Ibn Hazm and his manscripts. It alsocalls to concentrate more on knowledge of comparative religion as the present period is the age of the cultural communication (dialogue). It also urges the rescarcher to make a doctrinal Atlas of all sects and religions as a completion of the effort of Muslims scholars in this field lik Al-shahrastani and Ibn Hazm.

فهرس

إن تاريخ الحضارة الإسلامية بالأندلس مازال يحتاج إلى جهود العلماء المخلصين؛ لتجلية الكثير من جوانب حياة المسلمين بالأندلس التي امتدت أكثر من ثماني قرون (٩٢ هـ : ٨٩٧ هـ)، وهذا الكتاب يمثل دراسة معمقة لجانب مهم من جوانب الاحتكاك الثقافي والعقائدي بين أتباع الديانات الثلاث (الإسلام - اليهودية - المسيحية).

ولاشك أن توفر مثل هذا الاحتكاك العقائدي إن دل فإنما يدل على روح التسامح الديني التي كان يوليها المسلمون حكاماً ومحكومين تجاه اليهود والنصارى ذلك التسامح الذي عمق روح التفاهم، والتواصل بين سكان الأندلس مما ساعدهم على الازدهار الحضاري الذي نسعى إلى تحقيقه في عالمنا المعاصر.

أحمد غريب